بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الخرطوم
كلية الآداب
قسم اللغة العربية
كلية الدراسات العليا

الظواهر اللغوية في كتابي الحيوان والبيان والتبيين للجاحظ

دراسة وصفية أداتها التحليل

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه
في علم اللغة

إعداد الطالبة: عائشة محمد عثمان مصطفى **إشراف: د. عبد الله محمد أحمد**

أغسطس 2006م

الإهـــــــداء

إلى روح والدي الطاهرة .... أسكنه الله فسيح جناته
إلى روح أختي الغالية .... فاطمة الأمين رحمها الله رحمة واسعة
إلى أمي الحبيبة... متعها الله بالصحة والعافية
إلى ساعدي الأيمن ورفيق دربي... زوجي العزيز
إلى قرة عيني ...ابني الحبيب
إلى كل أفراد أسرتي الكريمة
إليهم جميعاً أهدي هذه الرسالة

(وفوق كل ذي علم عليم)

(يوسف آية 76)

شكر وعرفان

(رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي)

الشكر من قبل ومن بعد لله رب العالمين والذي قال في محكم تنزيله: "ولئن شكرتم لأزيدنكم"

ثم من بعد:-

أتقدم بجزيل شكري وخالص امتناني للدكتور عبد الله محمد أحمد الذي قام بالمتابعة الدقيقة والتوجيه التام والنصائح العلمية القيمة.

كما أسجل شكري وامتناني لأسرة جامعة الفاشر التي أتاحت لي فرصة الدراسة، ولجامعة الخرطوم التي تكرمت بقبول دراستي بها.

كما أخص بالشكر والعرفان أخي الأستاذ/ محمد علي جمعه الذي قام بتوفير معظم مراجع هذه الرسالة، وأخص أيضاً الأخت ماريا جمعه وزوجها الكريم المقدم شرطة محمد محمد نور لجهودهما معي في إتمام هذه الرسالة.

والشكر موصول للأستاذتين: اعتدال وسهام لدورهما في مراجعة هذه الرسالة.

كما أشكر الأخت إنصاف صديق التي قامت بطبع هذه الرسالة.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، الذي خصه الله تبارك وتعالى بالبيان والفصاحة، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فهذه دراسة في مؤلفات الجاحظ، تكشف عن اهتمامات الجاحظ بأمر اللغة وقد وقع الاقتصار على كتابي "الحيوان" و"البيان والتبيين" ليكونا مصدر هذه الدراسة. وذلك لاحتوائهما على المادة اللغوية المقصودة أكثر من غيرهما.

أهمية البحث:

اشتمل الكتابان على مباحث قيمة لم تزل بكراً كحديثه عن مخارج الأصوات وعيوب اللسان والعيوب الناتجة عن نطق الأعاجم لأصوات العربية، وقد شغل الباحثين عن هذه الأبواب اشتغالهم بما حواه هذان الكتابان من مسائل الأدب والنقد والتاريخ والشعر والقصص، فتكمن الأهمية في تخصيص هذه الدراسة للبحث في الجوانب اللغوية.

أهداف البحث:

1- الكشف عن الجانب اللغوي في كتابي الحيوان والبيان والتبيين.
2- التيسير على القارئ بجمع عناصر الموضوع في مكان واحد.

أسباب الاختيار:

1- فك لغز كتاب الحيوان لمن يعتقد بأنه خاص بشأن الحيوان فقط.
2- أما كتاب البيان والتبيين فيعتبر مثالاً للنضج والتمام لعلم الجاحظ لأنه من آخر ما ألفه الجاحظ.
3- توضيح أن كتب الجاحظ تحوي مادة ثرة للباحثين في أي فرع من فروع اللغة.

منهج البحث:

المنهج المستخدم في هذا البحث هو المنهج التاريخي الوصفي التحليلي.

فالمنهج التاريخي يظهر في أن البحث قد تناول تاريخ المؤلف حياته وآثاره، وتاريخ الدراسات السابقة له المهتمة بجانب من جوانب البحث.

أما الوصفي: فيظهر في وصف الظواهر اللغوية.

أما التحليلي: فيكمن في تحليل هذه الظواهر.

الصعوبات:

أولاً: لم تعثر الباحثة على دراسة لغوية في هذا المجال فيما بين أيديها من المصادر.

ثانيا: انتقال الجاحظ من فلسفة إلى توحيد، ومن قرآن إلى حديث، ويخلط جد ذلك بالمزح، ثم يخرج إلى القصص فيحكي عن نفسه ويروي عن الناس، ولا يقتصر على عرب أو فرس حتى ينقل عن العرب والهند، وعن اليونان وجميع من خلق الله، وربما عاد إلى ما بدأه من جديد، وربما أنساه الاستطراد ما بدأه. فكان علي أن أجمع مادة الكتاب من مواضع متناثرة لهذين الكتابين.

تبويب البحث

يشتمل هذا البحث على ستة فصول تندرج تحتها عدد من المباحث وهي كما يلي:

الفصل الأول: الجاحظ ومؤلفاته

المبحث الأول: ترجمة الجاحظ.

المبحث الثاني: مؤلفاته

أ- عرض لكتاب الحيوان

ب- عرض لكتاب البيان والتبيين.

الفصل الثاني: اختلاف لغات القبائل والأمصار

المبحث الأول: ذكر بعض القبائل ومدى تفاوتها في درجات الفصاحة

المبحث الثاني: اختلاف لغات الأمصار

الفصل الثالث: إسهاماته في الدراسة الصوتية

المبحث الأول: حديثه عن الأصوات.

المبحث الثاني: عيوب اللسان

الفصل الرابع: البيان وعيوبه

المبحث الأول: حد البيان عنده

المبحث الثاني: عيوبه

أ-اللحن

ب-العيوب الناتجة عن نطق الأعاجم لأصوات العربية

الفصل الخامس: اهتماماته المعجمية

المبحث الأول: ما فسره من ألفاظ اللغة العربية

المبحث الثاني: ما فسره من ألفاظ اللغة الفارسية

الفصل السادس: اهتمامه بالعوام

الخاتمة: وتشمل نتائج البحث

الفصل الأول

الجاحظ ومؤلفاته

المبحث الأول: ترجمة الجاحظ

المبحث الثاني: عرض لكتابي الحيوان والبيان والتبيين

ترجمة الجاحظ:

اسمه:

عمرو بن بحر بن محبوب[1] بن فزارة.

كنيته:

يكنى بأبي عثمان. وقد ورد في تاريخ بغداد أن الحسن بن زياد الموصلي سمع أبا بكر العمي يقول:

سمعت الجاحظ يقول: نسيت كنيتي ثلاثة أيام، فأتيت أهلي فقلت بمن أكنى؟ فقالوا بأبي عثمان[2].

لقبه:

يلقب بالجاحظ لجحوظ عينيه. وقد كان يضيق بهذا اللقب، ويجتهد في ترغيب الناس بدعوته باسمه، أو كنيته ولو علم الجاحظ أن لقبه هذا سيكون فيما بعد عصره نعتاً من أجل النعوت التي عمل الكثيرون من عظماء الرجال وأكابر الرؤساء على أن يكون لهم شرف الانتساب إليه لسره من لقبه أكثر مما أعجبه من اسمه فقد أصبح هذا الاسم دليلا على التبحر في العلم والتوسع في الآداب والتفوق في فنون البلاغة وصنوف البيان. فهذا أبو زيد أحمد بن سهل البلخي كان ينعت بجاحظ خراسان، وهذا أبو الفضل ابن العميد يرتاح إلى من يصفه بالجاحظ الثاني، وكذلك أبو حيان التوحيدي وهو كاتب بليغ كان ينازع ابن العميد صفة الجاحظ الثاني[3].

مولده:

اتفق أصحاب التراجم على مكان مولد الجاحظ وهو البصرة أما تاريخ ميلاده فهو موضع اختلاف، وأقدم أصحاب التراجم ذكر أنه ولد في عام مائة وخمسين للهجرة، إلا أن هناك رأي يختلف عن تلك الآراء ويؤرخ لمولده بسنة مائة وثلاثة وستين للهجرة[4].

([1]) البغدادي/ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب. تاريخ بغداد، ط، ج1، الكتب العلمية/ بيروت ج2، ص 212.

([2]) السابق. ج2، ص 214.

([3]) أدب الجاحظ حسن السندوبي ط1 القاهرة 1931 ، ص 18.

([4]) كحالة عمرو رضا – معجم المؤلفين. ط مؤسسة الرسالة 19940، ج2، ص 163.

وفيصل القول في هذه المسألة ما نسبه ياقوت الحموي إلى الجاحظ من قوله: "أنا أسن من أبي نواس بسنة ولدت في أول سنة خمسين ومائة، وولد هو في آخرها[5]".

وقال ياقوت: مات الجاحظ سنة خمس وخمسين ومائتين في خلافة المعتز وقد جاوز التسعين[6].

أسرته:

أجمع بعض المؤرخين مثل البغدادي[7] وابن خلكان[8] وياقوت الحموي[9] على أن الجاحظ من أهل البصرة وهو كناني ليثي نسبة إلى ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خذيمة. كما ذكره ابن النديم بأنه مولي لأبي القلمس عمرو بن قلع الكناني ثم الفقيمي. قال يموت بن المزرع[10] والجاحظ خال أمي. وكان جده الأدنى أسود، وكان جمالاً لعمرو بن قلع[11] يقال له فزارة. ومن هنا نشأ الشك –عند البعض- في عربية الجاحظ. فتوهم أنه عربي بالولاء، لا بالنسب. ويرد الدكتور طه جابر فياض على أولئك بقوله: "ولم نجد أحداً ممن ترجم له ذكر أن الرق قد وقع على أي من أجداده، ولو وجد ذلك لما أغفله شانئوه وهم كثير.

وأما سواد اللون فلا يمكن اعتباره دليلاً على الرق لأسباب لا تخفى، وأما قيام جده "فزارة" على ابل عمرو بن قلع، فهذا الآخر لا يصلح دليلاً على ما ذُكر.

ولو صح ذلك –لوجدنا الجاحظ على رأس الشعوبيين- الذين لم يكونوا يرون للعرب شيئاً من الفضل، ولكنا على العكس رأيناه شديد الاعتزاز بالعرب فكان لا يرى فضيلة في أمة من الأمم إلا ويروي أهم منها للعرب، وما من مزية من مزايا الأمم إلا ويروي الجاحظ أن العرب أولى بها وأسبق إليها.

([5]) الحموي: ياقوت بن عبد الله / معجم الأدباء، ط3. دار الفكر للطباعة والنشر 1980، ج16، ص78.

([6]) السابق. نفس الجزء ونفس الصفحة.

([7]) أنظر تاريخ بغداد ج12، ص213.

([8]) ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد. وفيات الأعيان، تحقيق احسان عباس ط/ دار صادر/ بيروت . و . ت، ج3، ص471.

([9]) معجم الأدباء، ج16، ص 78.

([10]) هو أبو بكر محمد بن موسى بن سيار البصري، غلب عليه اسم يموت واشتهر به ، كان من مشايخ العلم والأدب أخذ عن الجاحظ وأبي عثمان المازني وغيرهما (ت 304هـ)

([11]) ابن النديم : أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحق. الفهرست، تحقيق. رضا تجدد، ص 208.

عمره:

عمر الجاحظ إلى أكثر من تسعين سنة. وذلك حسبما رواه الحسن بن أبي طالب عن المبرد حين قال: "حدثنا المبرد قال دخلت على الجاحظ في آخر أيامه وهو عليل، فقلت له كيف أنت؟ فقال كيف يكون من نصفه مفلوج ولو نشر بالمناشير ما حس به، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه، والآفة في جميع هذا أن قد جزت التسعين وأنشد:-

أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشبـاب

لقد كذبتك نفسك ليس ثوب دريس كالجديد من الثياب[12].

وكان يقول: "أنا من جانبي الآيمن مفلوج، فلو قرض بالمقاريض ما علمت به، ومن جانبي الأيسر منقرس فلو مر به الذباب لألمت"[13] ويقول أيضاً: "اصطلحت على جسدي الأضداد إن أكلت بارداً أخذ برجلي وإن أكلت حاراً أخذ برأسي وأشد ما على ست وتسعون سنة[14]"

نشأته:-

كانت نشأة الجاحظ في البصرة، وظل بها عاكفا على التعلم والدرس والإطلاع. وكان كثيرا ما يترك البصرة قاصدا غيرها من المدن الإسلامية المعروفة في ذلك العصر للبحث والاستقراء ولقاء العلماء ولما جاوز الخمسين من عمره عنت له الرحلة إلى بغداد واتخاذها دار إقامة له وذلك في عهد المأمون، وكان دخوله إلى بغداد في سنة 204هـ، في الوقت الذي قدم إليها المأمون فيه. وما أن استقر بها حتى تصدر للتعليم والمناظرة والتأديب والمحاضرة، فقصد إليه العلماء وأمه الأدباء، وأقبل عليه الطلاب من كل صنف ومن كل جنس، وعلى اختلاف الملل وتباين النحل.

([12]) السابق ، ج12، ص 219..

([13]) الحيوان ج1، ص 27.

([14]) وفيات الأعيان ج3، ص 474.

وكان يقول: كان الفراء[15] يجيئني ويشتهي أن يتعلم شيئا من علم الكلام فلم يكن له فيه طبع[16] أي أن الفراء لم يكن لديه استعداد لتفهم علم الكلام.

تعليمه:

كان نظام التعليم في ذلك الوقت أن يبعث الوالد بولده إلى كتاب الحي فيتعلم فيه مبادئ القراءة والكتابة وقليل من قواعد النحو والصرف وطرفاً من أصول الحساب، ثم يستظهر كتاب الله الكريم استظهارا تاما مجودا مرتلاً، وهو في خلال ذلك يتردد مع أترابه على القاص فيسمع منه أحداث الفتوح وأنباء المعارف وأخبار الأبطال إلى غيرهم من المفاخرات والسير، ثم بعد ذلك يولي وجهه شطر حلقات الدرس بالمساجد العامة. على هذا النظام أو ما شابهه تلقى الجاحظ علومه ومعارفه فتعلم في الكتاب والمسجد والحلقات والإطلاع الواسع على كل ما تقع عليه يداه. وقد ذكر ابن النديم قول ابي هفان[17] في ذلك قال: "لم أر قط ولا سمعت من أدب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ. فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان حتى أنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر[18].

وقد ساعده على ذلك نشأته بالبصرة وهي من أكبر حواضر العلم والأدب في ذلك الوقت، يجتمع في مسجدها طائفة من العلماء وأرباب الأدب والنحو واللغة فأخذ عنهم الجاحظ الكثير بفضل ذكائه المتوقد والذي قال عنه ياقوت "كان الجاحظ من الذكاء وسرعة الخاطر والحفظ بحيث شاع ذكره وعلا قدره واستغنى عن الوصف[19].

تلقى الجاحظ الفصاحة وأساليب التعبير شفاهاً عن خطباء العرب في المربد[20].

---

(15) أبو زكريا يحيى بن زياد الديلمي النحوي الكوفي الشهير بالفراء وهو أحد أئمة العربية الذين يحتج برواياتهم توفي سنة 207هـ.
(16) أدب الجاحظ ، ص 24.
(17) أبو هفان المهزمي أكان أخبارياً راوية مصنفاً . ومن كتبه : صناعة الشعر انظر الفهرست ص161.
(18) السابق، ص 27.
(19) معجم الأدباء، ج6، ص 74.
(20) وفيات الأعيان ج3، ص 474.

ولما اجتمع له قدر صالح من العلم والأدب قصد بغداد واتصل فيها بالكبار من رجال الدين وعلماء اللغة، فأخذ عن الأصمعي وأبي زيد الأنصاري وأبي عبيدة. وأخذ النحو عن الأخفش.

قال ابن خلكان "سمع الجاحظ من أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري وأخذ النحو من الأخفش أبي الحسن. انضم إلى المعتزلة، وأجاد مناهجهم وأحاط بمعارف عصره من عربية وأجنبية، وهو صاحب التصانيف في كل فن[21]"

موارد رزقه:

يظهر من حال أبي عثمان أنه كان في أول أمره في ضيق من الرزق وخصاصة من العيش، فقد روى أنه وهو في دور الطلب كان يعاني الاتجار في الخبز والسمك قال ياقوت: ولما شب طلب العلم أولا في الكتاب مع أولاد القصابين ثم اتجه إلى بيع الخبز والسمك بالبصرة ليتعيش بذلك وهو لا يألو جهدا في طلب العلم ومطالعة الكتب[22].

فلما عرف فضله وانتشرت مصنفاته وذاع ذكره في الآفاق أقبلت عليه الدنيا واتسعت موارد رزقه وقد كانت له وظائف مالية يتقاضاها من دار الخلافة شهريا فضلا عن المنح والعطايا والإدرارات التي كانت تنهال عليه في المناسبات. سأله ميمون بن هارون – عندما رأى ما هو فيه من النعمة السابغة والجاه العريض: ألك ضيعة بالبصرة؟ فتبسم الجاحظ وقال: إنما أنا، وجارية لي، وجارية تخدمها، وخادم وحمار، أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب البيان والتبيين، إلى أحمد بن أبي داؤد فأعطاني خمسة آلاف دينار وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولي، فأعطاني خمسة آلاف دينار. فانصرفت إلى البصرة ومعي ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد[23].

([21]) وفيات الأعيان ، ج3، 473.
([22]) معجم الأدباء ج16 ص 74.
([23]) أدب الجاحظ ، ص 34.

ودخل عليه بعض إخوانه فقال له: كيف حالك يا أبا عثمان؟ فقال الجاحظ: سألتني عن الجملة فأسمعها مني واحدا واحداً: حالي الوزير يتكلم برأيي وينفذ أمري ويواتر الخليفة الصلات إلي وآكل من لحم الطير أسمنه وألبس من الثياب ألينها وأتكئ على هذا الريش، ثم أسير على هذا حتى يأتي الله بالفرج[24].

اعتزاله:

كان الجاحظ معتزلياً، يعتمد على العقل، ويتخذه إماماً في تفسير الشرع والنظر إلى الأحاديث، وكانت له فرقة خاصة في المعتزلة تدعى الجاحظية[25].

وذكره ياقوت بقوله: "قال أبو بكر أحمد بن علي، كان أبو عثمان الجاحظ من أصحاب النظام، وكان واسع العلم بالكلام كثير التبحر فيه شديد الضبط لحدوده ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا. وله كتب كثيرة مشهود بها في نصرة الدين وفي حكاية مذهب المخالفين، وفي الأدب والأخلاق، وفي ضروب من الجد والهزل، وقد تداولها الناس وقرأوها وعرفوا فضلها، وإذا تدبر العاقل المميز أمر كتبه علم أنه ليس في تلقيح العقول وشحذ الأذهان ومعرفة أصول الكلام وجواهره، وإيصال خلاف الإسلام ومذاهب الاعتزال إلى القلوب كتب تشبهها، والجاحظ عظيم القدر في المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء[26]"

والمعتزلة كما يسميهم مخالفوهم –أو أهل العدل والتوحيد- كما يسمون أنفسهم، طائفة إسلامية ظهرت حين أختلفت آراء الآئمة في "مرتكب الكبيرة من المسلمين" فذهب الخوارج إلى تكفير مرتكب الكبيرة وذهب الحسن البصري وجماعة إلى أن مرتكب الكبيرة من هذه الأمة منافق وذهب الجمهور إلى أن مرتكب الكبيرة من هذه الأمة مؤمن. وذهب واصل بن عطاء -شيخ المعتزلة ورأسها- إلى أن صاحب مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر بل هو في منزلة من المنزلتين. واعتنق هذا

([24]) نفسه ، ص 34.
([25]) تاريخ الأدب العربي، ص565.
([26]) معجم الأدباء، ج16، ص76.

المذهب كثيرون أمثال أبي الهذيل العلاف والنظام شيخ الجاحظ وكل من هؤلاء كان يجتهد ضمن الإطار العام للاعتزال ثم يضيف من آرائه ما يجعله صاحب طريقة خاصة حتى أصبحت المعتزلة عشرين فرقة من ضمنها الفرقة الجاحظية[27].

وقد قال ثابت بن قرة عنه "خطيب المسلمين وشيخ المتكلمين أن تكلم حكي سحبان في البلاغة وأن ناظر ضارع النظام في الجدال[28]"

وهو من المتكلمين[29] كما ذكره ابن النديم قال:

"قد أخذ الجاحظ علم الكلام عن أستاذه النظام البلخي[30]"

شهرته:-

قال ياقوت "كان الجاحظ من الذكاء وسرعة الخاطر والحفظ بحيث شاع ذكره وعلا قدره واستغنى عن الوصف[31]" وقد قيل لابي هفان "لم لا تهجو الجاحظ وقد ندد بك وأخذ بمخنقك؟ فقال: أمثلي يخدع عن عقله، والله لو وضع رسالة في أرنبة أنفي لما أمست إلا بالصين شهرة، ولو قلت فيه ألف بيت، لما طن منها بيت في ألف سنة[32]".

وقد كانت كتب الجاحظ تذيع وتنتشر وتطير في الآفاق لرغبة الناس الملحة في الاطلاع عليها ولحرصهم على ما فيها من علم غزير حتى أنه لم يستطع تغيير تفسيره لمعنى "اللحن" الذي ورد في كتابه البيان والتبيين في بيت مالك بن أسماء:

منطق صائب وتلحن أحياء   نا وخير الحديث ما كان لحنا

فقال الجاحظ في ذلك: "واللحن من الجواري الظراف، ومن الكواعب النواهد، ومن الشواب الملاح، ومن ذوات الخدود الغرائر أيسرٍ وربما استملح الرجل ذلك منهن مالم تكن الجارية صاحبة تكلف[33].

([27]) الملل والنحل ج1 ص 80.

([28]) السابق، ج16، ص68.

([29]) سبب تسميتهم بتلك أن طريقتهم كانت تسمى "علم الكلام، إما لما فيها من الحجاج والجدال وهو الذي يسمى كلاماً، وإما أن أصل طريقتهم نفس صفة الكلام. انظر: ابن خلدون: المقدمة تحقيق علي عبد الواحد وافي، ط3، ج3، ص1088.

([30]) الفهرست، ص202.

([31]) معجم الأدباء، ج16، ص 74.

([32]) السابق. نفس الجزء، ص 99.

([33]) البيان والتبيين، ج1، ص146-147.

قال الجاحظ: وقد قال مالك بن أسماء في استملاح اللحن من بعض نسائه: منطق صائب وتلحن ... الخ.

وقد أورد ياقوت الحموي قول الخطيب البغدادي عن يحيى بن علي أنه قال: قلت للجاحظ: أني قرأت في فصل من كتابك المسمى البيان والتبيين. إنما يستحسن من النساء اللحن في الكلام. قال الجاحظ: هو كذاك : قلت أفما سمعت بخبر هند بنت أسماء بن خارجة مع الحجاج، حين لحنت، وعاب الحجاج عليها ذلك، فاحتجت بقول أخيها فقال لها: إن أخاك أراد أن المرأة فطنة فهي تلحن بالكلام إلى غير المعنى في الظاهر لتستر معناه وتوري عنه وتفهمه من أرادت بالتعريض، ولم يرد الخطأ في الكلام. والخطأ لا يستحسن من أحد، فوجم الجاحظ ساعة ثم قال:- لو سقط إلى هذا الخبر لما قلت ما تقدم، فقلت: فأصلحه، فقال: الآن وقد سار الكتاب في الآفاق! هذا لا يصلح!![34]

وكانت مجالس العلماء ومحافل الأدباء في الأقطار العربية لا تكاد تخلو من ذكر الجاحظ ومصنفاته والنظر في آرائه ومعانيه بالأخذ والرد والجذب والدفع، وقل ما سقط له كتاب في بلد أو مصر إلا أقبل الناس على دراسته.

وكذلك مما يدل على شهرته ما رواه الخطيب البغدادي من أن أهل البصرة يفاخرون أهل الكوفة بأربعة كتب: البيان والتبيين والحيوان للجاحظ وكتاب سيبويه وكتاب العين للخليل.

ثقافته:

عاش الجاحظ في عصر كثر فيه التمازج بين الثقافات ويعتبر عصره بمثابة العصر الذهبي للأمة العربية وهو عصر هرون الرشيد والمأمون حيث ولاه المأمون على ديوان الرسائل[35]، إلا أنه لم يمكث فيه سوى ثلاثة أيام حيث غادره إلى دمشق وانطاكية. والثقافات التي كانت شائعة في تلك الأيام ثلاث هي:

([34]) معجم الأدباء، ج16، ص90.
([35]) تاريخ الأدب العربي، ص561.

الثقافة العربية الخالصة التي تعتمد على القرآن الكريم وما يتصل به من علوم الدين كالتفسير والفقه والكلام والتصوف، واعتمادها على الشعر وما يحيط به من العلوم الأدبية كالنحو واللغة وغيرها. ثم الثقافة اليونانية، وتليها الثقافة الشرقية التي نجدها عند الفرس والهنود والأمم السامية. كانت هذه الثقافات المختلفة تؤلف التراث العلمي في عصر الجاحظ والذي عاش مصوراً ومؤرخاً لتلك الثقافات الأجنبية المختلفة التي انتشرت في العالم العربي[36].

هذا بالإضافة إلى ارتباط الجاحظ الوثيق بالمجتمع وهو من أوائل الكتاب المسلمين الذي أبدوا اهتماماً واضحاً بالمجتمع فقد استطاع بحدة ملاحظته أن يدرك تغييرات بدأت تطرأ على المجتمع والنظام الاجتماعي نتجه لنمو الفعاليات المدنية للحاضرة العباسية[37].

وقد كان الجاحظ واسع الثقافة ملماً بكل ما يدور في عصره، وقيل لأبي العيناء: ليت شعري أي شيء كان الجاحظ يحسن؟ فقال: ليت شعري أي شيء كان الجاحظ لا يحسن[38].

ويدل على سعة علمه ما خلفه من مؤلفات كثيرة بلغت ما يزيد على ثلاثمائه وخمسين كتاباً.

ومما يدل على سمو قدره ما حكاه أبو القاسم السيرافي عن رجل غض من قدر الجاحظ عند ابن العميد، وكان ابن العميد وزيراً جليلاً كاتباً وشاعراً وفارساً، عالماً جليل القدر في نواح عديدة من نواحي المعرفة يقول السيرافي: "حضرنا مجلس الأستاذ أبي الفضل بن العميد الوزير، فجرى ذكر الجاحظ، فغض منه بعض الحاضرين وأزرى به، وسكت الوزير عنه، فلما خرج الرجل قلت له: سكت أيها الأستاذ عن هذا الرجل في قوله مع عادتك على الرد على أمثاله، فقال: لم أجد في

([36]) نوابغ الفكر العربي، ص 13.
([37]) وديعة طه النجم. الجاحظ والحاضرة العباسية. ط مطبعة الإرشاد بغداد 1995، ص2.
([38]) الفهرست. ص138.

مقابلته أبلغ من تركه على جهله، ولو وافقته وبينت له، لنظر في كتبه وصار بذلك إنساناً يا أبا القاسم، فكتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً ولم استصلحه لذلك[39]".

أسلوبه:

كان لأسلوب الجاحظ طابع خاص يعرف به، وإذا بلغت الأساليب العربية أعلى طبقات البلاغة وأسمى منازل البيان وكانت واضحة المعاني سهلة الألفاظ نقية الكلمات يقال عنها "هذه عبارة جاحظية".

وقد ذكر أن أبا حيان التوحيدي كان جاحظياً، يسلك في تصانيفه مسلكه، ويشتهي أن ينتظم مسلكه[40]" وعن أسلوبه في مؤلفاته قال المسعودي: "كتب الجاحظ تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان، لأنه نظمها أحسن نظم ورصفها أحسن رصف وكساها من كلامه أجزل لفظ، وكان إذا تخوف ملل القارئ وسآمة السامع خرج من جد إلى هزل ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة، وله كتب حسان منها البيان والتبيين وهو أشرفها، لأنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم، وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب[41]" وهو "شيخ الأدب، ولسان العرب، كتبه رياض زاهرة، ورسائله مثمرة ....، الخلفاء تعرفه والأمراء تصافيه وتنادمه، والعلماء تأخذ عنه، جمع بين اللسان والقلم وبين الفطنة والعلم وبين الرأي والأدب، وبين النثر والنظم، وبين الذكاء والفهم، طال عمره وفشت حكمته، وظهرت خلته، ووطئ الرجال عقبه، وتهادوا أدبه، وافتخروا بالانتساب إليه،...، لقد أوتى الحكمة وفصل الخطاب[42]"

ويمتاز أسلوبه بالسخرية ومزجه الجد بالهزل، وتبسيط المسائل العلمية والفلسفية في أسلوب واضح يصطبغ بالصبغة العربية[43]. وهو الذي قال عنه ثابت بن قرة: ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس فإنه:

([39]) وفيات الأعيان، ج3، ص 142.
([40]) معجم الأدباء ، ج16، ص 5.
([41]) المسعودي: أبو الحسن على بن الحسين، مروج الذهب، تحقيق. محمد محي الدين عبد الحميد، ط دار الفكر/ بيروت. د.ت. ج4، ص47.
([42]) معجم الأدباء، ج16، ص68.
([43]) تاريخ الأدب العربي، ص 585.

عقم النساء فلا يلدن شبيهه   إن النساء بمثلـ ـه عقـ ـم

فعندما أحصى هؤلاء الثلاثة ذكر في أولهم الخليفة عمر بن الخطاب والثاني الحسن بن أبي الحسن البصري والثالث أبا عثمان الجاحظ[44].

وقال عنه أبو الفضل بن العميد: " ثلاثة علوم الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفس: فاسند الفقه لأبي حنيفة، والكلام لأبي الهذيل، أما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة فأسندها إلى أبي عثمان الجاحظ[45]".

ويميل الجاحظ في أسلوبه إلى الاستطراد، فنجده يبدأ الكلام في قضية من القضايا، ثم يدعها ليدخل على قضية أخرى ثم يعود إلى ما أسلف من قبل.

وقد كان أسلوبه سهلاً بعيداً عن المعاظلة والتكلف والتعثر اللفظي الذي يرجع في كثير من حالاته إلى قلة المحصول اللغوي، وقد ساعده في ذلك دراسته للغة وروايته لآثارها، وطول إلفه لأساليبها وعباراتها مما جعل صوره البيانية دقيقة التجاوب مع نفسه، قوية التأثير في نفس القارئ بما فيها من جمال وبيان.

اثر الجاحظ في الأدب العربي:

كان أثر الجاحظ وكتاباته واضحاً في الكتاب الذين جاءوا من بعده في القرنين الرابع والخامس الهجريين، فإلى جانب أثره الفني فإن أثر اهتمامه بالمجتمع واضح كما عند الثعالبي والحريري صاحب المقامات[46].

كذلك كثر طلاب الجاحظ والمتتلمذون له، فمنهم من لخصوا بعض آثاره كما فعل عبد اللطيف البغدادي الذي لخص كتاب الحيوان في مؤلف سماه "اختصار كتاب الحيوان، وكما فعل ابن سناء الملك الشاعر المصري الذي لخص الكتاب نفسه وسماه "روح الحيوان". ومنهم من قلدوا الجاحظ في تأليفه فحفلت كتبهم بشتى الموضوعات من هؤلاء ابن قتيبة. صاحب عيون الأخبار. وأبا العباس المبرد صاحب "الكامل"

---

(44) معجم الأدباء، ج16، ص 68.
(45) السابق، ج16، ص 103.
(46) الجاحظ والحاضرة العباسية. ص 4.

وابن عبد ربه صاحب "العقد الفريد" وأبا بكر الصولي صاحب "الأوراق في أخبار الخلفاء والشعراء". والآمدي وابن الفقيه الجغرافي، والثعالبي صاحب يتيمة الدهر، والبيهقي صاحب كتاب المحاسن والمساوئ، والقزويني والدميري صاحب "حياة الحيوان الكبرى[47]"

آثاره:

عاصر الجاحظ ثلاثة ممن أسهموا بقدر وافر في الإنتاج الفكري والتأليف وهم:

1- أبو عبيدة معمر بن المثنى "110-204"

2- أبو الحسن علي بن محمد المدائني "135-255هـ"

3- هشام بن محمد الكلبي الكوفي "ت 204هـ"

وكان للجاحظ في هؤلاء أسوة وحافز في المسابقة والمنافسة مع تفوقه على أقرانه بوفرة المؤلفات حيث لا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً منه[48].

اهتم الجاحظ بتأليف الكتب والرسائل حتى قالوا أنه ترك ما ينيف على مئة وسبعين كتاباً. وقد ساعده على كثرة التأليف بالإضافة إلى إطلاعه الواسع امتداد عمره وانصراف العظماء عن استخدامه في قصورهم ودواوينهم، لمرضه الطويل الذي اضطره إلى ملازمة بيته، وقطع فراغه بالكتابة والتأليف، ثم ميل علماء عصره ولا سيما أساتذته إلى التأليف[49].

قال أبو حيان: "ومن عجيب الحديث في كتبه ما حدثنا به على بن عيسى النحوي قال: سمعت محمد بن الأخشاد وشيخنا أبا بكر يقول ذكر أبو عثمان في أول كتاب الحيوان أسماء كتبه ليكون ذلك كالفهرست، ومر بي في جملتها الفرق بين النبي والمتنبي وكتاب دلائل النبوة فهمني ذلك وساءني من سوء ظفري به، فلما شخصت من مصر، ودخلت مكة حاجاً، أقمت منادياً بعرفات ينادي والناس من الآفاق على اختلاف بلدانهم وتنازح أوطانهم وتباين قبائلهم وأجناسهم من المشرق إلى المغرب:

---

(47) تاريخ الأدب العربي، ص 586.

(48) معجم الأدباء، ج16، ص 288.

(49) تاريخ الأدب العربي، ص 567.

"رحم الله من دلنا على كتاب الفرق بين النبي والمتنبي لأبي عثمان الجاحظ على أي وجه كان قال: فطاف المنادي في ترابيع عرفات وعاد بالخيبة وقال: حجب الناس مني ولم يعرفوا هذا الكتاب ولا اعترفوا به، قال ابن الأخشاد: "وإنما أردت أن أبلغ نفسي عذرها[50]"

ذكر ياقوت الحموي عدداً من أسماء مصنفات الجاحظ بلغ حوالي مائة وثمانية وعشرين مصنفاً منها:

كتاب النساء، كتاب النعل، كتاب الزرع والنخل الذي أهداه إلى إبراهيم بن عباس الصولي، وكتاب المعرفة، وكتاب الرد على أصحاب الإلهام، وكتاب نظم القرآن في ثلاث نسخ، وكتاب مسائل القرآن، وكتاب فضيلة المعتزلة، وكتاب الإمامة على مذهب الشيعة، وكتاب الأخبار وكيف تصح، وكتاب الرد على النصارى، وكتاب إمامة معاوية، وكتاب صياغة الكلام، وكتاب المعلمين، وكتاب البخلاء، وكتاب التربيع والتدوير[51]"

ومن كتبه المشهورة البيان والتبيين والحيوان.

وقد ذكر المسعودي بعضاً من كتب الجاحظ مثل كتاب "إمامة ولد العباس" وكتاب العثمانية الذي صنفه الجاحظ، على حد قوله المسعودي. ليستقصى فيه الحجاج عن نفسه، فأيده بالبراهين، وعضده بالأدلة فيما تصوره من عقله... ثم لم يرض بهذا الكتاب المترجم بكتاب العثمانية حتى أعقبه بتصنيف كتاب آخر في "إمامة المروانية" ثم صنف كتاب آخر ترجمه بكتاب مسائل العثمانية، قال المسعودي: "وقد نقضت عليه بعض كتبه ككتاب العثمانية وغيره...[52]"

جوانب من طرفه ونوادره:

([50]) معجم الأدباء، ج 16، ص 102.
([51]) معجم الأدباء، ص107.
([52]) مروج الذهب. ج3، ص254.

للجاحظ نوادر طريفة، وأحاديث لطيفة، وكان ميالا إلى الملح واللطائف والنكت والطرائف والتندر والسخرية، وكان لا يبالي في سبيل تصيد الطرفة، أن يرويها ولو كان فيها ما يختص بشخصيته. ومن ذلك ما حدث به عن نفسه قال:

ذُكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده، فلما رآني استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني فخرجت من عنده.

وقال أيضاً: ما أخجلني أحدا إلا امرأتان، رأيت إحداهما في العسكر وكانت طويلة القامة وكنت على طعامي فأردت أن أمازحها، فقلت لها أنزلي كلي معنا. فقالت أصعد أنت حتى ترى الدنيا!! قال : وأما الأخرى: فإنها أتتني وأنا على باب داري فقالت: لي إليك حاجة، أريد أن تمشي معي، فقمت معها إلى أن أتت بي إلى صائغ يهودي وقالت له: مثل هذا! وانصرفت. فسألت الصائغ عن قولها فقال إنها أتت إلي بفص وأمرتني أن أنقش لها عليه صورة شيطان! فقلت لها: يا ستي ما رأيت الشيطان! فأتت بك وقالت ما سمعت.

وفاته:

لما ثقلت على الجاحظ وطأة السنين ووهنت قواه بسبب ما عاناه من أمراض لزم بيته سجين الهرم، وكان العلماء يأتون لزيارته. ولازم الفراش إلى أن توفى سنة خمس وخمسين ومائتين. قال ياقوت: " مات الجاحظ سنة خمس وخمسين ومائتين في خلافة المعتز وقد جاوز التسعين[53]"

وقيل أنه قد انهالت عليه الكتب يوماً وهو جالس بينها يقرأ فقضت عليه[54].

قال: ابن خلكان: "وكانت وفاته في المحرم سنة خمس وخمسين ومائتين بالبصرة في خلافة المعتز[55]".

([53]) معجم الأدباء، ج16، ص75.
([54]) حنا الفاخوري. تاريخ الأدب العربي. ط المكتبة البولسية بيروت. ص 265.
([55]) وفيات الأعيان ، ج3، ص 474.

المبحث الثاني

عرض لكتابي الحيوان البيان والتبيين

أولاً: كتاب الحيوان

يعد كتاب الحيوان أكبر كتب الجاحظ على الإطلاق وهو من سبعة أجزاء ويقع كله في نحو ألف صفحة.

وصفه الجاحظ فقال: "وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربياً أعرابياً وإسلامياً جماعياً، فقد أخذ من الفلسفة بطرف وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة، ويشتهيه الفتيان كما يشتهيه الشيوخ، ويشتهيه اللاعب ذو اللهو كما يشتهيه المُجد ذو الحزم، ويشتهيه الغفل كما يشتهيه الأريب، ويشتهيه الغبي كما يشتهيه الفطن[56]"

بدأ الجاحظ كتابه من مقدمة استغرقت خمسين صفحة ذكر فيها بعضاً من مؤلفاته، وأنحى باللوم على العائبين لكتبه، ثم قسم العالم بما فيه من أجسام إلى جماد ونام، وجعل النامي من النبات والحيوان ثم قسم الحيوان إلى فصيح وأعجم، ثم ذكر أقسام البيان وأنه ضروري للاجتماع، ثم استطرد إلى مدح الكتب ثم تناول موضوع الخط ومقدار الحاجة إليه وذكر أنه لولا خطوط الهند لضاع من الحساب الكثير والبسيط[57].

ثم خرج إلى الشعر قبل الإسلام، ثم عاد إلى القول في شأن الكتب والترغيب في اصطناعها.

تحدث فيه أيضاً عن فضل الكتابة ونفع الحساب وفضل القلم وفضل اليد. ثم أشار إلى ما تحتويه مؤلفاته من خلال وصفه لكتب الزنادقة بقوله: "ليس في كتبهم مثلٌ سائر، ولا خبر طريف، ولا صنعة أدب، ولا حكمة غريبة ولا فلسفة ولا مسألة

([56]) الحيوان ج1، ص 11.
([57]) نفسه ، ص 46.

كلامية ولا تعريف صناعة ولا استخراج آلة، ولا تعليم فلاحة، ولا مقارعة عن دين، ولا مناضلة عن نخْلة، وجُل ما فيها ذكر النور والظلمة وتناكح الشياطين، وتسافد العفاريت، كله هذر وعي وخُرافة وسخرية وتكذب، لا ترى فيه موعظة حسنة حديثاً مونقاً[58].

يحث على التعليم ويشير إلى فضله وذلك مثل قوله: وقال بعضهم كنت عند بعض العلماء، فكنت أكتب عنه بعضاً وأدعُ بعضاً، فقال لي أكتب كل ما تسمع، فإن أخس ما تسمعُ خير من مكان أبيض، وذكر قول الخليل: "تكثر من العلم لتعرف وتقلل منه لتحفظ[59]".

وفيه تحدث عن تخليد العرب لمآثرها وطمس الملوك والأمراء آثار من سبقهم.

وأشار فيه أيضاً إلى تاريخ الشعر العربي بقوله: "وأما الشعر فحديث الميلاد، صغير السن، أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه: أمرؤ القيس بن حُجر، ومُهلهل بن ربيعة وكتب أرسطاطاليس، ومعلمه أفلاطون، ثم بطليموس وديمقراطس[60]"

وتحدث عن صعوبة ترجمة الشعر العربي فقال:

"وقد نُقلت كتب الهند، وتُرجمت حكمُ اليونانية، وحُولت آدابُ الفرس، فبعضها أزداد حسناً وبعضها ما انتقص شيئاً، ولو حولت حكمه العرب، لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن، مع أنهم لو حولوها لم يجدوا في معانيها شيئاً لم تذكره العجم في كتبهم[61].

ثم عاد إلى القول في شأن الكتب والترغيب في اصطناعها وأشار إلى أفضل الكتب بقوله:

"وأشرف من كتبهم نفعاً، وأشرف منها خطراً، وأحسن موقعاً كتب الله تعالى، فيها الهدى والرحمة، والإخبار عن كل حكمة وتعريف كل سيئة وحسنة. وما زالت كتب الله تعالى في الألواح والصحف والمصاحف وقال الله عز وجل:

([58]) الحيوان، ج1، ص 55.
([59]) الحيوان ، ج1، ص 59.
([60]) نفسه ، ص 74.
([61]) نفسه ، ص 75.

(الم ذلك الكتاب لا ريب فيه) (62)، وقال: (وما فطرنا في الكتاب من شيء) (63) ويقال لأهل التوراة والإنجيل: أهل الكتاب(64). نعت الجاحظ كتابه الحيوان بقوله:

"ونعم الزخر العقدة هو، ونعم الجليس والعدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربة، ونعم القريب والدخيل، ونعم الوزير والنزيل. والكتاب وعاء مُلِئ علماً، وظَرفٌ حُشي ظَرفاً، وإناء شُحن مُزاحاً وجِداً، إن شئت كان أبين من سحبان وائل، وإن شئت كان أعيا من باقل، وإن شئت ضحكت من نوادره، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده، وإنه شئت الهتك طرائفه وإن شئت أشجتك مواعظه"(65)

القصد من تأليفه كتاب الحيوان:

يعد الجاحظ أول واضع لكتاب عربي جامع في علم الحيوان، وبه نال الفضل على جميع من سبقه أو عاصره ممن كتبوا في الحيوان وذلك لأن كاتبه ينطق بالقصد العلمي التفصيلي جميعا، ولكل مملكة من ممالكه، ولك جنس من أجناسه.

أما غيره من العلماء فقد كانت لهم محاولات يتحدثون فيها عن الحيوان، إلا أنها لم تؤلف للقصد العلمي الخالص، وإنما كانت بمثابة معجمات لغوية خاصة بما ألفت له، فهي لا تبحث في طبع الحيوان وخصائصه وأحواله، وإنما هدفها فقط هو اللغة، من هذه المؤلفات كتاب الإبل.

هدف الجاحظ من تأليفه لكتاب الحيوان إلى التعريف بالحيوان من جميع نواحيه فتحدث في الآتي:

1- تسمية الحيوان – وبيان جنسه وأنواعه وأشباهه.
2- الكلام عن أعضائه وتطوراته وألوانه.
3- بيان طعامه وشرابه وصوته ونفعه وضره.
4- الكلام في تناسله وطباعه وتعليمه وأمراضه وعمره.

---

(62) البقرة آية "1"
(63) سورة ، الآية
(64) الحيوان، ج1، ص86.
(65) الحيوان، ج1، ص 36.

5- بيان موطنه وأثر الطبيعة فيه وعلاقته بغيره من الحيوان.
بالإضافة إلى الاستدلال بالقرآن والحديث وما قيل فيه من أشعار.

كتاب الإبل	لأبي حاتم السجستاني 248هـ	
،، ،،	للأصمعي	122-216هـ
،، ،،	لأبي عبيدة	110-209هـ
،، ،،	للنضر بن شميل	122-203هـ
،، ،،	لأحمد بن حاتم الباهلي 231هـ	

كتاب الخيل:

لابن قتيبة 213-276

لابن الأعرابي 150-231

لأبي عبيدة

لأبي جعفر محمد بن حبيب البغدادي 245هـ

كتاب الغنم والشاء:

لأبي الحسن الأخفش 215هـ

للنضر بن شميل وللأصمعي

كتاب الوحوش:

للأصمعي ولأبي حاتم السجستاني

كتاب الفرس: للأصمعي

كتاب النحل والحشرات: للسجستاني

وللأصمعي كتاب في النحل والعسل.

يلاحظ أن الأصمعي والسجستاني أكثر من ألفوا عن الحيوان ومما يدل على أن هذه الكتب باحثة فقط في شأن اللغة، ذلك النص من أول كتاب الإبل للأصمعي:

قال أبو سعيد عبد الملك ابن قريب الأصمعي: أجود وقت يُحمل فيه على الناقة أن تَجم سنة ويحمل عليها، فيقال: قد أضربت الفحل، وأضربها الفحل فإذا حمل عليها في كل عام فذلك الكشاف، ويقال ناقة كشوف أو قد أكشف بنو فلان العام فهم مكشوفون، إذا لقحت إبلُهم على هذا الوجه[66].

مرجع الجاحظ في تأليف كتاب الحيوان:

اعتمد الجاحظ في تأليفه على خمسة أمور:

أولها: الينبوع الذي لا ينضب من القرآن والحديث النبوي الشريف.

الثاني: الشعر العربي: تحدث الشعر العربي وبخاصة البدوي منه عن الحيوان حديثاً طويلاً، تحدث عن الأنيس منه ولم يهمل الوحشي، فالعرب تحدثوا عن الإبل في شعرهم وأطالوا الكلام، تحدثوا في نعتها فلم يذروا دقيقة من دقائقها، وتكلموا في حملها ونتاجها ورأمها وحنينها، وحلبها وألبانها، وأصواتها ودعائها، وكان لهم في الخيل نعتٌ مفصل، وعناية بمثل ما اعتنوا به في الإبل، ولا تكاد تجد قصيدة معدودة للعرب إلا وللحيوان الأنيس فيها شأن، أما الوحشيات، فلم يغفلوها، ونطق شعرهم بالأسد والنمر والذئب، والثعلب، والضب وغيرها. وذكروا من الطيور النسور والعقبان، والحدأ والقطا.

يرى الجاحظ أن العرب، قد ثقفوا معرفة الحيوان، وبرعوا في ذلك البراعة وفي ذلك يقول: وقل معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان عن الفلاسفة، وقرأناه في كتب الأطباء والمتكلمين إلا ونحن قد وجدناه أو قريباً منه في أشعار العرب والأعراب"[67]

يوضح السبب في معرفة الأعراب للحيوان بقوله: "وربما، بل كثيراً ما يُبتلون بالناب والمخلب واللدغ واللسع، والعض والأكل، خرجت بهم الحال إلى تعرف حال الجاني والجارح والقاتل، وحال المجني عليه والمجروح والمقتول وكيف الطلب والهرب، وكيف الداء والدواء، لطول الحاجة ولطول وقوع البصر، مع ما يتوارثون

([66]) مجموعة الكنز اللغوي المطبوع في بيروت ص 67/66- نقلاً عن مقدمة المحقق ص 16.

([67]) الحيوان ، ج3، ص 268.

من المعرفة بالداء والدواء. والكتاب مفصل بكثير من الشعر العربي، موشح بعيون ما نظم العرب والأعراب في الحيوان من شعر"[68].

المادة الثالثة: كتاب الحيوان لأرسطو:

سبق اليونانيون العرب، إلى التأليف في علم الحيوان، فقال صاحب كشف الظنون في حديثه عن علم الحيوان: "وفيه كتب قديمة وإسلامية: منها كتاب الحيوان لديمقراطيس، وذكر فيه طبائعه ومنافعه، وكتاب الحيوان لأرسطوطاليس، تسع عشرة مقالة، نقله ابن البطريق من اليوناني إلى العربي، ولأرسطو أيضا كتاب في نعت الحيوان غير الناطق، وما فيه من المنافع والمضار[69]"

نقل الجاحظ بعض النصوص من كتاب الحيوان لأرسطو، من ذلك مثلاً قوله[70]

قال أرسطو في الفيل: "هو أجرد الجلد، فلذلك يشتد جزعه من البرد" فقال الجاحظ: "فإن كان أجرد الجلد، فما قولهم في أحاديثهم! طلبوا من الملك الفيل الأبيض، والفيل الأبقع، وجاء فلان على الفيل الأسود؟[71].

يلاحظ أن الجاحظ لم يسلم بالنصوص التي وجدها في كتاب أرسطو كما جاءت بل ينتقدها أحياناً. وأحياناً يلتمس لأرسطو العذر فيقول مثلاً: "ولعل المترجم قد أساء في الإخبار عنه"[72].

المادة الرابعة: الكلام الذي ولده المعتزلة:

من خلال اطلاعك على كتاب الحيوان تجد الجاحظ يقول: "قال صاحب الكلب" وقال صاحب "الديك" وقال صاحب "الحمام" ويبدو أنه كان في عصر الجاحظ نزاع

([68]) الحيوان، ج1، ص 57.
([69]) كشف الظنون 456/1.
([70]) الحيوان 205/5.
([71]) أنظر الحيوان. 228/7
([72]) الحيوان، ج2، ص 52.

كلامي خاص، في المقايسة بين الكلاب والديك، يتقدم الفريق الأول أبو اسحق النظام، ويتزعم الآخر معيد[73].

وقد رد الجاحظ عليهم رداً مسهباً صدره بقوله[74]: "فإن قلت: وأي شيء بلغ من قدر الكلاب وفضيلة الديك، حتى يتفرغ لذكر محاسنهما ومساويهما، والموازنة بينهما، والتنويه بذكرهما، شيخان من علية المتكلمين ومن الجلة المتقدمين، وقال: وقد بلغ الأمر بأحد كبار المعتزلة، في عنايته بالحيوان والحديث فيه أن صنع قصيدتين، ذكر فيهما الحيوان وعجائبه وقد جمع فيهما كثيراً من الغرائب والفوائد، ونبه بهذا على وجوه كثيرة من الحكمة العجيبة، والموعظة البليغة[75].ذلك الرجل هو بشر بن المعتمر، وكان راساً لفرقة من المعتزلة سميت بالبشرية توفي سنة 210هـ.

والمادة الخامسة من مواد الكتاب هي تلك الخبرة الشخصية، وذلك الولوع الذي كان يدفع به إلى السؤال ممن يتوسم فيه العلم: وكان الجاحظ بطبعة شعبياً، مع أنه كان مقرباً نافذ الكلمة عند الوزراء والخلفاء[76].

متى ألف كتاب الحيوان:

يقول الحصري[77]: ومن إحدى عجائبه، أنه ألف كتاب الحيوان وهو على تلك الحال "يعني السن العالية والفالج الشديد".

أما الجاحظ فيحكي معاناته في تأليف هذا الكتاب بقوله:

"وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه: أول ذلك العلة الشديدة، والثانية قلة الأعوان، والثالثة طول الكتاب، والرابعة أني لو تكلفت كتاباً في طوله، وعدد ألفاظه ومعانيه، ثم كان من كتب العرض والجوهر، والتولد والمداخلة والغرائز[78]، لكان أسهل واقصر أياماً، وأسرع فراغاً لأني كنت لا أفزع فيه إلا تلقط

([73]) نفسه ج1، ص 356، ج2، ص 153.
([74]) نفسه ج1، ص 53.
([75]) انظر: تاريخ بغداد 219/12
([76]) تاريخ بغداد، 219/12.
([77]) جمع الجواهر، ص 165.
([78]) الحيوان 208/4.

الأشعار، وتتبع الأمثال، واستخراج الآي من القرآن والحُجج من الرواية، مع تفرق هذه الأمور في الكتب[79].

يقال أن الجاحظ قد ألف كتاب الحيوان وهو في سن عالية وكان مفلوجاً وقد حكى ذلك بقوله "أنا من جانبي الأيسر مفلوج فلو قرض بالمقاريض ما علمت به، ومن جانبي الأيمن منقرس فلو مر به الذباب لألمت.

وذكر ياقوت أنه ألف كتاب الحيوان باسم محمد بن عبد الملك الزيات المتوفى سنة 233هـ وأنه أهداه إليه فأعطاه خمسة آلاف دينار"[80]

وقد ألف كتاب الحيوان قبل كتابه البيان والتبيين وذلك بشهادة الجاحظ نفسه فهو القائل:

"كانت العادة في كتب الحيوان أن أجعل كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الأعراب ونوادر الأشعار، فأحببت أن يكون حظ هذا الكتاب في ذلك أوفر، إن شاء الله"[81]

تبويبه

يقع كتاب الحيوان في سبعة أجزاء يسمي الجاحظ الجزء منها بالمصحف ويدل على أنه سبعة أجزاء قوله:

"تم المصحف السابع من كتاب الحيوان، وبتمامه تم الكتاب [بعون الملك الوهاب] والحمد لله على حسن الختام، وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الكرام"[82].

وكذلك قوله: "قد كتبنا من كتاب الحيوان ستة أجزاء، وهذا الكتاب السابع هو الذي ذكرنا فيه الفيل بما حضرنا من جملة القول في شأنه"[83]

([79]) مسألة كلامية تنسب للنظام – والتولد: مبحث كلامي – المداخلة مقالة كلامية تقوم زعموا أن الألوان والطعوم، والروائح والأصوات تتداخل في حيز واحد.

([80]) معجم الأدباء 76/6.

([81]) البيان والتبيين ، ج3، ص 302.

([82]) الحيوان ج1 ص 263.

([83]) الحيوان ج7 ص 9

من أهم موضوعات الجزء الأول:

1- الرد على من عابوا كتبه.

2- تقسيم الكائنات.

3- نعت الكتاب.

4- تناول بالحديث بعض الحيوانات ومنها: الإبل – الكلاب والديك والأشعار التي قيلت فيها وأصناف الكلاب...الخ

الجزء الثاني: ومن أهم موضوعاته:

1- احتجاج صاحب الكلاب بالأشعار المعروفة والأمثال السائرة ويبدو أنه كان في عصر الجاحظ نزاع "كلامي" خاص في المقايسة بين الكلاب والديك يتزعم الفريق الأول أبو اسحاق والنظام ويتزعم الرهط الآخر معبد.

2- ما يشبه بالكلاب وليس منه[84].

3- مقايسة بين الثعلب والكلاب[85].

الجزء الثالث ويحوي:

باب في ذكر الحمام وآخر صدق الظن وجودة الفراسة – وغيره في الفطن وفهم الرطانات والكنايات والفهم والإفهام[86].

وباب في ذكر خصال الحرم[87] ومنها قوله: "ومن خصاله أن الذئب يصيد الظبي ويريغه ويعارضه، فإذا دخل الحرم كفّ عنه" ومن خصاله أن حصى الجمار يرمي بها في ذلك المرمى، مذ يوم حج الناس البيت على طوال الدهر، ثم أنه على مقدار واحد. الخ

ومن أبوابه أيضا: باب في أجناس الذبان – باب في الغربان والهدهد والخفاش.

الجزء الرابع:

---

(84) نفسه ج2 ص 166.

(85) الحيوان ج2 ص 291

(86) نفسه ج3 ص 122.

(87) الحيوان ج3 ص 140

وفيه حديث عن:

- الذرة والنمل.
- القرد والخنزير
- الحيات
- القول فيما اشتقّ له من البيض اسم[88] مثل قوله: باضت البُهمى[89]: أي سقطت نصالها[90]. وباض الصيف، وباض القيظ اشتد الحر وخرج كل ما فيه.

الجزء الخامس: وفيه حديث عن

- الكلام في النار.
- الضد والخلاف والوفاق
- القول في الماء
- من أراد أن يمدح فهجا
- أجناس الطير التي تالف دور الناس.
- العقارب والفأر والجرذان
- النحل
- الحبارى
- الضأن والماعز
- الجراد
- القطا

الجزء السادس: وقد سرد موضوعاته في قوله:

"وسنبدأ بعون الله تعالى وتأييده، بالقول في الحشرات والهمج، وصغار السباع، المجهولات الخاملة الذكر من البهائم.

---

(88) نفسه ج4 ص 336.

(89) النُّهمى: نبت هيئتة كالشعير ويعرف أيضاً بالشوفان.

(90) نضالها سنبلتهاز

أما الجزء السابع والأخير: فقد تناول فيه:

- إحساس أجناس الحيوان.
- قدرة الحيوان على رفع اللبن وإرساله
- ما جاء من ذكر للطير في القرآن

ولم يقتصر حديثه في هذه الأجزاء السبعة على أجناس الحيوان فحسب بل تجد اهتماماته باللغة مبثوثة في أجزائها جميعها. وتحدث عن البيان وذكر انه ضروري للاجتماع، وتجده يستدل دائماً بالقرآن الكريم والأحاديث وأقوال الشعراء.

قيمة كتاب الحيوان:

يعد الكتاب موسوعة ضمت الكثير من المسائل المهمة وقد حوى:

- طائفة من المعارف الطبيعية والمسائل الفلسفية. وفيه تحدث عن سياسة الأقوام والأفراد، وكما تكلم في نزاع أهل الكلام وسائر الطوائف الدينية، تحدث في كثير من المسائل الجغرافية، وفي خصائص كثير من البلدان، وفي تأثير البيئة في الحيوان والإنسان والشجر، كما تناول الحديث في الأجناس البشرية وتباينها، كما عرض لبعض قضايا التاريخ، وكذلك فيه حديث عن الطب وأمراض الحيوان والإنسان. كما تحدث عن العرب والأعراب، وأحوالهم وعادِهم ومزاعمهم وعلومهم.

كما أفاض القول في آي الكتاب العظيم، وحديث الرسول العربي صلى الله عليه وسلم، كما فضل بعض مسائل الفقه والدين كذلك جمع الكتاب صفوة مختارة من حر الشعر العربي ونادره وجمع قدراً كبيراً من الأمثال.

أما فكاهة الجاحظ فهذه قد نثرت في الكتاب نثراً، وإنها لتطالعك بين الفينة والأخرى، متمثلة فيما يروى من نادرة أو يحكي من قصة.

ثانياً: البيان والتبيين

يعد كتاب البيان والتبيين آخر ما ألف الجاحظ وهو من أشهر كتبه وأقيمها وذلك لما حواه من مادة غزيرة اشتملت على عدد ومن خطب النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين وبعد صاحبته والتابعين، بالإضافة إلى ما ذكره من مختارات من شعر الجاهلين والإسلاميين وأخبار الخطباء والبلغاء والأبيناء.

ومن الواضح في هذا الكتاب أن الجاحظ لم يستطع أن يضبط أفكاره تحت عناوين وأبواب يجمع فيها كل ما هو متناسب وهذا شأنه في كل ما ألف وعذره فيه كثرة معلوماته وكون التأليف إلى أيامه لم يصر صناعة محكمة الأصول متعارفة المنهج.

والأبواب التي عقدها في الجزء الأول منها ما يطول جداً ومنها ما يقصر حتى لا يتعدى نصف الصفحة.

ومن خلال عرضه يكون الحديث كما يلي:

- قيمة الكتاب.
- زمان تأليفه.
- الغرض من تأليفه.
- تبويبه.
- موضوعاته.

قيمة الكتاب:

لكتاب البيان والتبيين قيمة تاريخية وأخرى أدبية، تكمن قيمته التاريخية في اشتماله على عناصر مختلفة من الثقافات اليونانية والفارسية والهندية، ففي الرد على الشعوبية تجد الجاحظ يعرض أدب العرب والفرس، وكذلك تجده يذكر عادة الرهبان في اتخاذ العصا، ويذكر أن للهنود كتباً في الحكم والأسرار، وفي تفسيره لمعنى البلاغة يذكر أيضاً الهندي والرومي والفارسي واليوناني.

أما قيمته الأدبية فتجد عدداً من العلماء قد خصه بالذكر ومنهم على وجه الخصوص حاجي خليفة الذي قال: "البيان والتبيين لأبي عثمان الجاحظ البصري المعتزلي المتوفى سنة 255هـ وهو كتاب[91] كبير وذكره أبو هلال العسكري بقوله: "إن كتاب البيان والتبيين من أشهر وأكبر كتب الجاحظ وهو آخر ما ألف الجاحظ"[92]

ويقول ابن رشيق القيرواني "وقد استفرغ أبو عثمان الجاحظ الجهد، وضع كتاباً لا يبلغ جودة وفضلاً ثم ما ادعى أحاطته بهذا الفن لكثرته، وإن كلام الناس لا يحيط به إلا الله عز وجل[93] وكذلك ذكره ابن خلدون بقوله:

"وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي:

أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، والبيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي علي القالي، وما سوي ذلك فتبع لها وفروع عنها[94]"

وتكمن هذه الأهمية –كما ذكر المسعودي- في أن الجاحظ قد جمع في هذا الكتاب بين المنثور والمنظوم قرر الأشعار ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب، ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به.

زمان تأليف كتاب البيان والتبيين:

ألف الجاحظ كتابه هذا في أواخر أيامه بعد تأليفه لكتاب الحيوان وكان يشكو حالة في ذلك الوقت ويقول: "أنا من جانبي الأيمن مفلوج فلو قرض بالمقارض ما علمت به، ومن جانبي الأيسر منقرس فلو مر بي الزباب ما ألمت[95]"

وقد أهدى الجاحظ كتاب البيان والتبيين إلى القاضي أحمد بن أبي داؤد وكان من بلغاء الناس وفصحائهم وشعرائهم، وكان بين محمد بن عبد الملك وبين أحمد بن أبي داؤود منافسة شديدة وكان الجاحظ ملازماً لمحمد بن عبد الملك. خاصاً به، ولما

---

(91) حاجي خليفة، كشف الظنون – ط المكتبة القيصلية – مكة المكرمة- 1981 ، ص 263.
(92) العسكري، أبوهلال الحسن بن عبد ا لله بن سهل – الصناعيتين بتحقيق محمد علي بيجاوي - دار إحياء الكتب 1995 المقدمة.
(93) القيرواني – أبو علي الحسين بن رشيق – العمدة – تحقيق محمد محي الدين – ط4 بيروت 1972، ج2، ص171.
(94) المقدمة ، ج4، 1277.
(95) البيان والتبين، ج1، ص 70.

قبض على محمد بن عبد الملك هرب الجاحظ، وبعد قتل ابن الزيات جئ بالجاحظ مقيداً إلى مجلس ابن أبي داؤد فجرت بينه وبين القاضي محاورة انتصر فيها الجاحظ، وكان من عاقبتها أن رضى عنه ابن أبي داؤد وأجازه وقربه إليه.

وهذا يعني أن كتاب البيان والتدريب لم يظهر إلا بعد سنة 233هـ وهي السنة التي قتل فيها ابن الزيات.

الغرض من تأليفه:

هدف الجاحظ من تأليفه لكتاب البيان والتبيين إلى أهمية البيان العربي وذلك من خلال تعريفه للبيان وتفصيله لأنواع الدلالات البيانية من اللفظ والإشارة والعقد والخط والنصبة[96]. وكذلك تخصيصه أبواباً لمدح اللسان والبيان[97]. وحديثه عن اللحن وكيفية تجنبه وحديثه عن جميع العلل التي تكون سبباً في نقصان البيان وتشويهه مثل العي والحصر واللكنة والفأفأ والتمتمة واللثغة.

كما رمى من تأليفه إلى تعليم الناشئين أصول الكتابة الصحيحة وإلى الإفصاح عن مكنونات اللغة والكشف عن أسرارها.

فتحدث عن مخارج الحروف وبين أثر سعة الشدق وأثر اكتمال الأسنان أو نقصانها في البيان[98] وكذلك أثر لحم اللثة[99] وسقوط الأسنان.

كذلك هدف من تأليفه إلى التعريف بأصالة البيان والفصاحة للعرب دون غيرهم من الأمم. فكان من ضمن موضوعات الكتاب الرد على الشعوبية، وكان يقول: "كل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه الهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكرة ولا استعانة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالاً وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً، ....، وكانوا

([96]) البيان والتبيين ، ج1، ص 75.
([97]) السابق، ج1، ص 166-172-192.
([98]) البيان والتبيين ، ج1، ص 200.
([99]) السابق. ج1، ص 58.

أميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع[100]"

تبويب الكتاب:

جعل الجاحظ كتاب البيان والتبيين في ثلاثة أجزاء ويدل على ذلك أنه ابتدأ الجزء الثاني والثالث بعبارة تعلن بدايته وانتهاء سابقه، فقد ابتدأ الجزء الثاني بقوله: "أردنا أن نبتدئ صدر هذا الجزء الثاني من البيان بالرد على الشعوبية في طعنهم على خطباء العرب...، ولكنا أحببنا أن نصدر هذا الجزء لكلام من كلام رسول رب العالمين[101]".

كما افتتح الجزء الثالث بقوله: "هذا الجزء الثالث من القول في البيان والتبيين ونبدأ على اسم الله تعالى، بذكر مذهب الشعوبية[102].

وفي ختام الجزء الثالث ذكر الجاحظ ما يؤكد أن مؤلفه من ثلاثة أجزاء بقوله: "هذا آخر ما ألفناه من كتاب البيان والتبيين ونرجو أن نكون غير مقصرين فيما أخترناه من صنعته وأردناه من تأليفه فإن وقع على الحال التي أردنا وبالمنزلة التي آملنا فذلك بتوفيق الله وحسن تأييده، وأن وقع بخلافها فما قصرنا في الاجتهاد ولكن حرمنا التوفيق والله سبحانه وتعالى أعلم[103]"

وقد اهتم الجاحظ في الجزء الأول الكتاب بالخطابة والبيان، أما الجزءان الثاني والثالث ففيهما ردان مزدوجان على الشعوبية الأول: وهو ما يتضمنه الجزء الثاني يتعلق بالمطاعن التي يوجهها الشعوبيون إلى خطباء العرب. والرد الثاني وهو ما يتضمنه الجزء الثالث الذي يحمل عنوان "العصا" يتعلق بالشعوبية، وقد حاولت أن تجسد نفسها في مذهب ظاهره ادعاء التسوية بين الشعوب وباطنه عداء مستحكم للعرب.

---

(100) السابق، ج3، ص 427.
(101) البيان والتبيين، ج4، ص 215.
(102) السابق، ج3، ص 315.
(103) البيان والتبيين، ج3، ص 607.

هذا وقد تناول كتاب البيان والتبيين عدد من المحققين منهم: حسن السندوبي، وفوزي عطوى وعلي أبو ملجم ودرويش جويدي بالإضافة إلى عبد السلام محمد هرون.

منهج الكتاب:

كان منهج الجاحظ في التأليف متفرداً عن الكتاب قبله فقد كانوا جميعاً متقاربين في ضروب من العلوم والآداب وألوان المعارف المختلفة، حيث تجد الواحد منهم يتخصص في ضرب واحد أو ضربين من أنواع العلوم، لكن الجاحظ لم يتخصص كما تخصصوا بل تجده لم يترك علماً أو موضوعاً اجتماعياً أو أدبياً أو ثقافياً أو فلسفياً إلا وكتب فيه وهذا يدل على سعة إطلاعه وتبحره في المعارف مما جعل مؤلفاته محط أنظار العلماء.

ويعد الجاحظ أول من بحث في طبائع الأشياء، كالحيوان والنبات والمعادن وأقام أركان بحثه واستقرائه على المشاهدة والتجربة والاختبار.

ومنهجه في البيان والتبيين كمنهجه في جميع كتبه، فقد كان يكتب على سجيته لا يتقيد بنظام معين يتبعه ولا بنهج محدد يحزوه فتجده يبدأ الكلام في قضية من القضايا ثم يدعها ويدخل في قضية أخرى، ثم يعود مرة أخرى لمواصلة الحديث عنها. وأكثر ما يميز منهجه عن غيره أنه تناول العلل والأمراض التي تعرض على آلة النطق وأسباب هذه العلل وطرق علاجها كما أعتنى بملاحظة العلل التي تعتري البيان من حصر ولحن وتشديق وتقعيب ولحن ولكنه إلى غير ذلك.

موضوعات الكتاب:

تناول الجاحظ في كتابه البيان والتبيين الموضوعات التالية:

1- **البيان** : فقد اهتم بالبيان العربي وفيه تناول ما يلي[104]: -

- ما نزل في البيان من قرآن.
- معنى البيان – اللسان أداة البيان – ما قبل البيان.

([104]) انظر: البيان والتبيين ج1، ص 12-14-17-46-48-57.

- طرائق الإشارة ولغاتها – العيوب التي تعتري البيان.
- اللثغة – حروفها.
- العي – الحصر – السلاطة الهذر – الحبسة – اللجلجة – التمتمة.

2- **البلاغة**: وتناول فيها ما يلي[105]:

- تعريفها عند الأمم "الفرس-الروم-الهنود- الأعراب.
- تعريف صحار العبدي للبلاغة.
- تعريفها عند العتابي.
- تعريفها عند عمرو بن عبيد.
- تعريفها عند ابن المقفع.

تحدث كذلك في:-

- تنافر الحروف وائتلافها.
- وجوب مراعاة مقتضى الحال.
- الإيجاز والإطناب.
- صفة بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم[106].

3- الخطابة:-

اعتنى بها عناية فائقة وذكر ما تتطلبه من الجهر بالقول وترفيع الصوت – ذاكراً من عرف بجهارة الصوت ومن أهم ما تناوله فيها[107]:-

- ما يكره في الخطباء.
- من اشتهر بالخطابة من الشعراء.
- مفخرة بني أياد بالخطابة.
- تفوق أياد وتميم على سائر العرب في الخطابة.
- ما يمدح في الخطيب.

---

(105) البيان والتبيين، ج1، ص 63-67-77-78.
(106) البيان والتبيين، ج2، ص 244.
(107) السابق، ج1، ص 15-35-37-42-82-185، ج2 ص 239.

- ذكر أسماء الخطباء وقبائلهم وأنسابهم.
- نماذج من الخطب.

4- الشعر:

وهو وسيلة من وسائل البيان، لذلك تجد الجاحظ يكثر من الأشعار التي تدعم أو تقرب المعاني في كل موضوع من الموضوعات التي تناولها في كتابه ومن أهم ما أشار إليه الجاحظ بشأن الشعر ما يلي:

- اكتشاف الخليل بن أحمد أوزان الشعر وتسميتها(108).
- طبقات الشعراء(109).
- أخطب شعراء بني تميم(110).
- أثر الهجاء في القبائل المهجوة(111).

5- السجع: وفيه جاء ما يلي:

- ذكر دواعي استكراه النطق بالإسجاع(112).
- تفضيل عبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي للسجع على النثر(113).
- باب آخر من الأسجاع في الكلام(114).

الرسائل والوصايا: قد كانت الرسائل والوصايا مظهراً من مظاهر البيان وقد ذكر الجاحظ في ثنايا كتابه عدداً من الرسائل والوصايا.

النساك والقصاص: وجاء فيه ما يلي:

- باب مواعظ النساك.
- ذكر النساك والزهاد من أهل البيان.

---

(108) البيان والتبيين، ج1، ص 92.
(109) السابق، ج3، ص 416.
(110) السابق، ج1، ص 167.
(111) السابق، ج1، ص 174.
(112) البيان والتبيين، ج2، ص 241.
(113) السابق، ج3، ص 611.
(114) السابق، ج1، ص 175.

- من ملتقطات كلام النساك.

أما القصاص فذكر منهم موسى بن سيار الأسواري الذي كان يقعد والعرب عن يمينه والفرس عن شماله، فيقرأ الآية ويفسرها للعرب بالعربية والفرس بالفارسية فلا يدري بأي لسان هو أبين[115].

---

(115) السابق، ج1، ص 368.

النوكي والحمقى:

وهم الذين يريدون البيان ويخطئون خطأ ظاهراً أو خفياً، فينبه الجاحظ على التحذير منه ويكشف عما به من خطل ومجانبة للصواب، وقد روى طائفة من أخبارهم وأقوالهم، وخصهم بأبواب من كتابه مثل "باب النوكي[116]"

منهج الجاحظ في مؤلفاته:

اتخذ الجاحظ منهجاً علمياً في تأليف كتبه وذلك لأنه توصل بشغفه العلمي وعقله الفذ إلى جملة من التجارب، وذلك من خلال حس دقيق وملاحظة عميقة وتجربة علمية يستخدم في سبيلها كل ما وقع تحت يده من وسائل حسنة ومشاهدة عينيه ونظرة موضوعية ومساءلة منطقية، ليؤكد بها عقله الذي رفض الكثير مما كان يسود عصره.

كما يؤكد فكتور شلحت "أن النزعة العلمية العقلية المنطقية التي تنزع إليها المعتزلة تتجلى عند الجاحظ في تسجيل الواقع تسجيلاً شاملاً بواسطة الملاحظة والمعاينة والسماع والتجربة[117]، فبمطالعة ما قاله "شلحت" يلاحظ أن العقل من أفضل الوسائل التي اعتمدها الجاحظ في بحثه، فما انسجم مع العقل أخذ وما تعارض معه عزف عنه. والجاحظ كما يقول قدري طوقان: "هو أعظم رجل أخرجته مدرسة النظام، وهو فيلسوف طبيعي سار على غرار النظام في منهج البحث وتحرير العقل وفي الشك والتجربة قبل الايمان واليقين"[118].

فهو لم يقف عند حدود ما يقال أو يشاع، بل كان يعرض كل شيء على العقل ويركن إلى سلطانه، وقد ورد في كتاب الحيوان في مواضع كثيرة ما يدل على أنه كان يرد الرأي إلى العقل، ولا يأخذ بأي شيء حتى يحكم عقله ويجعله المرجع الأخير.

([116]) البيان والتبيين، ج2، ص 340.
([117]) فكتور شلحت: النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ ، ص 155.
([118]) قدري طوقان: مقام العقل عند العرب، ص 942.

فإن أجاز الفعل ذلك الرأي أو الشيء أجازه وأخذ به، وإن لم يجزه أهمله ورماه"[119] وذلك يدل على قوة عقل الجاحظ وعمق نفاذه وسيطرته على تفكيره، واعتماده على العقل لا يعني أنه يجهل ما تقوم به الحواس من دور، فما تؤكده الحواس. كما ير هو –إنما هو حكم ظاهر بينما يؤكد العقل حكم الباطن فإذا أخطأ الأول في رأيه فإن الثاني يصيب لعمري أن العيوب لتخطئ فلا تذهب على ما ريك العين واذهب إلى ما يريك العقل، والأمور حكمان: حكم ظاهر للحواس، وحكم باطن للعقول والعقل هو الحجة[120].

كان الجاحظ يرفض أوهام، عصره وخرافات زمانه وليس يرفضها لمجرد الرفض بل كان يعرضها على العقل، يجادل فيها ويناقش، فإذا ثبت بعدها عن العقل يرفضها بعد ذلك وكثيراً ما هزأ بها وتهكم على رواتها ومصدقيها. من ذلك هزواه بروايات العرب عن السعالي[121] وأولاد السعالي من البشر وبما روى من الشعر في رؤية الحن وأحاديثهم[122].

وكذلك موقفه من قولهم في السمع والعسبار "وأما الذين ذكروا في أشعارهم السمع والعسبار، فليس في ظاهر كلامهم دليلٌ على ما ادعى عليهم الناس من هذا التركيب المختلف، فأدينا الذي قالوا وأمسكنا عن الشهادة، وإذا لم تجد عليها برهاناً[123].

والاعتماد على العقل في منهج البحث له ما يبرره في عصره، وقد كان الجاحظ واحداً من أشهر رجاله المعتزلة الذين اعتمدوا على العقل في جدالهم وإثبات قضاياهم فقد كان كل من الجدل والمنطق والعقل رائد المعتزلة كما يعرف.

وإيمان الجاحظ بالعقل إلى هذا الحد جعله يشكل في كل أمر حتى يبلغ فيه اليقين، ومن هنا كان نقاشه في شؤون كثيرة سمعها ولم يرض عنها عقله، ومن هنا

---

(119) قدري طوقان: مقام العقل عند العرب ن ص 98 – وانظر ك داؤد سلوم ، النقد المنهجي عند الجاحظ: ص 148.
(120) الحيوان، ج1، ص 207.
(121) السعلاة: اسم الواحدة من نساء الجن كما يزعمون.
(122) محمد عبد المنعم خفاجي، الجاحظ، ص 169-170؟
(123) الحيوان ، ج1، ص 185.

محاجته أرسطو في قضايا رأى فيها غير رأيه[124] فقد سخر مما قاله أرسطو من الفيل "وقد سمعنا ما قاله صاحب المنطق من قبل، وما يليق بمثله أن يخلد على نفسه في الكتب شهادات لا يحققها الامتحان، ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء"[125]

ومما اهتدى إليه الجاحظ بعقله، أن النمل تأخذ من الحب الذي تدخره للشتاء جزء الإنبات والتناسل لئلا يفسد ويتعفن" والعلم الحديث يؤكد هذه النظرة، وهذا هو الذي دفع بروكلمان إلى الاعتقاد بأن الجاحظ "قد اهتدى إليها بتجربته الخاصة، فهذا ونحوه يدل على أن الجاحظ لم يحمله الاستغراق في قراءة الكتب على التنازل بالكلية عن حاسته وملكته الفطرية في دراسة الطبيعة والأحياء"[126].

وكتاب الحيوان يعج بمئات هذه الأمثلة التي تدل على اعتماد الجاحظ على العقل في تصديق الخبر وأجزاء التجارب وعرض الأمور على بساط المشاهدة والملاحظة.

الشك:

ونتيجة حتمية لاستخدام العقل كان اللجوء إلى الشك يقول الجاحظ "أعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له" ومعنى ذلك كما يقول الدكتور على عبد الواحد وافي "أعرف الشك لتعرف به اليقين"[127]

فكان الجاحظ يتثبت من صدق حامل الخبر قبل الخبر فيقول مثلاً: "حدثني بعض أهل العلم فيمن طال ثواؤه في أرض الجزيرة وكان صاحب أخبار وتجربة وكان كلفا يحب التبيين معترضاً للأمور يحب أن يفضي إلى حقائقها وتثبيت أعيانها بعللها وتميز أجناسها "فكان يعرف للعلم قدره وللبيان فضله.." ويقول في موضع آخر كذلك "وخبرني" هذا الرجل وغيره من أهل النظر وأصحاب الفكر أنهم رأوا كذا وكذا.... الخ"

---

(124) جميل جبر: الجاحظ في حياته وأدبه وفكره ، ص 87.
(125) الحيوان 21/1.
(126) كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي 107/3.
(127) الحيوان 125/7 – وانظر كذلك : علي عبد الواحد وافي: عبقريات ابن خلدون، ص 304.

الملاحظة والمشاهدة:

والمقصود بالملاحظة هنا. الملاحظة العلمية التي تقوم على منهج ويقوم بها الباحث بصبر وأناة للكشف عن تفاصيل الظواهر وعن العلاقات الخفية التي توجد بين عناصرها أو بينهما وبين بعض الظواهر الأخرى"[128]. وهذه الملاحظة هي "المشاهدة الدقيقة لظاهرة ما مع الاستعانة بأساليب البحث التي تتلاءم مع طبيعة هذه الظاهرة". وقد استطاع الجاحظ بطول المشاهدة وعمق الملاحظة ودقة التعليل أن يدحض ما رددته خرافات القدماء وأساطير الأولين وتناقلته كتب التاريخ بشأن "السواد والسود فيرده إلى البيئة الطبيعية أو إلى الأرض التي يعيشون فيما يقول على لسانهم "والسواد والبياض إنما هو من قبيل الخلقة والبلدة وما طبع الله عليه الماء والتربة ومن مثل قرب الشمس وبعدها وشدة حرها ولينها وليس ذلك من قبل نسخ ولا عقوبة ولا تشويه ولا تفضيل"[129]

ويسمع الجاحظ أن القطران والكبريت الأصفر إذا صبا في أفواه بيوت النمل قتلاه فلا يكفيه ما يسمع يجري التجربة بنفسه ليتأكد مما يشاع لهذا الشأن فيقول "وقد جربنا ذلك فوجدناه باطلاً[130].

كل ما ذكر يؤكد أن الجاحظ اعتمد في تآليفه على منهج علمي توفر فيه الكثير مما توفر في مناهج البحث في العصر الحديث، ذلك مثل العقل والشك والملاحظة والمشاهدة. وظاهرة المشاهدة عند الجاحظ تمثل واقعية حسية لا تدع مجالاً لتقول قائل على الإطلاق بدليل أنه كان يشاهد مسائله مشاهدة شخصية ولا يتركها إلا وهو يقرر فيها ما يقرر.

([128]) محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث : ص 96.
([129]) الحيوان ، ج3، ص 245.
([130]) نفسه ، ج4، ص 408.

المبحث الأول

حديثه عن الأصوات

تمهيد:

لتوضيح إسهامات الجاحظ في مجال الدراسة الصوتية لابد مـن الإشـارة إلـى إسهامات من سبقه من العلماء في هذا المجال، حتى تتسنى معرفة دوره الذي قام به، وهل قلّد سابقيه أم أفاد فقط مما قدموه وماذا أضاف من بعدهم؟

دور الخليل بن أحمد الفراهيدي:

لعلّ أول من أبان للعلماء أهمية علم الأصوات هو الخليل بن أحمد الفراهيدي، فهو الذي جمع مفردات اللغة، وسجلها على طريقة رياضية، ثم شرحها، وأشار إلـى المهمل والمستعمل من ألفاظ اللغة. كما رتب الحروف إلى مجموعات صوتية حـسب مخارجها فقدم المجموعات الصوتية بحسب عمقها في الحلق، ثم تدرج حتى الحروف الشفوية، ثم حروف العلة، وكان ترتيبه كما يلي:

ع ح هـ خ غ - ق ك – ج ش ض- ص س ز – ط د ت- ظ ث ذ- ر ل ن- ف ب م - و ا ي همزة(131).

ويكمن سر اختياره لحرف "العين" قوله: " أنه تذوق جميع حـروف العربيـة، فوجد أن العين أدخل الحروف في الحلق، فجعلها أول الكتاب، ثم ما قرب منها حتـى أتى على آخرها(132).

ومن ذلك يتضح أنه كان على علم بالجهاز الصوتي وتركيبه وأجزائه، وذلـك بتحديده لمخارج الأصوات، التي جعلها في أحياز ومدارج، بعد أن أحصى حـروف العربية وجعلها تسعة وعشرين حرفاً منها خمسة وعشرون حرفاً صـحاحاً وأربعـة

---

(131) الفراهيدي: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد. العين، تحقيق، د. مهدي المخزومي، ط- دار ومكتبة الهلال – د.ت، ج1 ص53.

(132) نفسه ص57.

جوف وهي: الواو والياء والألف اللينة والهمزة، وسميت جوفاً لأنها تخرج من الجوف، فلا تقع في مدرج الحلق، ولا مدارج اللهاة، وإنما هي هاوية في الهواء، فلم يكن لها حيز تنسب إليه إلا الجوف(133).

قال الليث: قال الخليل: "فالعين والحاء والخاء والغين حلقية، والقاف والكاف لهويتان، والجيم والشين والضاد شجرية، لأن مبدأها من شجر الفم، والصاد والسين والزاء أسلية لأن مبدأها من أسلة اللسان، وهي مستدق طرفي اللسان، والطاء والتاء والدال نطعية، لأن مبدأها من نطع الغار الأعلى والظاء والذال والثاء، لثوية، لأن مبدأها من اللثة، والراء واللام والنون ذلقية، لأن مبدأها من ذلق اللسان، والفاء والباء والميم شفوية، والياء والواو والألف والهمزة هوائية في حيز واحد لأنها لا يتعلق بها شيء(134).

دور سيبويه:

يظهر اهتمام سيبويه بالأصوات من خلال مؤلفه المشهور (الكتاب) ويلحظ فيه اقتباس واضح من أستاذه الخليل، حيث بدأ في ترتيب الحروف بحروف الحلق كما فعل الخليل لكنه جعل العين من أوسط حروف الحلق، أما الهمزة والهاء والألف فمن أقصى الحلق، وتناول مخارج الأصوات مفردة وليست مجموعة كما فعل الخليل لكنه فصل ما أورده الخليل مجملاً من ذلك مثلاً قوله في الحروف الشفوية التي أشار إليها الخليل بأنها الفاء والباء والميم، قال: "ومن باطن الشفة السفلى، وأطراف الثنايا العلا مخرج الفاء، ومما بين الشفتين، مخرج الباء والميم والواو(135) كذلك لم تكن إشارة الخليل إلى دور الأسنان في النطق إشارة واضحة لكن سيبويه ذكر أن الحروف النطعية هي التي تخرج من بين طرف اللسان وأصول الثنايا، والأسلية هي التي تخرج من بين طرف اللسان وفويق الثنايا، كما فسر سيبويه ما عناه الخليل بالحروف

---

(133) العين ج1، ص58.
(134) العين، ص58.
(135) سيبويه. أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر. الكتاب. تحقيق عبد السلام محمد هرون ط2 – مكتبة الخانجي القاهرة 1982 ج4 ص433.

الشجرية "الجيم والشين والضاد" فجعل مخرج الضاد من أول حافة اللسان، وما يليها من الأضراس، والجيم والسين من وسط اللسان بينه وبين الحنك الأعلى.

ثم تحدث سيبويه عن التفخيم والترقيق والجهر والهمس والشدة والرخاوة، كل ذلك يشير إلى اهتماماته بعلم الأصوات.

دور الجاحظ:

للدكتور إبراهيم أنيس مقال، تحدث فيه عن جهود علماء العرب في الدراسة الصوتية، وكان يحدوني الأمل في أن يكون الجاحظ ضمن المذكورين، لكن خاب ذلك الأمل بمجرد تخطي عصر الجاحظ إلى القرن الرابع الذي عاش فيه ابن جني. ولا يضاح ذلك لابد من الإشارة إلى جزء من مقاله يقول د. إبراهيم أنيس.

(.... ولهذا لا ندهش أن تكون أصوات اللغة أول ما استرعى انتباه علماء العربية، فعملوا جاهدين على إتقان النطق بها، ولا سيما حين اتسعت رقعة الإسلام في الأمصار، وسمع المسلمون من العرب أصوات اللغات الأخرى، وخشوا من انحراف أصواتهم أو تأثرها بأصوات غيرهم.

ولم يكد يبدأ القرن الثاني الهجري حتى كان بين علماء العربية علماء أصوات يصفونها وصفاً علمياً ويجعلونها موضع التجربة بالألسنة والآذان. واشتهر بينهم الخليل بن أحمد، بل ربما كان إمامهم في هذا[136].

ثم أشار بعد ذلك إلى دور سيبويه. ومدى إفادته مما قدمه الخليل يقول:-

"وقد ورث آراءه في الأصوات اللغوية لسيبويه". ثم مضى في ذكر كل من كان له دور في ذلك المجال، حيث ذكر من بعد سيبويه ابن جني وأشار إلى كتابه سر صناعة الإعراب في القرن الرابع. ثم من بعدهما دور ابن سينا في رسالته "أسباب حدوث الحرف" في بداية القرن الخامس ثم ذكر الزمخشري في القرن السادس بكتابه المفصل، وأشار أيضاً إلى دور السكاكي في كتابه مفتاح العلوم.

([136]) مجلة مجمع اللغة العربية ، القاهرة – جهود علماء العرب في الدراسة الصوتية ص425.

صحيح أن لهؤلاء العلماء دوراً لا ينكر ولا يمكن لأحد من الباحثين في هـذا المجال الاستغناء عما قدموا.

لكن من الملاحظ أنه بدأ بتسلسل تاريخي شمل عصر الخليل وهو الفترة مـن (100-170هـ).

ثم ذكر بعده سيبويه في الفترة من (148-180هـ) أي بداية الاهتمام بالدراسة الصوتية كانت بداية القرن الثاني الهجري، وامتدت إلى قرب نهايته في عهد سيبويه، ثم توالت الاهتمامات حسب ذكره لها- في القرن الرابع الهجري "ابن جنـي"، إلـى الخامس الهجري "ابن سيناء" ... إلى السادس الهجري "الزمخـشري" إلـى الـسابع الهجري "السكاكي"

فالمتأمل لهذا التسلسل يفتقد القرن الثالث الهجري ويبدأ بالبحث فيه، هل لم يهتم علماء ذلك العصر بهذا النوع من الدراسة وما هي العلوم التي شغلتهم عن ذلك.

هذا العصر المفقود هو عصر الجاحظ وهو يبدأ من منتصف القرن الثاني حتى منتصف القرن الثالث الهجريين كما أشير إلى ذلك في ترجمته.

صحيح أنه لم يؤلف كتاباً خاصاً يعني بهذا الجانب، لكنه ضمن إسهاماته فـي هذا المجال كتابه البيان والتبيين وكانت إسهاماته منقطعة النظير، فهو لم يقلد السابقين له تقليداً أعمى، لكنه وبإفادته مما قدموه لفت أنظار قرائه إلى ظواهر أخرى يعتبر هو الرائد في مجالها وهو حديثه عن عيوب النطق سواء أكانت عيوب خلقية أو عيـوب ناتجه عن نطق الأعاجم لأصوات العربية وقبل ذلك كله نجده قـد عـرف الـصوت وأشار إلى الحروف الأكثر دوراناً في الكلام وكذلك أوضح أهمية الأسنان في النطق وأصعب الحروف نطقاً على الأهتم وعلاقة مغارز الأسنان بالنطق وكذلك أشار إلـى أهمية اللسان، وأوضح بعض مخارج الحروف كما أشار إلى تنافر الألفـاظ وتنـافر الحروف.

كل ذلك يفصل القول فيه من خلال هذا الفصل، ويكون الحـديث أولاً: عـن إسهاماته الصوتية من خلال إلمامه بمعارف سابقيه "الخليل وسيبويه" أمـا المبحـث الثاني فهو خاص بعيوب اللسان.

إسهاماته الصوتية:

يتضح اهتمام الجاحظ بالصوتيات من خلال ما تجده في مؤلفاته من حديث عن الأصوات ففي "الحيوان" مثلاً تجده قد أشار إلى سرعة الصوت وتأثيره وما يختـرع الأصوات واللحون من الطير، فقال في سرعة الصوت: "ومتى رأيت البرق سـمعت الرعد بعد، والرعد يكون في الأصل قبله ولكن الصوت لا يصل إليك إلا في سـرعة البرق، لأن البارق والبصر أشد تقارباً من الصوت والسمع. وقد ترى الإنسان وبينك وبينه رحلة، فيضرب بعضاً إما حجرا وإما دابة، وإما ثوباً فترى الضرب، ثم تمكـث وقتا إلى أن يأتيك الصوت[137].

وقال في تأثير الأصوات: "وأمر الصوت عجيب وتصرفه في الوجوه عجـب، فمن ذلك أن منهم ما يقتل، كصوت الصاعقة، ومنها ما يسر النفوس حتى يفرط عليها السرور، فتقلق حتى ترقص، وذلك مثل هذه الأغاني المطربة. ومن ذلك مـا يكمـد، ومن ذلك ما يزيل العقل حتى يغشى على صاحبه، كنحو هـذه الأصـوات الـشجية، والقراءات الملحنة، وليس يعتريهم ذلك من قبل المعاني، لأنه في كثير مـن ذلـك لا يفهمون من معاني كلامهم. وقد بكى ماسرجويه من قراءة أبي الخوخ فقيل له: كيـف بكيت من كتاب لا تصدق به؟ قال: إنما أبكاني الشجا. وبالأصوات ينومون الـصبيان والأطفال[138].

([137]) الحيوان ، ج4، ص 408.
([138]) نفسه، ص 191.

وكذلك يقول الدكتور أحمد الطيب: "الأصوات أنواع: منها الصوت الرائع، وهو أنس لمن أنس به ووحشة لمن استوحش منه ونعيم مقيم لقوم، وعذاب أليم عند قوم[139].

تعريف الجاحظ للصوت:

قال[140]: "الصوت هو آلة اللفظ، والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظاً، ولا كلاماً موزوناً، ولا منثوراً، إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاماً إلا بالتقطيع والتأليف، وحسن الإشارة"

بهذا التعريف جعل الجاحظ الصوت "آلة" اللفظ لأنك لم تستطع أن تكون لفظاً بدون صوت.

وممن علق على هذا التعريف من المحدثين. إدريس بلمليح[141] في حديثه عن نظرية الكلام عند الجاحظ فقال: "إن أول ما يطالع قارئ الجاحظ من هذه النظرية هو أن الكلام صوت وتقطيع وتأليف ونظم، فالكلام عند أبي عثمان "جسم"، ولذلك فهو يحتمل ما تحتمله الأجسام من اجتماع وافتراق، ويحتمل الزيادة والنقصان والفناء والبقاء.

ولعلنا لا نتفق مع بلمليح في قوله أن الجاحظ جعل الكلام جسم يحتمل ما تحتمله الأجسام بما في ذلك الفناء والبقاء. وذلك لأن الجاحظ عرف الصوت بأنه آلة اللفظ واللفظ هو الكلام – تقول: لفظ بالشيء أي تكلم به[142]. والكلام لا يكون إلا أصواتاً تامة مفيدة[143] تحصل باهتزاز الحبال الصوتية ثم بعمل أجزاء النطق الأخرى. ثم من بعد ذلك يكون التقطيع والتأليف.

---

(139) دكتور أحمد الطيب، أصوات وحناجر، ط. دار الطباعة والنشر – جامعة الخرطوم 1975، ص 25.
(140) البيان ج1، ص79.
(141) الرؤية البيانية عند الجاحظ ط1 المغرب 1984 ص 139.
(142) لسان العرب مادة لفظ ص461.
(143) نفسه مادة كلم.

بعد تعريفه للصوت أشار الجاحظ إلى أكثر الحروف دوراناً في الكلام، فقـال أنشدني ديسم، قال أنشدني أبو محمد اليزيدي:

وخلة اللفظ في الياءات إن ذكرت كخلة اللفظ في اللامـ ـ ـات والألف
وخَصلة الراء فيها غير خافيـ ـة فأعرفّ مواقعها في القول والصحف

يزعم أن هذه الحروف أكثر تردداً من غيرها، والحاجة إليها أشد قال: واعتبر ذلك بأن تأخذ عِدة رسائل وعِدة خطب من جملة خطب الناس ورسائلهم، فإنك متـى حصلت جميع حروفها وعددت كل شكل على حدة علمت أن هذه الحـروف الحاجـة إليها أشد(144).

ولبيان ذلك نعرض خطبة قصيرة للنبي صلى الله عليه وسلم، وردت في كتابه البيان والتبيين.

قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعشر كلمات، حمِد الله وأثنى عليه ثم قال:

"أيها الناس، إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهايـة فـانتهوا إلـى نهايتكم، إن المؤمن بين مخافتين: بين عاجلٍ قد مضى لا يدري ما الله صانع به، وبين آجل قد بقى لا يدري ما الله قاضٍ فيه، فليأخذ العبد من نفـسه لنفـسه، ومـن دنيـاه لآخرته، ومن الشيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت، فو الذي نفس محمد بيده، ما بعد الموت من مُستعتب، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار(145)"

الألف

أيها الناس نهاية مخافة

الياء

نهاية الشيبة الحياة دنياه

اللام

(144) البيان والتبيين ج1 ص22.
(145) البيان والتبيين ، ج1، ص 123.

آجل الكبر معالم لكم

الراء

آخرته الكبر النار دار

يلاحظ تكرار كل حرف من الحروف المذكورة أربع مرات في تلك الخطبـة للنبي صلى الله عليه وسلم.

هذه الحروف التي وصفها الجاحظ بأنها أكثر تردداً في الكلام سماها الخليـل من قبله "الحروف الذلق".

قال: "أعلم أن الحروف الذلق والشفوية ستة وهـي: ر ل ن، ف ب م" وإنمـا سميت هذه الحروف ذلقاً لأن الذلاقة في المنطق إنما هي بطرف أسلة اللسان والشفتين وهما مدرجتا هذه الأحرف الستة، منها ثلاثة ذلقية، ر ل ن، تخرج من ذلق اللـسان من طرف الغار "غار الفم"، وثلاثة شفوية "ف ب م" مخرجها من بين الشفتين خاصة ولا تعمل الشفتان في شيء من الحروف الصحاح إلا في هذه الأحرف الثلاثة فقـط، ولا ينطلق طرف اللسان إلا بالراء واللام والنون، أما سائر الأحرف فليس للسان فيها عمل إلى قوله "فلما ذلقت الحروف الستة، ومذل بهن اللسان وسهلت عليه في المنطق كثرت في أبنية الكلام. فليس شيء من بناء الخماسي التـام يعـرى منهـا أو مـن بعضها.[146]

لمقارنة ما قاله الخليل بما قاله الجاحظ، يلاحظ أن الجاحظ ذكر الياء والألـف ضمن أحرف الذلاقة والخليل أضاف الفاء والباء والميم.

أما الألف فلعلّ المقصود بها ألف الوصل، لأنه لا يمكن الاستغناء عنها لكونها تساعد في الوصول إلى الحرف الساكن، وهي التي قال عنها الخليل: "والألف التي في اسحنكك واقشعر واسحنفر واسبكر ليس من أصل البناء، وإنما أدخلت هذه الألفات في

---

(146) العين ص58.

الأفعال وأمثالها من الكلام لتكون الألف عماداً وسُلماً للسان إلى حـرف البنـاء لأن حرف اللسان حين ينطلق بنطق الساكن من الحروف يحتاج إلى ألف الوصل"[147].

أما الميم والباء ففيها قال الجاحظ: "والميم والباء أول مـا يتهيـأ فـي أفـواه الأطفال، كقولهم" ماما" و"بابا" لأنهما خارجان من عمل اللسان، وإنما يظهران بالتقاء الشفتين"[148].

ويكمن سر نطق الأطفال لها في أن الشفتين موجودة بوجود الطفل أما الأسنان فتتكون بعد مرحلة عمرية معينة، وكذلك اللسان يحتاج إلى تمرين لا يستطيعه الطفل في ذلك الحين.

ويقول كذلك: "وأما الغنم فليس يمكنها أن تقول إلا "ما"، ويشير إلـى سـهولة نطق صوت الميم.

وتناول الجاحظ صفات الأصوات فتحدث عن الصوت الجهير فـي قولـه: "وكـانوا يمدحون الجهير الصوت. ويذمون الضئيل الصوت. لذلك تشادقوا في الكلام ومـدحوا سعة الفم. وذموا صغر الفم[149].

وقد عرف ابن منظور الجهارة تحت مادة "جهر" بقوله: "الجهر: مـا ظهـر، ورآه جهرة لم يكن بينهما ستر، وفي التنزيل "أرنا الله جهرة[150]" أي عياناً يكشف ما بيننا وبينه يقال: جهرت بالشيء. إذا كشفته، والجهر يعني العلانية يقال جهر بـالقول إذا رفع صوته فهو جهير. وأجهر فهو مجهر، إذا عرف بشدة الصوت، وجهر بكلامه ودعائه وصوته وصلاته وقراءته يجهر جهراً وجهاراً ورجل جهير الصوت أي عالي الصوت[151].

والجهر عند سيبويه: حروف أشبع الاعتماد في موضعها حتى منع النفس مـن أن يجرى معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت[152].

([147]) نفسه ص54.
([148]) البيان والتبيين ج1 ص23.
[149]) البيان والتبيين ج1 ص146.
[150]) سورة النساء آية 153.
[151]) لسان العرب مادة "جهر".
[152]) الكتاب ج4 ص146.

قال الجاحظ: "كان العباس بن عبد المطلب جهير الصوت وقد مدح بذلك. وقد نفع الله المسلمين بجهارة صوته يوم حنين[153].

وقد تحدث كثير من العلماء عن جهارة صوت العباس وذلك للدور الكبير الذي لعبه في يوم حنين، عندما عبأ الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه، وصفهم صفوفاً ووضع الألوية والرايات، وانحدر صلى الله عليه وسلم وأصحابه في وادي حنين بعد هذه التعبئة، وركب بغلته البيضاء فاستقبلهم من هوازن شيء لم يروا مثله من السواد والكثرة فولت الجماعات من حول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول:

يا أنصار الله، وأنصار رسوله، أنا عبد الله ورسوله وثبت معه يومئذ بعض الصحابة ومنهم العباس بن عبد المطلب وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم يقول للعباس: ناد يا معشر الأنصار يا أصحاب سورة البقرة، فنادى: وكان صيتاً فأقبلوا يقولون: يا لبيك. يا لبيك[154].

وقد تناول ابن اسحق في السيرة جهارة صوت العباس، قال ابن اسحق: حدثني الزهري، عن كثير بن العباس، عن أبيه العباس بن عبد المطلب، قال: "إني لمع رسول الله صلى الله عليه وسلم آخذ بحكمة بغلته البيضاء،...، قال وكنت امرءاً جسيماً شديد الصوت...، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى ما رأى من الناس: "يا عباس أصرخ يا معشر الأنصار: يا معشر أصحاب السمرة، قال فأجابوا لبيك، لبيك[155].

وفي جهارة صوته أيضاً قال محمد حسين هيكل: "وكان العباس بن عبد المطلب رجلاً جسيماً جهوري الصوت قويه، فنادى بما اسمع الناس جميعاً من كل فج: يا معشر الأنصار الذين أووا ونصروا: يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة، إن محمداً حي فهلموا: وكرر العباس النداء حتى تجاوبت كل جنبات الوادي أصداؤه، وهنا كانت المعجزة: سمع أصحاب العقبة، اسم العقبة، فذكروا محمداً،

---

153) ابن هشام: السيرة النبوية. تحقيق عمر عبد السلام. ط1/دار الريان للتراث القاهرة 1987 ص88.

154) ابن سعد: محمد بن منيع الهاشمي: الطبقات الكبرى. تحقيق محمد عبد القادر ط1 – دار الكتب العلمية. بيروت 1990 ج2 ص150.

155) ابن هشام: السيرة النبوية. تحقيق عمر عبد السلام، ط1/ دار الريان للتراث القاهرة، 1987م ص88.

وذكروا عهودهم وشرفهم، وسمع المهاجرون اسم محمد، وذكروا تضحياتهم وشرفهم، وكان نداء العباس أثناء ذلك ما يزال يدوي في آذانهم وتهتز لأصدائه أوتار قلـوبهم، هناك تصايحوا من كل صوب: لبيك. لبيك، وارتدوا إلى المعركة مستبسلين(156).

وهذا ما يقصده الجاحظ من أن الله نفع المسلمين بجهارة صوت العباس في يوم حنين.

وقد مدح محمد بن ذؤيب(157) هرون الرشيد بقوله:

جهير العطاس شديد النياط   جهير الرواء جهير النغـم

وفي مدح الصوت الشديد قال العجير السلولي(158):

جهير وممتد العنان مناقل   بصير بعورات الكلام خبير

أهمية الأسنان في النطق:

قال الجاحظ: قال سهل بن هرون: "لو عرف الزنجي فرط حاجته إلى ثناياه في إقامة الحروف وتكميل آلة البيان لما نزع ثناياه" وذلك لأن للأسنان دوراً كبيـراً فـي نطق الكثير من أصوات العربية، مثل: "الظاء" و"الذال" و"الثاء" و"النـون" و"الـدال" و"التاء".

فمخرج الدال والتاء يكون بالتقاء طرف اللسان مع أصول الثنايا العليـا، أمـا الظاء والذال والثاء فمخرجها مما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا(159).

أما النون والفاء فمخرج النون من طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا(160). لكن مخرج الفاء بين باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا(161).

---

156) هيكل: محمد حسين هيكل، حياة محمد (ص) ط1/ مكتبة النهضة المصرية القاهرة. 1990 ص431.

157) محمد ذؤيب، ذكر بأنه من الرجاز، انظر: الفهرست ص185.

158) هو العجير بن عبد الله بن عبيدة بن كعب بن سلول – من شعراء الدولة الأموية يكنى بأبي الفرزدق. انظر : خزانة الأدب ج5 ص35.

(159) الكتاب ج4 ص433.

(160) ابن جني سر صناعة الأعراب.

(161) ابن يعيش شرح المفصل.

قال سيدنا عمر رضي الله عنه في سهيل بن عمرو الخطيب[162] "يـا رسـول الله، انزع ثنيتيه السفليين حتى يدلَع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً.

ولأهمية الأسنان بالنسبة للخطباء قال الجاحظ: "قال خلاد بن يزيـد الأرقـط: خطب الجمحي خطبة نكاح أصاب فيها معاني الكلام، وكان في كلامه صفير يخـرج من موضع ثناياه المنزوعة، فأجابه زيد بن علي بن الحسين بكلام في جودة كلامـه، إلا أنه فَضَله بحسن المخرج، والسلامة من الصفير، فذكر عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر سلامة لفظ زيد لسلامة أسنانه، فقال في كلمة له:

قلت قوادحها[163] وتم عديدُها   فله بذاك مزيةٌ[164] لا تنكر

ويروى "صحت مخارجها وتم حروفها".

قال : وزعم يحيى بن نجيم بن معاوية بن زمعة، أحد رواة أهل البـصرة أن يونس بن حبيب الضبي قال في تأويل قول الأحنف بن قيس.

أنا ابن الزافرية أرضعتني   بثدي لا أجد ولا وخيـم

أتمتني فلم تنقص عظامي   ولا صوتي إذا جد الخصوم

قال: إنما عنى بقوله "عظامي" أسنانه التي في فيه، وهي التي إذا تمت، تمـت الحروف وإذا نقصت، نقصت الحروف[165]".

وكذلك في أهميتها قال: "ولم يتكلم معاوية منذ أن سقطت ثناياه. قال أبو الحسن وغيره: لما شق علي معاوية سقوط مقادم فيه، قال له يزيد بن معن السلمي: "والله ما بلغ أحد سنك إلا أبغض بعضه بعضاً، ففوك أهون علينا من سمعك وبصرك" فطابت نفسه[166].

قال: "لولا المنابر والنساء، ما باليت متى سقطت. وهو بذلك يشير إلى الأهمية القصوى للأسنان خاصة لدى الخطيب، ويؤكد الجاحظ على أن من سـقطت أسـنانه

---

[162] الإصابة 3566 – هو أبو يزيد سهيل بن عمرو بن عبد شمس خطيب قريش وهو الذي تولى أمر الصلح بالحديبية، وكان من المرلفة قلوبهم مات سنة 18هـ.

[163] القادح: آكال يقع في الأسنان.

[164] المزية: الفضيلة.

[165] البيان والتبيين ج1 ص59.

[166] البيان والتبيين، ص 60.

جميعها أبين ممن ذهب شطرها أو ثلثاها يقول: قال محمد بن الرومي، مولى أمير المؤمنين: قد صحت التجربة وقامت العبرة على أن سقوط جميع الأسنان أصلح في الإبانة عن الحروف منه إذا سقط أكثرها، وخالف أحد شطريها الآخر[167]. ويقول: وقد رأينا تصديق ذلك في أفواه قومٍ شاهدهم الناس بعد أن سقط جميع أسنانهم، وبعد أن بقى منها الثلث أو الربع.

وأثبت كلامه هذا بقوله: "فمن سقطت جميع أسنانه وكان معنى كلامه مفهوماً: الوليد بن هشام القحذمي، صاحب الأخبار، ومنهم أبو سفيان بن العلاء بن لبيد التغلبي، وكان ذا بيان ولسن[168].

قال: وكان سفيان بن الأبرد الكلبي كثيراً ما يجمع بين الحار والقار فتساقطت أسنانه جميعها، وكان في ذلك كله خطيباً بيناً.

علاقة مغارز الأسنان بالنطق:

قال: "وقال أهل التجربة: إذا كان في اللحم الذي فيه مغارز الأسنان تشمير وقصر، ذهبت الحروف وفسد البيان" كما أشار إلى أن عظِم اللسان نافع لمن سقطت أسنانه، فقال: "إذا وجد اللسان من جميع جهاته شيئاً يقرعه ويصكه ولم يمر في هواء واسع المجال، وكان لسانه يملأ جَوبةَ فمه، إذا كان ذلك كذلك لم يضره سقوط أسنانه إلا بالمقدار المقتفر والجزء المحتمل.

قال: ويؤكد ذلك قول صاحب المنطق، فإنه زعم في كتاب الحيوان: أن الطائر والبهيمة، كلما كان لسان الواحد منها أعرض كان أفصح وأبين، وأحكى لما يلقن ولما يسمع، كنحو الببغاء، والغُداف وغراب البين وما أشبه ذلك[169].

أصعب الحروف نطقاً على الأهتم:

---

(167) البيان ص61.
(168) نفسه ص61.
(169) الحيوان ج5 ص288.

تعريف الأهتم:

جاء في لسان العرب[170]: هتم فاه يَهتِمه هتماً: ألقى مقدم أسنانه، والهُتَمُ: انكسار الثنايا من أصولها خاصة، وقيل من أطرافها. هتِم هتماً وهو أهتم بين الهتم، وأهتمته إهتاماً إذا كسرت أسنانه. وتهتم الشيء تكسر.

والأهتم لقب سنان بن سُمَي بن سنان بن خالد بن منقر يقول الجاحظ: "وليس شيء من الحروف أدخل في باب النقص والعجز من فم الأهتم من الفاء والسين إذا كانا في وسط الكلمة[171]. وذلك لأن مخرج هذه الحروف مما بين طرف اللسان وفويق الثنايا لذلك صعبت على الأهتم الذي فقد أسنانه.

وكذلك لاختلاف منابت الأسنان من حيث الطول والقصر والدخول والخروج أثر أيضاً في تأدية الأصوات بصورة واضحة وهذا العيب في الأسنان يسمى الشغا لذلك قال الجاحظ[172]: كان زيد بن جندب أشغى أفلح[173] ولولا ذلك لكان أخطب العرب قاطبة.

قال عبيد بن هلال اليشكري في هجائه له:

أشغى عقنباة[174] ونابُ ذو عَصَل[175] وقَلَحُ بادٍ وسن قد نَصَل

وقال فيها أيضاً:

ولفوك أشنع حين تنطق فاغراً من في قريح[176] قد أصاب بريرا[177]

قال الجاحظ: وفي الخطباء من كان أشغى، ومن كان أشدق ومن كان أروق، ومن كان أضجم، ومن كان أفقم. ويأتي شرح هذه المصطلحات عند الحديث عن عيوب النطق.

---

(170) لسان العرب مادة هتم.
(171) البيان والتبيين ج1 ص61.
(172) نفسه ص45.
(173) افلج الفلج: شق في الشفة العليا.
(174) العقنباة: العقاب الحديدة المخالب.
(175) عصل : الالتواء.
(176) قريح: المصاب بالقرحة فيهدل لذلك مشفره.
(177) البرير: الأول من ثمر الآراك.

مخرج الضاد:

حرف الضاد من الحروف التي اتسمت بها العربية حتى سميت بلغة الضاد وذلك لأن هذا الصوت كان شاقاً عصياً على ألسنة المولدين، من أجل هذا سميت العربية بلغة الضاد.

قال ابن جني: وأعلم أن الضاد للعرب خاصة ولا يوجد من كلام العجم إلا في القليل[178].

ويقول الخليل في مخرجها: والجيم والشين والضاد شجرية لأن مبدأها من شجر الفم أي مفرج الفم[179].

أما سيبويه فيوضح ما قاله الخليل بقوله: ومن بين أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس مخرج الضاد[180].

أما الجاحظ فيبين مخرج الضاد بتوضيحه إلى كيفية نطق سيدنا عمر رضي الله عنه لهذا الصوت فيقول: "فأما الضاد فليست تخرج إلا من الشدق الأيمن، إلا أن يكون المتكلم أعسر يَسَرًا[181]، مثل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإنه كان يخرج الضاد من أي شدقيه شاء، فأما الأيمن والأعسر[182]، والأضبط[183]، فليس يمكنهم ذلك إلا بالاستكراه، ومثل لكيفية النطق تلك بقوله:

ولصعوبة نطقها عند غير العرب قال الجاحظ: "وكذلك الأنفاس مقسومة على المنخرين، فحالاً يكون في الاسترواح ودفع البخار من الجوف من الشق الأيمن، وحالاً يكون من الشق الأيسر، ولا يجتمعان على ذلك في وقت إلا أن يستكره ذلك مستكره، أو يتكلفه متكلف، فأما إذا ترك أنفاسه على سجيتها لم تكن إلا كما قالوا"[184].

([178]) سر صناعة الإعراب ، ج1، ص 223.
([179]) العين ، ج1، ص 65.
([180]) الكتاب، ج2، ص 489.
([181]) رجل أعسر يسرا : يعمل بيديه جميعاً.
([182]) الأعسر : الذي يعمل بيده اليسرى خاصة.
([183]) الأضبط : فسر أيضاً بأنه هو الأعسر نفسه.
([184]) البيان والتبيين، ج1، ص 63.

ويؤكد سيبويه ما قاله الجاحظ في مخرج الضاد بقوله: "تتكلف من الجانب الأيمن وإن شئت تكلفتها من الجانب الأيسر وهو أخف لأنها من حافة اللسان مطبقة، لأنك جمعت في الضاد تكلف الإطباق مع إزالته عن موضعه، وإنما أجاز هذا لأنك تحولها من اليسار إلى الموضع الذي في اليمين وهي أخف لأنها من حافة اللسان وأنها تخالط مخرج غيرها بعد خروجها فتستطيل حين تخالط حروف اللسان، فسهل تحويلها إلى الأيسر لأنها تصير في حافة اللسان في الأيسر إلى مثل ما كانت في الأيمن ثم تنسل من الأيسر حتى تتصل بحروف اللسان كما كانت كذلك في الأيمن[(185)].

قال الجاحظ: "ليس للروم ضاد، ولا للفرس ثاء، ولا للسرياني ذال" كذلك، أشار إلى أسهل الحروف نطقاً عند بعض الأمم فقال: "ولكل لغة ألفاظ تدور في أكثر كلامها، كنحو استعمال الروم للسين، واستعمال الجرامقة[(186)] للعين"

وأشار أيضاً إلى إبدال الذال المعجمة دالاً فقال: "والصقلبي[(187)] يجعل الذال المعجمة دالاً في الحروف" وهذا النوع من الإبدال موجود في لهجاتنا العربية، فهذه الذال في العامية السودانية تصير ضاداً، أما في المصرية تصبح دالاً. فيقولون في ذيل "ديل". وسبب الإبدال هو قرب مخرج الذال من الدال، بالإضافة إلى إشتراكهما في الصفة وهي الجهر.

وفي التنزيل العظيم "فهل من مدكر"[(188)] الأصل مذدكر قلبت الذال دالاً وأدغمت في الدال فصارت مدكر.

قال: والنخاس يمتحن لسان الجارية إذ ظن أنها رومية أو أهلها يزعمون أنها مولدة بأن تقول "ناعمة" و"شمس" ثلاث مرات متواليات[(189)].

---

(185) الكتاب، ج2، ص 488.

(186) الجرامقة: طائفة من الدلدانيين أي السريانيين/ البيان ص65.

(187) الصقلبي: نسبه إلى صقلب، وهي بلاديين بلقاء وقسطنطينية ، انظر: الحيوان 113/1 .

(188) سورة القمر ، آية "15"

(189) البيان ج1 ص71..

وكان قبلاً قد أوضح أنه يستعصي على الرومي نطق الضاد ويسهل عليه نطق السين، أما العين فقد أثبت سهولة نطقها عند الجرامقة.

يلمح من حديثه في امتحان لسان الجارية أن العين عصية على الـروم، فـإذا استطاعت الجارية نطق كلمة "ناعمة" فهي إذاً ليست برومية وإنما تنـسب للجرامقـة وإذا قلبت العين همزة فهي من النبط وأشار إلى ذلك بقوله: "النبطي القح يجعل العين همزة فيقول في مشمعل/ مشمئل[190]".

تنافر الألفاظ وتنافر الحروف:

قال: ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر، وإن كانت مجموعة في بيت شـعر لـم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض الاستكراه فمن ذلك قول الشاعر

وقبر حرب بمكان قفر   وليس قرب قبر حرب قبر

قال الجاحظ:

ولما رأى من لا علم له أن أحداً لا يستطيع أن ينشد هذا البيت ثلاث مرات في نسق واحد فلا يتتعتع ولا يتلجلج، وقيل لهم إن ذلك إنما اعتراه إذ كان مـن أشـعار الجن صدقوا بذلك[191]

قال وأنشدني أبو العاصي قال: أنشدني خلف الأحمر في هذا المعنى:

وبعض قريض القوم أولادُ عَلّةٍ   يكُد لسان الناطق المتحفظ[192]

قال: وأنشدني في ذلك أبو البيداء الرياحي:

وشعر كبعر الكبش فرق بينه   لسان دعي في القريض دخيل

أما قول خلف *وبعض قريض القوم أولاد علة*

فإنه يقول: إذا كان الشعر مستكرهاً، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقـع بعـضها مماثلاً لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات.

([190]) البيان ص70.

([191]) البيان ص65.

([192]) البيت في العمدة 172/1..

وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضياً موافقاً كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة.

قال: وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً، وسبك سبكاً واحداً فهـو يجـري علـى اللـسان كمـا يجـري الدهان[193].

وأما قوله: "كبعر الكبش" فإنما ذهب إلى أن بعر الكبش يقع متفرقاً غير مؤتلف ولا متجاور. وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر، تراها متفقة مُلْسا، ولينة المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة، ومتنافرة مستكرهة تشق على اللسان وتكُده، والأخرى تراها سهلة لينة ورطبة مواتية، سلسة النظام، خفيفة على اللسان، حتى كان البيت بأسرة كلمةٌ واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد.[194]

قال: فقيل لهم: فأنشدونا بعض ما لا تتباين ألفاظُه، ولا تتنافر أجزاؤه. فقالوا : قال الثقفي[195]:-

من كان ذا عَضُدٍ يدرك ظُلامتَه   إن الذليلَ الذي ليست له عضد
تنبو يداه إذا مـ ـ ـا قلّ ناصره   ويأنفُ الضيمَ أن أثرى له عدد

وأنشدوا[196]:

رمتني وستر الله بيني وبينهـا   عشية آرام الكناس رميـ ـ ـم
رميم التي قالت لجارات بيتها   ضمنتُ لكم ألا يزالُ يهيـ ـمُ
ألا رُب يوم لو رمتني رميتْها   ولكن عهدي بالنضال قديـ ـم

قال المبرد في تفسير ذلك "لو كنت شاباً لرميت كما رميت، وفتنت كما فتنت، ولكن تطاول عهدي بالشباب.

وأنشد ابن الأعرابي:

وبات يدرس شعراً لا قران له   قد كان نقحه حولاً فمـا زادا

---

(193) البيان ، ج1، ص 67.
194) البيان ص67.
195) الثقفي هو الإجرد الثقفي: كما في الشعر والشعراء 175- وانظر أمالي ثعلب 74 دعيون الأخبار "2/3" والحيوان 45/3.
196) الأبيات لأبي حبة النميري/ الحماسة 110/2 الحيوان 49/3.

وقال بشار[197] "في واصل بن عطاء".

فهذا بديه لا كتحبير قائلٍ　　إذا ما أراد القول زوره شهراً

قال: فهذا في اقتران الألفاظ، فأما في اقتران الحروف، فإن الجـيم لا تقـارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين، بتقديم ولا بتأخير، والزاي لا تقارن الظـاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال، بتقديم ولا بتأخير، وهذا باب كبير، وقد يُكتفى بذكر القليل حتى يستدل به على الغاية التي إليها يجري[198].

وأورد السيوطي في المزهر قول الفارابي في ديوان الأدب: قـال: "القـاف والجيم لا يجتمعان في كلمة واحدة في كلام العرب والجيم والتاء لا تجتمع في كلمـة واحدة من غير حرف ذلوقي، ولهذا ليس الجبت من محض العربية والجيم والصاد لا يأتلفان في كلام العرب ولهذا ليس الجص ولا الأجاص ولا الصولجان بعربي، والجيم والطاء لا يجتمعان في كلمة واحدة، ولهذا كان الطاجن والطيجن مولدين، لأن ذلك لا يكون في كلامهم الأصلي[199].

كذلك تحدث الجاحظ عن اللسان كأحد أعضاء النطق الأساسية ومن أحسن مـا قاله قول العباس بن عبد المطلب:

قال وقال العباس بن عبد المطلب للنبي صلى الله عليه وسلم: يـا رسـول الله، فـيم الجمال؟ قال في اللسان [200].

وللسان دور كبير في نطق معظم أصوات اللغة من ذلك مثلاً ما أشـار إليـه سيبويه بقوله: "ومن أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى مخرج القـاف، ومـن أسفل من موضع القاف من اللسان قليلاً ومما يليه من الحنك الأعلى مخرج الكـاف ومن وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء ومن أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس مخرج الضاد، ومن حافة اللسان من أدناها إلـى منتهى طرف اللسان ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى مخرج اللام، ومما بـين

---

(197) البيان والتبيين ج1 ص68.

198) البيان والتبيين، ص69.

199) المزهر ص270.

(200) البيان والتبيين ، ج1، ص 17.

طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء والدال والتاء، ومما بين طرف اللسان طرف اللسان وفويق الثنايا مخرج الزاي والسين والصاد ومما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا مخرج الظاء والذال والثاء[201]. وهذا يوضح أن للسان دوراً كبيراً في النطق .

قال الجاحظ: قال خالد بن صفوان : "ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلةٌ أو بهيمه مهملة"[202] وكان يقال: "عقل الرجل مدفون تحت لسانه".

وقال: قال صاحب المنطق[203]: "حد الإنسان الحي الناطق المبين" والمقصود هنا هو اللغة والبيان والفصاحة. وقال: قال بكر بن عبد الله المزني[204]: "طول الصمت حبسة قال وكيف يكون الصمت أنفع، والإيثار له أفضل ونفعه لا يكاد يجاوز رأس صاحبه، ونفع الكلام يُعم ويخص، والرواة لم ترو سكوت الصامتين، كما روت كلام الناطقين، وبالكلام أرسل الله أنبياءه لا بالصمت، ومواضع الصمت المحمودة قليلة، مواضع الكلام المحمودة كثيرة وطول الصمت يفسد اللسان.

يشير بذلك إلى نفع الكلام وفائدته وهي أعم من الصمت وما قيل عن الكلام من فضه والصمت من ذهب يعني به إذا لم يستطع الإنسان أن يصلح بلسانه أو يفيد بما يقوله فخير له أن يصمت، في هذه الحالة فقط يكون السكوت من ذهب، لكن هل يكون الصمت من ذهب والحرمات تنتهك أمامك في هذه الحالة يكون الكلام من ذهب ويكون الساكت عن الحق شيطان أخرس. وفي فضل القول يقول الجاحظ[205]:

"إذا ترك الإنسان القول ماتت خواطره، وتبلدت نفسه وفسد حِسه، وكانوا يروون صبيانهم الأرجاز ويعلمونهم المناقلات، ويأمرونهم برفع الصوت، وتحقيق الإعراب لأن ذلك يفتق اللهاة، ويفتح الجُرم[206]".

---

(201) الكتاب ج2 ص489.
(202) البيان والتبيين ج1 ص170.
(203) نفسه ص170.
(204) نسبة إلى مزينه أبو عبد الله البصري ثقة جليل توفى 106هـ - انظر/ تهذيب التهذيب.
(205) البيان 272.
(206) الجرْم/ الحلق.

ويقول كذلك: واللسان إذا أكثرت تقليبه رقّ ولان، وإذا أقللت تقليبـه وأطلـت إسكاته جسأ وغلظ.

قال : "وما نشك أنه عليه السلام قد نهى عن المراء، وعن التزيـد والتكلـف، وعن كل ما ضارع الرياء والسُمعة، وعن التهاتر والتشاغب، وعن المماتنة والمغالبة، فأما نفس البيان، فكيف ينهى عنه[207].

---

[207]) البيان ج1 ص273.

المبحث الثاني
عيوب اللسان

تمهيد:

وصفت بعض اللهجات العربية –كما تقدم- بأنها مذمومة وذلك لأنها خرجت من حدود القوانين المشتركة العامة التي خضعت لها اللغة المتمثلة في لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر العربي الفصيح، وبعض الأمثال العربية الأصلية، وكلام البلغاء والفصحاء من القبائل العربية، فما اتفق من اللغة مع هذه القوانين كان فصيحاً، وكان بياناً عربياً، وما خالفها كان خارجاً على القياس مذموماً ومعيباً. وذلك مثل بعض اللهجات التي خصت بها قبائل معينة منها "طمطمانية حمير، وتلتلة بهراء، وقطعة طي، ولخلخانية الفرات، وعنعنة تميم...الخ".

هذه اللهجات تمثل ظواهر لغوية، فإذا حاولنا مقارنتها مع ما أشار إليه الجاحظ من عيوب النطق، نجد أن ما عناه الجاحظ يتعلق بأخطاء فسيولوجية عضوية في الجهاز الصوتي للإنسان. وهي كما ذكر الدكتور رشيد عبد الرحمن تمثل نوعاً آخر من الخروج اللغوي، وإن كان النوع الأول يتمثل في كون الخروج جماعياً، يتم تحقيقه على لسان مجموعة من العرب المشهود لهم بفصاحة لسانهم في غير هذا العيب.

وقال: إن العيب الذي يحصل في عضو من أعضاء الجهاز النطقي، هو نقص فسيولوجي يحدث في الأفراد من المجموعة ولا يمثل ظاهرة لغوية يمكن إدراجها تحت موضوع "اللهجة القبلية، فقد يكون ذلك النقص في اللسان فيعتور الأصوات اللسانية نوع من التكلف، أو الضعف في إخراجها، وقد يكون في الأسنان، كأن تكون داخلة إلى باطن الفم أو خارجة عنه، أو قليلة فلا تقوم بواجبها الصحيح عند إخراج الأصوات الأسنانية، مما يؤدي إلى اللثغ أو الثأثأة،...، أو ما أشبه ذلك. وأسباب

عيوب اللسان كثيرة لا حصر لها يرجع بعضها إلى عيوب سمعية أو عيوب بصرية، أو أخرى تؤثر على نمو الجهاز الصوتي بشكل صحيح، فلا يستطيع أن يقوم بـدوره المطلوب[208].

أولى الجاحظ هذا النوع من العيوب عناية فائقة في كتابـه البيـان والتبيـين، ويمكن إجمالها في قوله:

"وليس اللجلاج والتمتام، والألثغ، والفأفاء، وذو الحُبسة والحُكلة، والرتـة، وذو اللفف والعجلة، في سبيل الحصر في خطبته، والعي في مناضلة خـصومه، كمـا أن سبيل المسهب المفحم عند الشعراء، والبكئ عند الخطباء، خـلاف سـبيل المـسهب الثرثار، والخطل المكثار. ثم أعلم أن أصحاب التشديق والتقعير والتقعيب من الخطباء والبلغاء، مع سماجة التكلف وشنعة التزيد أعذر من عِي يتكلف الخطابة، ومن حصرٍ يتعرض لأهل الدربة والاعتياد[209]".

والجاحظ بذكره لهذه العيوب يشير إلى أن كل ما ذكره منها أهون مـن العـي والحصر خصوصاً عندما يتكلفان الخطابة ويتعرضان لأهل الاعتياد والدربـة مـن الخطباء.

لتوضيح ذلك نبدأ بذكر العيوب حسب ترتيبه لها في حديثه المتقدم:

1/ اللجلجة:

قال الجاحظ : قال اللهبي[210] في اللجلاج:

ليس خطيب القوم باللجلاج ولا الذي يزحل[211] كالهلباج[212]

قال محمد بن سلام الجمحي: كان عمر بن الخطاب، رحمه الله إذا رأى رجلاً يتلجلج في كلامه، قال: "خالق هذا وخالق عمر بن العاص واحد".

([208]) مجلة مجمع اللغة العراقي – مقال د. رشيد عبد الرحمن العبيدي ص240-241.

([209]) البيان والتبين ج1 ص13/12.

([210]) اللهبي: هو الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب، أحد شعراء بني هاشم وكان ممن وفد على عبد الملك بن مروان. انظر: الأغاني 15/ص2-10.

([211]) يزحل: يزل

([212]) الهلباج : الأحمق.

واللجلجة عيب لساني معروف يختلف اللغويون في تحديده بشكل دقيق وواضح وهي[213]:

أ- ثقل الكلام، سببه ثقل حركة اللسان، بحيث لا يمكن أن يخرج الكلام بعضه أثر بعض.

ب- ضعف القدرة على الترسل في الكلام.

ج- جولان اللسان في الشدق، في صوغ الكلام.

د- التكلم بلسان غير بين.

هـ- التردد بين أن يخرج الكلام، أو أن يبقيه في صدره ولقد ورد في كتاب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى رضي الله عنه "الفهم الفهم، فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة" أي تردد في صدرك، وقلق، ولم يستقر.

واللجلجة عند الثعالبي مرحلة من مراحل العي، تأتي بعد الحصر والفهاهة والإفحام ثم اللجلجة، وهي بمعنى التردد والقلق"[214]

2/ التمتمة:-

وهي أن يتردد اللسان في التاء والميم أو التاء وحدها[215]. ونقل ابن منظور خلافاً بين اللغويين في تحديد موضع التمتمة من الأصوات اللغوية في اللسان، وهذه الخلافات تنحصر في أن:

1- التمتمة هي التعجل في الكلام، فلا يكاد يفهمه السامع.
2- التمتمة هي سبق الكلام إلى الحنك الأعلى.
3- التمتمة هي أن لا يبين الكلام من اللسان بسبب خطأ اللسان في موضع الحرف، فيرجع إلى لفظ يجمع بين التاء والميم، ولم يكن بيناً واضحاً.
4- هي التردد في التاء، أو رد الكلام إليها، أو إلى التاء والميم.

وقصر ابن قتيبة التردد على التاء وحدها. قال: والذي يتكلم بالتمتمة تمتام[216].

---

(213) مجلة مجمع اللغة العراقي ص241.
(214) فقه اللغة 74.
(215) أدب الكاتب 146 – الكامل 578/1.
(216) آداب الكاتب ص511.

وقال الجاحظ: قال الأصمعي: "إذا تتعتع اللسان في التاء فهو تمتام، وإذا تتعتع في الفاء فهو فأفاء، وأنشد لرؤبة

يا حمد ذات المنطق التمتام كأن وسواسك في اللمام

حديث شيطان بني هنام[217]

اللثغة:

من العيوب اللسانية الفاحشة كما يرى الجاحظ، ويسمى صاحبها الألثغ وتكون اللثغة بأن يتحول اللسان من حرف إلى حرف آخر عند النطق، كالذي ينطق الراء غيناً، أو لاماً، أو ياءً، أو ظاءً أو ينطق الضاد فاء، والسين ثاء أو تاء.

وقيل في الألثغ، هو الذي لا يتم دفع لسانه في الكلام لثقله وأوقف ابن قتيبة تعريف "الألثغ" على الشخص الذي يرجع لسانه في المنطق إلى الثاء والغين[218].

الحروف التي تدخلها اللثغة:

قال أبو عثمان: وهي أربعة أحرف "القاف، والسين، واللام، والراء" وقبل تفصيل الحديث عن هذه الحروف الأربعة، يلاحظ أن الجاحظ قد ذكر لثغات في حروف أخرى غير التي ذكرت وذلك في قوله:

"فأما التي على الشين المعجمة فذلك شيء لا يصوره الخط، لأنه ليس من الحروف المعروفة، وإنما هو مخرج من المحارج، والمخارج لا تحصى ولا يوقف عليها، وكذلك القول في حروف كثيرة من حروف لغات العجم[219]".

وكذلك تحدث عن لثغة في الضاد وأخرى في الصاد، وذلك بقوله:

فأما من تعتريه اللثغة في الضاد وربما اعتراه أيضاً في الصاد والراء[220]". وبذلك يمكن أن تعد هذه الحروف من الحروف التي يمكن أن يصيبها اللثغ، وهي :"الشين والضاد ، والصاد، والراء" وبذا يصبح عددها ثمانية وليس أربعة.

---

[217]) بني هنّام: يقال هو حي من الجَن.
[218]) عيون الأخبار 5/4.
[219]) البيان والتبيين ج1 ص34.
[220]) نفسه ص36.

تحدث كذلك عن بعض من زعم أن موسى عليه السلام كان ألثغ بقوله: "وزعم ناس من العوام أن موسى عليه السلام كان الثغ ولم يقفوا من الحروف التـي كانـت تعرض له على شيء بعينه.

أولاً: لثقة القاف:

أما اللثغة التي تعرض للقاف فإن صاحبها يقلب القاف طاء، فإذا أراد أن يقول: "قلت له" قال: "طلت له" و"طال لي" في قال. وقد روي أن ابن طبا طبـا[221] سـمي بذلك لأنه ألثغ في القاف. وإذا تناولنا ما يجمع بين القاف والطاء من علاقة نجـد أن كلا الصوتين من حروف القلقلة التي تجتمع في كلمة "قطب جد". والطاء كذلك مـن حروف الأطباق وسميت بذلك لأن اللسان ينطبق مع الحنك الأعلى عند النطق بها مع استعلائها في الفم. والقاف يشترك مع الطاء في الاستعلاء، وحروف الاستعلاء تشمل حروف الإطباق بالإضافة إلى الغين والقاف والخاء. والفرق بينها وحروف الإطبـاق أنه يستعلى الصوت معها غير منطبق بالحنك، ومن الصفات التي تجمعها أيـضاً أن كلا الصوتين مجهورين وكذلك هما من الحروف الشديدة التي تجتمع في جملة "أجدت طبقك"

ثانيا: لثغة السين:

الألثغ في السين يتعسر عليه نطقها فيقلبها ثاءً، والسين من الحروف الأسـلية. كما أشار إلى ذلك الخليل –نسبة إلى الموضع الـذي تخـرج منـه، وهـو طـرف اللسان[222]. أما الثاء فهي حرف لثوي يخرج من اللثة، ففي حالة النطق بالثاء يخرج من الهواء فمك محتكاً بأسنانك العليا مع طرف اللسان محدثاً صـوتاً خفيفـاً دون أن يصحبه الأزيز الذي تسمعه في حالة النطق بالذال وهو نظيره المجهور، أما الثاء مع السين فيشتركان في صفة الهمس وكذلك في المخرج الذي هو طرف اللسان، غير أن

---

[221]) صاحب كتاب عيار الشعر وكتاب سنام المعالي – انظر: الفرست ص151.

([222]) العين ج1 ص57.

السين تخرج من بين طرف اللسان وفويق الثنايا، أما التاء فتخرج من بين طرف اللسان وأطراف الثنايا[223]. ونسبة لقربهما في المخرج واشتراكهما في الصفة تجد لسان الألثغ لا يذهب بعيداً عن الحرف الذي لا يستطيع نقطة، بل يتهيأ له النطق من أقرب مخرج يتفق مع الصوت المفقود عنده.

يلاحظ أن صوت الثاء الذي يسهل نطقه لدى الألثغ تفقده كثير من اللهجات السودانية، وليس من عيب خلقي في أعضاء النطق، ولكن من عدم المران على نطقة صحيحاً في مخرجه. وذلك مثل قولهم "عسمان، مساني، مسابة، أمتسال في "عثمان، مثاني، مثابة وامتثال".

فعلى العربي أن يولي عناية خاصة إلى أصوات العربية وخصوصاً في القرآن، فعليه أن يعمل نفسه بالتدريب والمران على نطق الأصوات التي لا توجد في لهجته حتى يتقنها، يقول الدكتور يوسف الخليفة أبو بكر:

"فإذا كان التدريب الذي قام به في صغره أو كبره يمكنه من نطق هذه الأصوات نطقاً قرآنيا فصيحاً عند المحاولة، إلا أنه يكسل عن التطبيق، ويتكل عند القراءة على ما ألفه من نطق الثاء سيناً والذال زاياً مثلا، فهو آثم لأنه يقرأ القرآن بغير ما أنزل مع قدرته على القراءة الصحيحة تكاسلاً أو استخفافاً أو استكباراً إذ أن هذا التغير يشوه معنى الآية، وقد يؤدي إلى عكس معنى الآية، مثال ذلك السوداني الذي يقرأ قوله تعالى: "إنا أنزلناه في ليلة القدر" فينطق القاف غيناً[224]".

لثغة اللام:

أما اللثغة التي في اللام فإن من أهلها من يجعل اللام ياء ويقول بدل قوله: اعتللت: اعتييت، وآخرون يجعلون اللام كافاً، كالذي إذا أراد أن يقول: "ما العلة في هذا" قال: "ما كعكة في هذا"[225].

([223]) الكتاب ج4 ص433.

[224]) يوسف الخليفة أبو بكر: أصوات القرآن – ط1 مكتبة الفكر الإسلامي، الخرطوم/1973 ص35.

[225]) البيان والتبين ج1 ص35.

واللام من حروف الذلاقة كما أشير سابقاً، ومخرجها من طرف اللسان فالألثغ الذي يقلب اللام ياء، يكون نطق الياء أسهل عنده من نطق اللام، وذلـك لأنهـا مـن الحروف اللينة، ومخرجها يتسع لهواء الـصوت أشـد مـن اتـساعه لأي صـوت غيرها[226].

وهي كما ذكر الجاحظ من الحروف كثيرة الدوران في الكلام. أما الألثغ الذي يقلب اللام كافاً فالإشتراكهما في صفة الشدة، فالكاف من الحروف الـشديدة والـلام حرف منحرف وهو شديد جرى فيه الصوت لانحراف اللسان مـع الـصوت، ولـم يعترض على الصوت كاعتراض الحروف الشديدة الباقية، وإن شـئت مـددت فيـه الصوت وهو ليس كالحروف الرخوة لأن طرف اللسان لا يتجـافى عـن موضـعه، وليس يخرج الصوت من موضع اللام ولكن من نـاحيتي مـستدق الـسان فويـق ذلك[227].

لثغة الراء:

اللثغة التي تقع في الراء عددها يضعف على عدد لثغة اللام لأن الذي يعرض لها أربعة أحرف:

فمنهم من يجعل الراء ياء فيقول في "عمرو": "عمي": ومنهم من يجعلها غينـاً فيقول في "عمرو" "عمغ"، ومنهم من جعلها ذالاً فقال عمذ في عمرو، ومنهم من جعل الراء ظاء: فيقول: "مظة" في "مرة"([228]).

من ذلك يتضح أن لثغة الراء في الياء والغين والذال والظاء، وقد تقدم الحديث عن أن الراء من الحروف كثيرة الدوران في الكلام وهي من حروف الذلاقة. وهـي عند سيبويه حرف شديد مكرر يجري فيه الصوت لتكريره وانحرافه إلى اللام ولو لم يكرر لم يجر الصوت فيه"([229]) وصوت الراء من الأصوات الموجودة في كل لهجة،

---

226) الكتاب ج3 ص434.
227) نفسه ج4 ص245.
228) البيان والتبيين ج1 ص55.
229) الكتاب ج4 ص435.

وهو من بين الأصوات التي تنطق نطقاً يعتقد أنه صحيح فصيح في جميع اللهجات[230] حيث لم يتأثر بالعادات اللغوية الرديئة مثل التي تقلب الثاء سيناً والذال زاياً.

ومع انتشار صوت الراء في كل لهجة إلا أنه قد أصابه اللثغ، واللثغ عيب خلقي غير إرادي.

هذا وقد ابتدأ الجاحظ حديثه عن اللثغة بلثغة الراء التي كانت تعرض لواصل بن عطاء[231] قال الجاحظ: "ولما علم واصل بن عطاء أنه ألثغ فاحش اللثغ وأن مخرج ذلك منه شنيع وأنه إذ كان داعية مقالة ورئيس نحلة، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل، وأنه لابد له من مقارعة الأبطال، ولابد من الخطب الطوال. وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة وإلى ترتيب ورياضة وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق وتكميل الحروف وإقامة الوزن[232]. أشار الجاحظ في حديثه هذا إلى تمام الآلة وهي آلة النطق، أي أن سلامة أعضاء النطق هي ما يحتاجه الخطيب، وكذلك أشار إلى أهمية تكميل الحروف وسهولة المخرج. وقد تفادى واصل هذه اللثغة التي تعوق منطقه وذلك باستبدال كل كلمة فيها "راء" بأخرى من معناها خالية من الراء وذلك لما كان يملكه من اللسان المتمكن والقوة المتصرفة.

قال الجاحظ: "فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ويناضله ويتأتى لستره والراحة من هجنته حتى انتظم له ما حاول واتسق له ما أمل"[233]

ومن هذا يتضح أنه بإمكان الألثغ التخلص من لثغته باستعمال المرادفات في المعنى للكلمة التي تصعب عليه بعض حروفها، مثل تعامل واصل بن عطاء مع صوت الراء، مع كون الراء من حروف الذلاقة التي لا توجد كلمة خماسية من كلام العرب إلا وفيها من هذه الحروف وقد تجنبها واصل مطلقاً في كلامه حتى قال

---

230) أصوات القرآن ص30.

231) من شيوخ المعتزلة، ألثغ ومع ذلك فصيحاً لسناً، انظر: الفهرست ص202.

232) البيان والتبيين ج1 ص32/31.

233) السابق ج1 ص33.

الجاحظ: "لولا استفاضة هذا الخبر وظهور هذه الحال حتى صار لغرابته مثلاً، ولطرافته معلماً، لما استجزنا الإقرار به والتأكيد له"[234].

وقد أورد الجاحظ شعراً لأبي الطروق الضبي[235] في واصل بن عطاء قال:

عليم بإبدال الحروف وقامع   لكل خطيب يغلب الحق باطله

وقد قال هذا البيت في واصل عندما قال حين هجاه بشار:

"أما لهذا الملحد المشنف المكني بأبي معاذ من يقتله، أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لبعثت إليه من يبعج بطنه على مضجعه ويقتله في جوف منزلة وفي يوم حفله، ثم كان لا يتولى ذلك منه عقيلي أو سدوسي"[236]

قال الجاحظ: قال أبو حفص عمر بن أبي عثمان الشمري[237]

" ألا تريان كيف تجنب الراء في كلامه هذا، وانتما للذي تريان من سلامته وقلة ظهور التكلف فيه لا تظنان به التكلف مع امتناعه من حرف كثير الدوران في الكلام، ألا تريان أنه حين لم يستطع أن يقول بشار، وابن برد والمرعث جعل المشنف بدلاً من المرعث، والملحد بدلاً من الكافر، وقال: "لولا أن القيلة سجية من سجايا الغالية ولم يذكر المنصورية، ولا المغيرية- وهي من فرق الشيعة أيضا. لمكان الراء، وقال: لبعثت إليه من يبيح بطنه، ولم يقل: لأرسلت إليه، وقال: على مضجعه، ولم يقل: على فراشه.

وكان إذا أراد أن يذكر البر قال: القمح أو الحنطة، والحنطة لغة كوفية، والقمح لغة شامية، وهو يعلم أن لغة من قال بر أفصح من لغة من قال قمح أو حنطة".

قال : قطرب أنشدني ضرار بن عمرو قول الشاعر في واصل بن عطا[238].

ويجعل البر قمحاً في تصرفه   وجانب الراء حتى احتال للشعر

ولم يطق مطراً والقول يعجله   فعاذ بالغيث اشفاقا من المطر

---

234) البيان والتبيين ج1 ص15.

235)أبو الطروق الضبي هو القائل:

ألزم مقال الشعر تحظى بقربه   وعن النبوة لا أبالك فانتزح

236) البيان والتبيين ج1 ص35.

237) السابق ج1 ص16-17.

238) السابق ج ص21.

قال: وسألت عثمان البري: كيف كان واصل يصنع في العدد، وكيف كان يصنع بعشرة وعشرين وأربعين؟ وبالقمر والبدر، ويوم الأربعاء"

فقال: مالي فيه قول إلا ما قال صفوان الأنصاري(239)

ملقن ملهم فيما يحاوله جم خواطره جواب آفاق

وقد مدحه بشار بقوله(240)

أبا حذيفة قد أوتيت معجبة في خطبة بدهت من غير تقدير

وإن قولاً يروق الخالدين معاً لمسكت مخرس عن كل تحبير

وهي مع ذلك أطول من خطبهم. وقال أيضاً:-

تكلفوا القول والأقوام قد حفلوا وحبروا خطباً ناهيك من خطب

فقام مرتجلاً تغلي بداهته كمرجل القين لما حف باللهب

وجانب الراء لم يشعر بها أحد قبل التصفح والأغراق في الخطب

وقال في كلمة له يعني تلك الخطبة:

فهذا بديه لا كتحبير قائل إذا ما أراد القول زوره شهراً.

ومع هذا الحديث المستفيض عن لثغة واصل بن عطاء إلا أن الجاحظ لم يذكر بماذا كان واصل يستبدل الراء بل قال في ذلك: "وأما اللثغة التي كانت تعرض لواصل بن عطاء فليس إلى تصويرها سبيل وكذلك اللثغة التي تعرض في السين فتلك ايضاً ليس لها صورة في الخط ترى بالعين، وإنما يصورها اللسان وتتأدى إلى السمع(241)"

أما لثغة الراء التي يصورها الخط فتكون في الياء والغين والذال والظاء.

فمن كانت لثغته بالياء يقول في "عمرو": "عمي" وإذا أنشد قول عمر بن أبي ربيعة:

واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

---

239) البيان والتبيين ج1 ص41.

240) السابق ج1 ص24.

241) السابق ج1 ص36.

يقول: "واستبدت مية واحدة" ويقول الجاحظ: "واللثغة في الراء إذا كانت بالياء فهي احقرهن وأوضعهن لذي المروءة ثم التي على الظاء ثم التي على اذال"[242]

وقد تجتمع في الواحد لثغتان في حرفين، كنحو لثغة شوشي صاحب عبـد الله بن خالد الأموي فإنه كان يجعل اللام ياء والراء ياء. قال مرة "موياي ويي أيي" يريد مولاي ولي الري[243].

أما من كانت لثغته في الغين يقول "عمغ" في "عمرو" ويقول "واستبدت مغـة" في "مرة". ويرى الجاحظ أن اللثغة التي على الغين هي أيسر اللثغات قال:

"يقال إن صاحبها لو جهد نفسه جهده، وأحد لسانه وتكلف مخرج الراء علـى حقها والإفصاح بها لم يك بعيداً من أن تجيبه الطبيعة)[244]. وقال: "وقد كانت لثغـة محمد بن شبيب المتكلم، بالغين وكان إذا شاء أن يقول عمرو، ولعمري، ومـا أشـبه ذلك على الصحة قاله، ولكنه كان يستثقل التكلف والتهيؤ لذلك، فقلت له: إذا لم يكـن المانع إلا هذا العذر فلست أشك أنك لو احتملت هذا التكلف والتتبع شهراً واحـداً أن لسانك كان يستقيم" .

وقال كذلك: "وهي أقلها قبحاً وأوجدها في ذوي الشرف وكبار الناس وبلغائهم وعلمائهم[245]".

وربما كان السبب في سهولة التخلص من هذه اللثغة هو بعد مخرج العين عن مخرج الراء، إذ أن الغين من الحروف الحلقية وهي من أدنى حروف الحلق مخرجـاً من الفم، والراء من الحروف الذلقية كما سبقت الإشارة لها. ومن كانت لثغته بالـذال فتجده يجعل الراء ذالاً فيقول "واستبدت مذة واحدة" في "مرة واحـدة"، ومـنهم مـن يجعل الراء ظاء معجمة فيقول "مظة" في "مرة"، فإذا نظرنا إلى علاقة الـراء بهـذه الحروف التي تستبدل بهن وهي الياء والذال والظاء، فتجـد أن الـراء واليـاء مـن الحروف كثيرة الدوران في الكلام وكلاهما من الحروف المجهورة لكن اليـاء مـن

---

[242]) البيان والتبين ج1 ص56.
[243]) السابق ج1 ص36.
[244]) السابق ج1 ص 36.
[245]) السابق ج1 ص 36.

الحروف الهوائية ومخرجها من وسط اللسان بينه وبين الحنك الأعلى. أما من يقلب الراء ذالاً فمخرج الذال من بين طرف اللسان وأطراف الثنايا[(246)] ومخرجها هو نفس مخرج الظاء وصفتها في الجهر مثلها. لذلك نجد الألثغ في الراء ينطق بدلها ذالاً، وليس الذي يستبدل الراء بالذال هو نفسه الذي يستبدل بالظاء وإنما الذي لم يتهيأ له نطق الذال يقلبه ظاءً. وبالرغم من أن الذال والظاء من الأصوات المفقودة في كثير من اللهجات السودانية إلا أنها تتهيأ للألثغ.

ذكر الجاحظ لثغات أخرى منها لثغة الشين وذلك بقوله: "فأما التي هي على الشين المعجمة فذلك شيء لا يصوره الخط لأنه ليس من الحروف المعروفة، وإنما هو مخرج من المخارج والمخارج لا تحصى ولا يوقف عليها"[(247)].

كذلك ذكر الجاحظ لثغة في الضاد والصاد لكنه لم يصور لنا كيفيتها وذلك بقوله:"فأما من تعتريه اللثغة في الضاد وربما اعتراه أيضاً في الصاد والراء حتى إذا أراد أن يقول"مضر" قال"مضى" فهذا واشباهه لاحقون بشوشي"[(248)] أي أن شوشي لديه لثغتين وهو في هذه الأمثلة لم يصور لثغتي الضاد والراء، بل ذكر أن الألثغ بالضاد والراء يقول في "مضر" "مضي". وأغلب الظن أن الضاد تقلب عند الألثغ "دالاً" لقرب المخرج فيقول في "مضر" "مدر" وإذا كانت لديه لثغتان يقول "مدى".

بعد أن عدد الجاحظ الحروف التي يعتريها اللثغ، تجده لم يدع أنه على علم بجميع حروف اللثغة بل قال "ما يحضرني منها".

الفأفأة:

الفأفاء هو الذي يردد حرف الفاء في كلامه وقد ذكر الجاحظ بيت أبي الزحف بن عطاء بن الخطفي الذي يقول فيه:

لست بفأفاء ولا تمتام   ولا كثير الهُجر[(249)] في الكلام

---

[246]) الكتاب ج4 ص433.
[247]) البيان والتبيين ج1 ص35.
[248]) السابق ج1 ص36.
[249]) الهَجر: الكلام الفاحش.

وذكر كذلك قول أبي عبيدة: إذا أدخل الرجل بعض كلامه في بعض فهو ألف وقيل بلسانه لفف. وأنشد لأبي الزحف:

كأن فيه لففاً إذا نطق من طول تحبيس وهم وأرق

أي كأنه لما جلس وحده ولم يكن له من يكلمة وطال عليه ذلك أصابه لفف في لسانه[250].

وذكر الجاحظ أن يزيد بن جابر قاضي الأزارقة يقال له الصموت، لأنه لما طال صمته ثقل عليه الكلام، فكان لسانه يلتوي، ولا يكاد يبين. وقال الجاحظ: أخبرني محمد بن الجهم أن مثل هذا اعتراه أيام محاربه الزُط من طول التفكير ولزوم الصمت[251]" وقال ابن قتيبة[252] في تعريفها: "الفأفأة: أن يتردد المتكلم في الفاء" غير أن المبرَد[253] قد عرفها بأنها: "اعتقال اللسان عن التمرين"

الحبسة:

وهي توقف اللسان عن الانطلاق في الكلام، وعندما أمر سيدنا موسى بإبلاغ رسالته ذكر العقدة التي كانت في لسانه والحبسة التي كانت في بيانه: "وأحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي"[254]

ومما جاء في القرآن الكريم من قول فرعون في حبسة موسى عليه السلام ما يلي: "أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين"[255]

وقال موسى عليه السلام: "وأخي هرون هو أفصح مني لساناً فارسله معي ردءاً يصدقني[256]". وقال "ويضيق صدري ولا ينطلق لساني[257]".

---

[250]) البيان والتبيين ج1 ص58.
[251]) نفسه ص59.
[252]) أدب الكاتب ص146.
[253]) الكامل
[254]) سورة طه آية 27.
[255]) سورة الزخرف آية 52.
[256]) القصص آية 34.
[257]) الشعراء آية 13.

وقد استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام حين سأله حل العقدة والحبسة التي في بيانه في قوله تعالى: "رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري. وأحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي. واجعل لي وزيراً من أهلي، هرون أخي. اشدد به أزري. واشركه في أمري[258]".

قال الجاحظ: فاستجاب الله لدعائه جميعه في قوله تعالى "قد أوتيت سؤلك يا موسى[259]" فلم تقع الاستجابة على شيء دون شيء وهذا يدل على أن الله تعالى أطلق الحبس والتعقيد الذي في لسان موسى عليه السلام.

ومما جاء في تفسير هذه الآيات يشير إلى أن سيدنا موسى عليه السلام كانت بلسانه رُته:

فقد أورد القرطبي في تفسير قوله تعالى: "رب اشرح لي صدري" إن موسى طلب الإعانة لتبليغ الرسالة ومعنى "رب اشرح لي صدري" أي وسعه ونوره بالإيمان والنبوة. "ويسر لي أمري أي سهل ما أمرتني من تبليغ الرسالة إلى فرعون. "وأحلل عقدة من لسان، يعني العجمة التي كانت في فيه من جمرة النار التي أطفأها في فيه وهو طفل. وقد أورد القرطبي قول ابن عباس، أنه كانت في لسانه رُتة"، وذلك أنه كان في حجر فرعون وهو طفل، فلطمه، وأخذ بلحيته، فعندما أراد فرعون أن يؤذيه دافعت عنه زوجه آسيا، بحجة أنه صغير، لا يفرق بين الأشياء، ثم أتت بطستين جعلت في أحدهما جمراً وفي الآخر جوهراً، فرفع موسى الجمر ووضعها في فيه، فكانت تلك الرته، ثم اختلف هل زالت تلك الرُته، فقيل زالت بدليل قوله تعالى "قد أوتيت سؤلك يا موسى" وقيل لم تزل كلها بدليل قوله تعالى حكاية عن فرعون "ولا يكاد يبين" وقيل إن تلك العقدة حدثت بلسانه عند مناجاة ربه حتى لا يكلم غيره إلا بأذنه[260]".

أما في تفسير ابن كثير فقد ورد ما يلي:

---

[258]) طه آية 25-32.
[259]) طه آية 36.
[260]) القرطبي: أبو عبد الله محمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن. ط/دار التراث العربي بيروت 1985 ج1 ص1928.

قوله تعالى: "رب اشرح لي صدري، قال هذا سؤال من موسى عليه الـسلام لربه عز وجل أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد بعثه إلى أعظم ملـك علـى وجه الأرض، وأجبرهم وأشدهم كفراً. "وأحلل عقدة من لساني" وذلك لما أصابه مـن اللثغ حين عرض عليه التمر والجمر فأخذ الجمرة ووضعها على لسانه[261].

أما الجاحظ([262]) فقد قال:"وزعم ناس من العوام أن موسى عليه السلام كان ألثغ، ولم يقفوا من الحروف التي كانت تعرض له في شيء بعينه وليس يدل القرآن على شيء دون شيء في قوله: "وأحلل عقدة من لساني"، فاستجاب الله لدعائه جميعه في قولـه تعالى "قد أوتيت سؤلك يا موسى".

الرُته:

هي عجلة في الكلام، وقلة أناة([263])، غير أن بعض أصحاب المعـاجم يحـدد دلالتها بشكل أكثر وضوحاً عندما يجعلها عيباً لسانياً. قال ابن منظور: وقيل: هـو أن يقلب – المتكلم- اللام ياءً، وقد رتّ يرت، وهو أرتّ.

قال أبو عمرو: الرتة: ردة قبيحة في اللسان من العيب، وقيل: هي العجمة في الكلام: والحكلة فيه.

ويدل على ذلك ما نقله الثعالبي فيها: أنها حبسة في لسان الرجل وعجلة فـي كلامه[264].

ولما كانت الرتة عيباً لسانياً قبيحاً، يجمع المصاب بها بين العقدة في اللـسان والحبسة فيه، من جهة، والعجلة في الكلام فلا يطاوعه لسانه من جهة ثانية، فهي إذاً أن- عيب مركب، يسئ إلى صاحبه، ولذا ورد في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم، رأى رجلاً أرت يوم الناس فأخره[265].

---

[261]) انظر: تفسير ابن كثير ج3 ص146.
[262])البيان والتبيين ج1 ص57.
[263]) د. رشيد عبد الرحمن. مجلة المجمع العلمي العرقي مجلد 36 بغداد 1985 ص257.
[264]) فقه اللغة 561.
[265]) رشيد العبيدي. مجلة مجمع اللغة العراقي مجلد 16 ص258.

كذلك قال الدكتور رشيد العبيدي: "لقد أفاض اللغويون في ذكر هـذا العيـب، ومنهم الجاحظ، فذكروا جملة من أصيبوا به. قال: ويمكن تحديد الخلاف في تفـسير الرتة بالنقاط الآتية:

1- إنها عقدة في اللسان، أو حبسة.
2- هي عجلة في الكلام، وقلة أناة فيه.
3- هي ردة قبيحة في اللسان.
4- هي قلب اللام ياء، فإذا أراد أن يقول "قلباً" قالها " قيباً"
5- وهي عند ابن الأعرابي: "الرترتة" من الفعل، وهي تتعتـع المـتكلم بالتـاء، وغيرها من الحروف.
6- وهي عند الأزهري، كالرتج، تمنع من الكلام أوله، فإذا جاء منه شيء أتصل به، ووصفها بأنها تكثر في الأشراف وتوصف المرأة بها، فيقال: الرتي[266].

وحاصل ما تجمع من صفات هذا العيب، يدل على أن الرتة تتكون من مجموعـة انحرافات في الجهاز النطقي، يتعلق بعضها بسرعة اللسان - حيناً- وبتـأخره – حينا آخر- وبحبسة أو عقدة فيه – من جانب ثالث[267].

ولقد وصفت العرب بعض رجالها بالأرت، وسمت به، ومـنهم "الأرت" والـد "خباب" الصحابي –رضي الله عنه-. ونقل الجاحظ أن داؤود بن جعفر، كـان إذا خطب، استمر فلم يرده شيء، وكان في لسانه شبيه بالرته[268].

العجمة: وهي فقدان القدرة على الإفصاح والبيان، ويوصف المـرء بالعجمـة فيقال: فلان أعجم، والأنثى عجماء، والجمع عُجم قال الزنجاني: والرجل أعجـم، وهو الذي لا يفصح، ولا يتبين كلامه وإن كان من العرب[269].

---

[266]) التهذيب. وكذا المبرد في الكامل 576/1.
([267]) مجلة مجمع اللغة العراقي مجلد 16 ص258.
([268]) البيان والتبيين، ج1، ص 74.
([269]) البيان والتبين ،ج1، ص 75.

وينسب إلى الأعجم، فيقال أعجمي، قال تعالى: "لسان الـذي يلحـدون إليـه أعجمي وهذا لسان عربي مبين"[270] فميز بين البيان والوضوح في اللسان، وبين الغموض وعدم الإفصاح.

أما النسبة إلى العجم، غير العرب، فيقال عجمي، ولا علاقـة لهـذه النـسبة بفصاحة اللسان أو عدمها.

اللكنة:

وهي عجمة في اللسان. يقال: رجل ألكن، وامرأة لكناء ويوصف باللكنة كـل من لا يقيم العربية من عجمة أو ضعف أو جهل بها، أما العجمة فتعترض لـسانه إذا ما أراد التحدث فيقال في لسانه لكنة رومية أو حبشية أو سندية، وقد تكون من تأثير لغات العجم في اللسان العربي.

وهي كما قال الجاحظ: "أن يدخل المتحدث بعض حروف العجم في حـروف العرب وتجذب لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول[271].

العقلة:

يقال في لسانه عقلة إذا تعقل عليه الكلام، أي احتبس كلامه، وتقـول اعتقـل الرجل إذا حبس. وعقله عن حاجته حبسه، واعتقل لسانه إذا لم يقدر على الكلام، يقال مرض فلان، فاعتقل لسانه إذا لم يقدر على الكلام[272].

واعتقل لسان فلان فما يبين كلمة وما يفيض كلمة[273].

قال المبرد: العقلة حبسة في اللسان، تعقله عن الترسل في الحديث، وهي التواء اللسان عند إرادة الكلام.[274]

([270]) سورة النحل الآية "103"

[271]) البيان ج1 ص60.

[272]) لسان العرب مادة "عقل" ص458.

[273]) التبريزي: الخطيب – فخر الدين قباوة، تهذيب إصلاح المنطق ط1. بيروت 1983 ص873.

[274]) الكامل ج2 ص578.

الحكلة:

ومن العيوب التي عددها الجاحظ في بيانه "الحكلة" ويعني بهـا نقـصان آلـة المنطق، وعجز أداة اللفظ حتى لا تعرف معانيه إلا بالاستدلال(275). وأورد فـي ذلك قول رؤبة:

لو أنني أعطيت علم الحكل

علم سليمان كلام النمـ ـل

والحكل من الحيوان ما لايسمع له صوت كالذر والنمل، وكلام الحكل، كلام لا يفهم، وأورد الجاحظ قول التيمي في هجائه بني تغلب(276)

ولكن حكلاً لا تبين دينها   عبادة أعلاج عليها البرانس

وذكر الثعالبي بقوله(277): وهي كالحبسة، وسببها عقدة في اللسان. تؤدي إلـى تأخر اللسان عن أداء دوره اللغوي بشكل مترسل، فلا يفصح عن الكلام.

اللفف:

يقول الجاحظ(278): "وليس اللجلاج والتمتام والألثـغ والفأفـاء... وذو اللفـف والعجلة...". فيذكر ذا "اللفف" من بين المصابين بعيوب اللـسان، ويعنـي بـذي اللفف: الشخص الذي يكون في لسانه ثقل وعي، وضعف وبطء إذا تكلم(279).

قال: قال أبو عبيدة: إذا أدخل الرجل بعض كلامه في بعض فهو ألف، وقيـل بلسانه لفف. وأنشد لأبي الزحف:

كأن فيه لففاً إذا نطق   من طول تحبيس وهم وأرق

أي كأنه لما جلس وحده ولم يكن له من يكلمه وطال عليه ذلك أصابه لفـف فـي لسانه(280).

---

275) البيان والتبيين ج1 ص60.
276) نفسه ص60.
277) فقه اللغة 171/1.
278) البيان والتبيين ج1 ص13.
279) المبرد / الكامل 578/2.
280) البيان ص58.

ويقول ابن قتيبة[281] "إذا أدخل بعض كلامه في بعض، قيـل: بلـسانه لفـف" ويبدو من كلامه أن اللفف سرعة وعجلة في الكلام لا بطء وثقل. ومما يؤيد هـذا المعنى أن "الجاحظ أورد الصفتين "اللفف والعجلة" مقترنتين في وضع واحد، غير أن الأصمعي يقول في اللفف: هو الثقل في اللسان.

الجلع:

وهو ابتعاد الشفتين عن الأسنان، بحيث تترك أثراً واضحاً عند إخراج بعـض الأصوات الأسنانية والشفوية قال ابن قتيبة" الأجلع هو الذي لا تنضم شفتاه علـى أسنانه[282]" وقد أشار الجاحظ إلى ذلك، كما تقدم "بالتشمير والقصر.

الخنة والخنخنه"

وهي من الغنة، وتكون فوق الغنة ولكنها أعلى منها وأشـد. يقـول المبـرد: "والغنة: أن يشرب الحرف صوت الخيشوم والخنة أشد منها[283]"

وذكر اللغويون عيوباً أخرى كثيرة غير تلك التي ذكرها الجاحظ وذلك مثل:

التأتأة: التي هي التردد في التاء عند الكلام.

التبكل: وهو الاختلاط في الكلام، ويوصف الرجل به، فيقال المتبكل[284].

كذلك ذكروا التعتعة وتطلق على كل كلام فيه تردد ولثغة وكذلك التلعـثم، وهـو تباطؤ في اللسان يحدث من مرض في الجهاز النطقي، أو من اضطراب طـارئ فيؤدي إلى تعثر اللسان في إخراج الكلام. الهتهتة، وتكون بسبب التواء يقـع فـي اللسان، ويوصف به العي الألكن، ويميل المصاب بهذا العيب إلى إخراج صـوت الهاء، مع جريان النفس بشكل سريع مصاحباً الكلمـات المنطوقـة[285]. وكـذلك ذكروا الزلق والزمزمة والرتج والرطانة والعقدة والفهاهة[286].

---

281) أدب الكاتب 146.
282) نفسه والصفحة.
283) الكامل 579/2.
284) الجراثيم: عبد الله بن مسلم. مطبوع مع فقه اللغة للثعالبي ص348.
285) مجلة مجمع اللغة العراقي مجلد 16 ص253.
286) انظر في ذلك: مقال د. رشيد العبيدي. بمجلة مجمع اللغة العراقي.

ذكر الجاحظ عيوباً أخرى مثل التشديق والتقعير والتقعيب...الخ. يكون الحديث عنها في الفصل الخاص بالبيان وعيوبه.

المبحث الأول

الألفاظ العربية

من المعلوم أن الجاحظ من الذين تلقفوا اللغة شفاهة من الأعراب، فقـد كـان يذهب إلى مربد البصرة فيلتقي بالأعراب الواردين عليه ويتلقف الفصاحة منهم.

والمربد هذا مكان بظاهر البصرة تفد إليه الأعراب من بواديهم للاتجار بالإبل والماشية، وتبادل السلع، كما يلتقي فيه الخطباء والشعراء والرواة والنسابون والرجاز، وأرباب البلاغة من مختلف القبائل ومتباعد الأحياء، فيعرضـون منتجـات أذهـانهم وثمرات قرائحهم من صنوف البيان وألوان التفكير على أسماع النقاد، وجهابذة الكلام فكان هذا المربد في الإسلام أشبه بسوق عكاظ وغيره من أسواق الجاهلية.

فبثَ الجاحظ هذا العلم الغزير في تصانيفه المختلفة التي حـوت العديـد مـن الفنون. وكان في تآليفه تلك يشرح معاني كثير من الكلمات التي استعملها، لكنـه لـم يخصص معجماً خاصاً لشرح المفردات كما فعل العلماء من قبله أمثال الخليـل بـن أحمد الفراهيدي الذي ألف "كتاب العين". لكنه يشرح بعض المعاني من خلال حديثـه في مؤلفاته، تجده يقول مثلاً:

قال نافع بن خليفة الغنوي:

وخصم لدى باب الأمير كأنهم قرومٍ فشافيها الزوائر والهَدر

يقول: الزوائر: الذين يزأرون، والهدر: صوت الجمـال عنـد هيجهـا، ويقـال لـه الهدير[287].

وأمثال ذلك كثير تجدها في هذا الفصل، فهو لم يدع كلمة يحسب أنها تعـوق فهم ما قصده إلا وبينها بالشرح، وهذا هو ديدنه في جميع مؤلفاته ولكثرة ما ذكره فقد

([287]) البيان والتبيين ج1، ص176.

وقع الاختيار على عرض ما ورد في الجزء الأول لكتاب البيان والتبيين من ألفاظ اللغة العربية، اختياراً عشوائياً بالترتيب الألفبائي أما الألفاظ الفارسية فقد كان اختيارها من كتاب الحيوان. وذلك لأنه عايش الثقافة الفارسية آنذاك، وتعامل ببعض ألفاظها. وقد كان مجيداً لها، لأنه وبسعة إطلاعه قد قرأ كتب الأوائل من فلاسفة اليونان وحكماء الهند وعلماء الفرس وأدباء الرومان، وتجد ذلك واضحاً من خلال تعريفه للبلاغة في الجزء الأول من كتاب البيان والتبيين يقول: هي عند الهندي كذا، وعند الرومي كذا، وعند اليوناني كذا.

ومن أقرب الشواهد على إجادته اللغة الفارسية قوله: "واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منها الضيم على صاحبتها إلا ما ذكروا من لسان موسى بن سيار الأسواري، وكان من أعاجيب الدنيا كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية وكان يجلس في مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله، ويفسرها للعرب بالعربية، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها بالفارسية، فلا يدري بأي لسان هو أبين[288]."

مقارنة بعض معاني الكلمات عند الجاحظ بما ورد في معاجم اللغة:

إبط الشمال:

وردت هذه الكلمة فيما أنشده الجاحظ لأوس بن حجر، قال:

وخَصمٍ غِضَابٍ ينغضون رؤوسهم ... أولى قَدمٍ في الشغب صُهب سِبَالُها

ضربتُ لهم إبطَ الشّمال فأصبحتْ ... يُرد غواةً آخرين نكالها

قال[289]: إبط الشمال، يعني الفؤاد، لأنه لا يكون إلا في تلك الناحية غير أنه لم يرد في معاجم اللغة تفسير لهذه الكلمة بالمعنى الذي ذكره، إلا أن يكون من باب المجاز،

(288) البيان والتبيين ج1، ص368.
(289) البيان والتبيين ج1 ص181.

وتكون العلاقة فيه المجاورة. لأن الإبط في اللغة[290] هو باطن المنكب والتأبط هو أن يدخل الثوب من تحت يده اليمنى فيلقيه على منكبه الأيسر.

والتأبط: الأضطباع، وهو ضرب من اللبسة، وهو أن يدخل الثوب من تحـت يده اليمنى فيلقيه على منكبه الأيسر، ويروى عن أبي هريرة أنه كانت رديته التـأبط، ويقال جعلت السيف إباطي أي يلي إبطي[291].

الإتاء:

قال الجاحظ: "دعا أعرابي فقال: "اللهم إني أسألك البقاء والنماء وطيب الإتاء، وحـط الأعداء، ورفع الأولياء[292]" قال: الأتاء الرزق. وجاء في القاموس ما يلي[293]:

أتت النخلة والشجرة أتو وإتاءً "بالكسر" طلع ثمرها، ورجلٌ ميتاء معطاء.

أرب:

يقال رجلٌ أريب أورب، وله إرب إذا كان عاقلاً حازماً ذكرها الجاحظ[294] في أبيات لآدم مولى بلعنبر يقولها في ابنه:

أنت الحبيب وكـ ـذا قول المحب جنبك الله معـ ـاريض الوصب
حتى تفيد وتـ ـداوى ذا الجـ ـرب وذا الجنون من سعـ ـال وكلب
الحُدب حتى يستقيـ ـم ذو الحدب وتحمل الشاعر في اليوم العصب
على مباهير كثيـ ـرات التعـ ـب وإن أراد جدلٌ صـ ـ ـعب إرب
حتى ترى الأبصار أمثال الشهب يرمي بـ ـها أشوسُ ملحاح كلـ ـب

وقد وردت كلمة "الأرب" في القاموس بالكسر بمعنى الدهاء كالإربة "ويـضُم"، وكذلك بمعنى: النُكر والخبث والعضو والعقل والدين والحاجة[295].

([290]) الفيروزبادي –مجد الدين- القاموس المحيط ط3 المطبعة المصرية 1933م، ج1 ، ص362.
([291]) لسان العرب مادة أبط ، ص 254.
([292]) البيان والتبيين ، ج1 ، ص299.
([293]) القاموس المحيط ، ج4 ، ص298.
([294]) البيان والتبيين ج1، ص 181-182.
([295]) القاموس: ج1 ، ص36 ، فصل الهمزة باب الياء.

ولكي يتضح معنى الأبيات لابد من ذكـر تفـسير الجـاحظ لبقيـة الكلمـات قال:الوصب: المرض، والعصيب: الشديد، ، يقال يوم عصب وعصيب وعصيصب إذا كان شديداً. مباهير، متاعيب قد علاهم البهر[296]. أظلعته، يقال ظلع الرجـل إذا خَمع في مشيه.

الرتبة: واحدة الرتب ، والرتبات، وهي الدرَج- أي تخرجه مـن شـئ إلـى شـئ.

والأشوس: الذي ينظر بمؤخر عينه ملحاح – مُلح من الإلحاح على الشئ- كِلِب: أي الذي قد كُلِب.

وجاء في اللسان: الأربُ والأربةُ: الدهاء والبصير بالأمور، وهو مـن العقـل: أَرُبَ أرابةً، فهو أريب من قومٍ أُرَباء[297].

أسو:

قال شتيم:-

وقلت لسيـدنا ياحليـ ... م أنك تأس أسواً رفيقـاً

أعنت عديا على شأوها ... تعادي فريقاً وتبقى فريقا

زحرت بهـا ليلة كلها ... فجئت بها مؤيداً خنفقيقا

قال الجاحظ[298]: الآسى: الطبيب: تأسو: تداوى أسواً واسىً مصدران.

وجاء في اللسان بذات المعنى. قال ابن منظور:

أسى: مفتوح مقصور. المداواة والعلاج، وهو الحزن أيضا، وأسا الجرح أسواً وأسى: داواه، والأسو والإساء جميعاً الدواء، والجمع آسية، قال الحطيئة في الأسـاء بمعنـى الدواء.

هُمُ الآسون أم الرأس لما

تواكلها الأطبةُ الإسـاء

---

(296) البيان والتبيين، ج1 ، ص 35.

(297) لسان العرب مادة أرب، ص208.

(298) البيان ، ج1 ، ص181.

والإساء، ممدود مكسور: الدواء بعينه، وإن شئت كان جميعا للآسي، وهو المعالج كما تقول راع ورعاء. قال ابن بري قال على بن حمزة: الأساء في بيت الحطيئة لا يكون إلا الدواء لا غير وجاء فلان يلتمس لجراحه أسواً يعني دواء يأسو به جرحه والأسوُ: المصدر.

والأسُو: على فعول دواء تأسو به الجرح.

والآسي: الطبيب والجمع أساةٌ وأساء.

أسا بينهم أسواً أصلح. وكان جزء بن الحرث من حكماء العرب، وكان يقال له المؤسى لأنه كان يؤسى بين الناس أي يصلح بينهم[299].

أقط[300]:

قال أبو زبيد الطائي:

وخطيب إذا تمعرت الأو جَه يوماً في مأقط مشهود

قال الجاحظ: المأقط: : الموضع الذي يقتتل فيه، وهو الموضع الضيق

جاء في اللسان: المأقط: المضيقُ في الحرب، وجمعه المآقط والمأقط: الموضع الذي يقتتلون فيه، بكسر القاف.

الآكال:

وردت في أبيات لابنة وثيمة بن عثمان ترثي أباها قالت[301]:

الواهب المالَ التلا دَ ندىً ويكفينا العظيمة

ويكون مِدرَهنا إذا نزلت مجلّحة عظيمة

وأحمر آفاق السما ء ولم تقع في الأرض ديمة

وتعذر الآكال حتى كان أحمدها الهشيمة

---

(299) اللسان مادة أسو: مجلد 14 ، ص35.

(300) اللسان مادة أقط، ص 258.

(301) البيان والتبيين ، ج1، ص 126،

لا ثلةٌ تـ ـرعـى ولا　　إبل ولا بقـ ـ ـ ـر مسيمـ ـة
ألفيته مـ ـأوى الأرا　　مل والمُدفعـ ـ ـة اليتيمـ ـة
والدافع الخصم الألـ　　د إذا تُفُوضح في الخصومة
بلسان لقمان بن عـ ـا　　د وفصل خطبته الحكيمـ ـة
ألجمتهم بعد التـ ـدا　　فع والتجاذب في الحكومـ ـة

حوت هذه الأبيات كلمات عربية عديدة ولكي يتضح المعنى لابـ ـد مـ ـن ذكـ ـر تفسير الجاحظ لهذه الكلمات:

التلاد: القديم من المال. الطارف : المستفاد المِدرَه: لسان القوم المتكلم عنهم. مُجلحة: أي داهية مصممة أحمر أفاق السماء: أي أشتد البرد وقل المطر وكثر القحط. ديمة: واحدة الديم، وهي الأمطار الدائمة.

تعذر: تمنع.

الآكال: جمع أكل وهو ما يؤكل (والمعنى واضح لا يحتاج إلى مقارنة، الهشيمة: مـ ـا تهشم من الشجر، أي وقع وتكسر. الثلة: الضأن الكثيرة.

مسيمة: أي صارت في السوم ودخلت فيه أو السوم: الرعي ومنه قوله تعالى : (ومنه شجر فيه تُسيمون)[302]"

أناة: وردت في قول جميل بن معمر:

نمت في الروابي من معد وأفلجت　　على الخفرات الغُر وهي وليد
أناة على نيرين أضحى لِداتُهـ ـا　　بَلِينَ بلاء الربط وهي جديـ ـد

قال الجاحظ: الأناة: المرأة التي فيها فتور عند قيامها[303].

والأناة: الحلم والوقار والمرأة فيها فتور عند القيام، ورجلٌ آنٍ، كثير الحلـ ـم، وأنِـ ـيَ السمع، فهو أني، تأخر وأبطأ[304].

([302]) سورة النحل ، الآية "16".
([303]) البيان والتبيين، ج1 ، ص 126.
([304]) القاموس ج4، ص 301، فصل الهمزة باب الواو والياء.

الأُنُف: أنشد الأخطل:

شُمُس إذا خطِل الحديث أوانس	يرقبن كـل مجذر تنبال
أنفٌ كـأن حديثهن تنـ ـ ـادم	بالكأس كل عقيلة مِكْسال

قال الجاحظ(305):

الأنف: جمع آنفة، وهي المنكرة للشيء غير راضية.

وفي القاموس:

رجل أُنافِي بالضم عظيم الأنف، وامرأة أُنوف: طيبة رائحتها أو تأنف ممـا لا خير فيه، وروضةٌ أنُف: لم تُرعَ، وكذلك كأس أُنُف: لم تشرب: والأنف أيضاً المشية الحسنة(306).

أيس:

ذكرها الجاحظ في حديثه عن كيفية معرفة المتكلم لأقدار المعـاني وموازنتـه بينها وبين أقدار المستمعين، ومن ضمن ما قاله ما يلي:

"ولأن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء، وأبلغ من كثير من البلغاء، وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، وهم أشتقوا لها من كلام العرب تلـك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم فـصاروا فـي ذلك سلفاً لكل خلف، وقدوة لكل تابع، ولذلك قالوا العرض والجوهر، وأيس وليس.

قال: وخطب آخر في وسط دار الخلافة فقال في خطبته:

"وأخرجه الله من باب الليسية، فأدخله في باب الأيسية" وجاء في اللسان: "أيس وليس" أي من حيث هو وليس هو(307).

الأين:

---

(305) البيان ، ج1، ص280.
(306) القاموس، ج3، فصل الهمزة باب الفاء ، ص119.
(307) اللسان مادة أيس.

جاء ذكره في مدح العماي لهارون الرشيد بقوله:

جهير العطاس شديد النيـ ـاط   جهير الرواءِ جهير النَغم

ويخطو على الأين خَطْو الظليم   ويعلو الرجال بجسم عمم

قال[308]: الأين: الأعياء.

وكذلك جاء معناها في القاموس بمعنى الأعياء وهـي مـصدر أن يئـين أي حان[309]"

حرف الباء:

برث: البراث

قال الجاحظ: "وجماعة من ولد العباس في عصر واحد، لم يكن لهم نظراء في أصالة الرأي وفي الكمال والجلالة، وفي العلم بقريش والدولة وبرجال الـدعوة مـع البيان مع العجيب والغور البعيد، والنفوس الشريفة، والأقدار الرفيعة، وكـانوا فـوق الخطباء، وفوق أصحاب الأخبار ،... منهم:

عبد الملك بن صالح[310]، قال: وسأله الرشيد وسليمان بن أبي جعفر وعيسى بن جعفر شاهدان، فقال له: كيف رأيت أرض كذا وكذا؟ قال: "مسافي ريـح، ومنابـت شيح". قال فأرض كذا وكذا! قال: "هضاب حمر وبراث عفر" قال: حتى أتـى علـى جميع ما أراد. قال فقال عيسى لسليمان: "والله ما ينبغي لنا أن نرضى لأنفسنا بالدون من الكلام".

قال الجاحظ في تفسيره للمعاني التي دارت في هذا الحـديث: البـراث[311]. الأماكن اللينة السهلة واحدها بَرث. وكذلك وردت في لسان العرب: البرث: جبل من رمل، سهل من تراب، والبرث الأرض الـسهلة الليـنـة، والبـرث، أسـهل الأرض

---

(308) البيان ، ج1، ص126،
(309) القاموس المحيط ، ج4، ص2.
(310) هو عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس ت196م.
انظر : فوات الوفيات ، ج2، ص12.
(311) البيان، ج1 ، ص334.

وأحسنها، قال أبو عمرو: سمعت ابن الفقعسي يقول وسألته عـن نجـد، فقـال: إذا جاوزت الرمل فصرت إلى تلك البراث كأنها السنام المشقق(312).

برق: البروق

قال الجاحظ: "وسمعت أعرابياً يصف لسان رجل، فقال: "كان يـشول بلـسانه شولان البروق، ويتخال به تخال الحية" وفسر معنى البروق بقوله: البروق: الناقة إذا طلبت الفحل فإنها حينئذ ترفع ذنبها(313)"

وجاء في اللسان: وناقة بارق تَشذرُ بذنبها من غير لقح –عن ابن الأعرابـي- وأبرقت الناقة بذنبها، وهي مُبرق وبروق شالت به عند اللقاح(314).

برم: البرمة

قال الجاحظ(315): قال أهل مكة لمحمد بن المناذر الشاعر: ليست لكم معاشـر أهل البصرة لغة فصيحة، إنما الفصاحة لنا أهل مكة، فقال ابن المناذر: أمـا ألفاظنـا فأحكى الألفاظ للقرآن وأكثرها له موافقة، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم أنتم تسمعون القدر" برمة" وتجمعون البرمة على "برام" ونحن نقول"قدر ونجمعهـا علـى قدور،، قال الله عز وجل "وجفان" كالجوابي وقدور راسيات.

وفي اللسان: البُرمة: قدر من حجارة، والجمع بُرَم وبرام وبُرم(316).

بطل: البطل:

قال الجاحظ(317): قال أبو عبيدة: يقال للفارس شجاع، فإذا تقدم في ذلك قيـل "بطـل" فإذا تقدم شيئاً قيل بهمَة، فإذا صار إلى الغاية قيل أليس.

وفي اللسان أيضاً: البطل: الشجاع: وقيل سمي بطلاً لأن الأشداء يبطلون عنده، وقيل إنما سمي بطلاً لأنه يبطل العظائم بسيفه فيبهرجها(318).

---

(312) لسان العرب ، مجلد 2، مادة "برث" ص 115.
(313) البيان والتبيين ، ج1، ص169.
(314) لسان العرب، مادة برق ، ص16.
(315) البيان ، ج1، ص 18-19.
(316) لسان العرب، مادة برم، ص56.
(317) البيان، ج1، ص56.
(318) اللسان مادة بطل مجلد 11، ص 56.

بظى: بظيت:

قال الجاحظ: قال أبو الحسن: "كان غلام يقعر في كلامه فأتى أبـا الأسـود الـدولي يلتمس بعض ما عنده، فقال له أبو الأسود، ما فعل أبوك؟ قال: "أخذته الحمى، فطبخته طبخاً، وفنخته فنخاً، وفضخته فضخاً، فتركته فرخاً[319]"

قال أبو الأسود: "فما فعلت امرأته التي كانت تهاره وتُشاره، وتجاره وتـزاره؟ قـال: طلقها فتزوجت غيره، فرضيت وحظيت، وبظيت، قال أبو الأسود: قد عرفنا رضيت وحظيت، فما بظيت؟ قال: حرف من الغريب لم يبلغك، قال أبو الأسود: يا بني كـل كلمة لا يعرفها عمك فاسترها كما تستر الستور جَعرها"

قال الجاحظ:

تزاره: تعاضه. والزر: العض، وحظيت من الحُظوة، وبظيت: اتباع لحظيت[320].

بُكر: البُكْرة:

قال الله عز وجل: (لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا)[321]

يقول الجاحظ: "وليس في الجنـة بكـرة ولا عـشي، ولكـن علـى مقـدار البُكـر والعشيات[322]"

ويقول في موضع آخر –في قول أبي يعقوب الأعور:

وخلجة ظن يسبق الطرف حزمُها تُشيف على غُنْم وتمكن من ذحلِ
صدعت بها والقوم فوضى كأنهم بكارة مرباع تبصبص للفحـ ـل

قال: بكارة مرباع: أي نوق فتايا [قد أذلت للفحل] والمرباع: ربع الغنيمة في الجاهلية لصاحب الجيش.

وقال عنمة:

لك المرباع منها والصفـ ـايا وحكمك والنشيطة والفضـ ـ ـ ـول

---

(319) فنخته: أضعفته، وفضحته: دقّته.
(320) البيان ج1، ص379
(321) سورة مريم – الآية "19"
(322) نفسه ، ص13.

وفي لسان العرب: البكرة: الغدوة، قال سيبويه: من العرب من يقول: "أتيتك بكرة" نكرة منون، وهو يريد في يومه أو غده، وفي التنزيل العزيز:" ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا" والبكرة من الغد، ويجمع بكراً وأبكاراً، وقوله تعالى: (ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر)[323] بكرة وغدوةٌ إذا كانتا نكرتين نونتا وصرفتا، وإذا أرادوا بها بكرة يومك وغداة يومك لم تصرفهما، فبكرة هاهنا نكرة، والبكور والتبكير: الخروج في ذلك الوقت. والإبكار الدخول في ذلك الوقت[324].

بهر: مباهير

وردت كلمة مباهير[325] في أبيات لمولى بلعنبر في ابنه وقد سبق ذكرها.

* على مباهير كثيرات التعب *

لم يفسرها الجاحظ تفسيراً واضحاً بل اكتفى بقوله فيها "علاهم البهر[326]"

و"البهر" في لسان العرب: ما اتسع من الأرض، والبهرة: الأرض السهلة وبهرة كل شيء وسطه "وهذا المعنى لا يتفق مع البيت المذكور" لكن الذي يتفق مع المعنى هو قول ابن منظور: "البهر: انقطاع النفس من الأعياء، وقد انبهر وبهر فهو مبهور وبهير، قال الأعشى:

إذا ما تأتي يريد القيام

تهادى كما قد رأيت البهيرا

والبُهر: بالضم تتابع النفس من الأعياء ، وبالفتح: المصدر يقال: بهُر الرجل إذا عدا حتى غلبه البهر والربو فهو مبهور[327].

---

(323) سورة القمر - الآية "54".

(324) لسان العرب مادة بكر، ص 76.

(325) انظر صفحة 2 من هذا الفصل.

(326) البيان ، ج1، ص182.

(327) لسان العرب مادة بهر ، ص82.

حرف التاء

تأم : التوأمان

قال الجاحظ[328]: قال الألسع بن قصاف الطهوي "يصف قومه"

إذا شئت لم تعدم لدى الباب منهم   جميل المحيا واضحاً غير توأم

قال التوأمان: الأخوان المولودان في بطن.

وفي اللسان: التوأم من جميع الحيوان –المولود مع غيره في بطن من الأثنـين إلى ما زاد ذكراً أو انثى أو ذكراً مع أنثى، وقد أتأمت المرأة إذا ولدت اثنين في بطن واحد.

قال ابن سيدة: يقال: توأم للذكر وتوأمة للأنثى، فإذا جمعوها قالوا هما توأمان وهمـا توأم.

ابن السكيت وغيره يقال هما توأمان، وهذا توأم هذا على فوعل.

وقال الليث: التوأم ولدان معاً، ولا يقال هما توأمان، ولكن يقال هذا توأم هذه، وهذه توأمته، فاذا جمعا فهما توأم، قال أبو منصور أخطأ الليث فيما قال، والقول مـا قال ابن السكيت وهو قول الفراء. والنحويون الذين يوثق بعملهم، قالوا: يقال للواحد توأم وهما توأمان إذا ولدا في بطن واحد[329].

تلد : التالد:

سبق ذكرها في رثاء وثيمة بن عثمان[330] "الواهب المـال الـتلاد" وذكرهـا الجاحظ بأنها تعني القديم من المال.

وفي القاموس: التالد والتليد. بالفتح وبالضم وبالتحريك- والـتلاد والتليـد والإتـلاد والمتلد ما ولد عندك من مالك أو نتج[331].

وفي اللسان: المال القديم الأصلي الذي ولد عندك وهو نقيض الطارف[332].

([328]) البيان ، ج1، ص83.
([329]) لسان العرب مجلد 12، ص61-62، مادة تام.
([330]) انظر ص 5 من هذا الفصل.
([331]) القاموس ج1، ص289.
([332]) اللسان مجلد 4 ، ص99، ماد تلد.

تلو: المتلية

قال الهزلي:

وإن حديثاً منك لو تبذلينـه جنى النحل أو ألبان عُوذ مطافل

مطافيل أبكار حديث نتاجها تشار بماء مثل ماء المفاصـ ـل

وتلو: المتلية

قال الجاحظ: إذا وضعت الناقة تسمى "عائذ" وإذا مشى ولدها تسمى "مُرشِح" فإذا تبعها فهي "مُتْلِيَة" لأنه يتلوها[333].

وفي اللسان: تلا: تلوتُه تُلُوا: تبعته: يقال ما زلت أتلوه حتى أتليته أي تقدمته وصـار خلفي.

وتلو الشيء: الذي يتلوه. وهذا تلو هذا أي تبعه، وناقة مُتْلٍ ومُتْلِية: يتلوها ولـدُها أي يتبعها[334].

تمتم:

قال الجاحظ: إذا تتعتع اللسان في التاء فهو تمتام[335]"

وفي اللسان: التمتمة رد الكلام إلى التاء والميم، وقيل هو أن يَعجَل بكلامه فلا يكـاد يفهمك، وقيل هو أن تسبق كلمته إلى حنكه الأعلى، ورجل تمام، والأنثى تمتامة .

وقال الليث: التمتمة في الكلام أن لا يبين اللسان يخطئ موضع الحرف فيرجع إلـى لفظ كأنه التاء والميم، وإن لم يكن بيناً.

تنبل: التنبال

قال الجاحظ في بيت لم يذكر قائله:

شمس إذا خطل الحديث أونس يـرقبن كـل مجـذر تنبـال

التنبال: القصير الدنئ.

---

[333] انظر: البيان والتبيين ، ج1، ص278.
[334] اللسان مجلد 4، ص102.
[335] البيان ج1، ص37.

وفي اللسان: تنبل: التنبال والتُّنبالة والتنبل الرجل القصير: وجمعة التنابيل، ومن قول كعب بن زهير:

يمشون مَشْيَ الجمال الزهر يَعصِمِهُم
ضرب، إذا عـرد السـود التنابيـل

أي القصار[336].

التياح : والمِتْيح

قال الشاعر:

وخطيب قوم قدموه أمامهم   ثقةً به متخمـ ـط تيـاح

قال الجاحظ[337]:

التياح والمِتُّيح الذي يعرض في كل شيء ويدخل فيما لا يعنيه وفي القاموس. المتيح من يعرض فيما لا يعنيه، أو يقع في البلايا، والمتياح الكثير الحركة، وتاح في مشيته: تمايل[338]. وكذلك في اللسان.

يقال: رجلٌ مِتُّيح: يعرض كل شيء ويدخل فيما لا يعنيه، والأنثى بالهاء[339].

حرف الثاء

ثجج : مثجاً

قال الجاحظ : " أخبرني إبراهيم السندي عن علي بن صالح الحاجب، عن العباس بن محمد قال: قيل لعبد الله بن عباس: أنى لك هذا العلم؟ قال: قلب عقول. ولسان سؤول. وقد رووا هذا الكلام عن دغفل بن حنظلة العلامة وعبد الله أولى به منه، والدليل على ذلك قول الحسن: إن أول من عرف بالبصرة ابن عباس، صعد المنبر، فقرأ سورة البقرة. ففسرها حرفاً حرفاً، وكان مِثجا يسيل غرباً[340].

([336]) لسان العرب مجلد 11، ص80.
( ) البيان ج6، ص178.
([338]) القاموس ج1، ص225.
([339]) اللسان مجلد 2، ص 418.
([340]) البيان ج1، ص85.

قال: المِثَج: السائل الكثير، وهو من الثجاج، أي أن علمه غزير لا ينقطع مدده وجريه. لأن معنى الغرب هو الدمع حين يجري، يقال بعينه غَرب إذا سال دمعها ولم ينقطع[341] فشبه به غزارة علمه

ومعنى "الثج" في اللسان: الصب الكثير، وخص بعضهم به صب الماء الكثير، وماء ثجوح وثجاجَ، ومصبوب، وفي التنزيل (وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا)[342]

ثطط : الثط

قال الجاحظ: خرج عثمان بن عفان -رحمه الله- من داره يوماً وقد جاء عامر بن عبد قيس، فقعد في دهليزه، فلما خرج رأى شيخاً دميماً أشغى ثطاً في عباءة، فأنكره، وأنكر مكانه، فقال يا أعرابي: أين ربك؟ فقال: بالمرصاد

قال الجاحظ: يقال أن عثمان بن عفان لم يفحمه أحد قط غير عامر بن عبد قيس.

والشغي : تراكب الأسنان واختلافها.

والثط: صغير اللحية[343]

وفي اللسان: رجلٌ ثط: ثقيل البطن بطئ، وقيل هو القليل شعر اللحية، وقيل هو الخفيف اللحية من العارضين وقيل: هو أيضاً القليل شعر الحاجبين.

قال ابن دريد: لا يقال في الخفيف شعر اللحية "أثط"، وإن كانت العامة قد أولعت به، إنما يقال "ثط" وأنشد لآبي النجم

* كلحية الشيخ اليماني الثط *

وحكى ابن برى عن الجواليقي قال: رجلٌ ثط لا غير، وأنكر أثط[344]

ثلل: الثلة: وردت ضمن الأبيات التي ذكرت[345] في رثاء وثيمة بن عثمان

لا ثلة ترعى ولا   إبل ولا بقر مسيمة

قال الجاحظ: الثلة: الضأن الكثير

([341]) اللسان ج2، ص642 مادة غرب.
([342]) سورة النبأ ، آية "14"
([343]) البيان ج1، ص236.
([344]) لسان العرب مادة نفط، ص 268.
([345]) البيان ج1، ص280.

وفي اللسان : الثلة : جماعة الغنم وأصوافها. ابن سيد : الثلة جماعة الغنم قليلة كانت أو كثيرة، وقيل: الثلة الكثير منها وقيل هي القطيع من الضأن خاصة، وقيل: الثلة الضأن الكثير[346]. كما ذكر الجاحظ.

حرف الجيم:

جذر: المجذر

شمس إذا خطِل الحديث أوانس يـ رقبن كلّ مجذر تنبال[347]

قال الجاحظ: المجذر : القصير[348]

وكذلك في اللسان: المجذر: القصير الغليظ الشتن الأطراف من الرجال[349]

جرثم: تجرثم

قال الجاحظ[350]: قال الخُس لابنته هند: أريد شراء فحلٍ لابلي قالت إن اشتريته فاشتره اسجع الخدين، غائر العينين، أرقَبَ أحزم، أعكى، أكوم، إن عُصِي غشم، وإن أطيع تجرثَم"

قال: تجرثم: أي بقى. مأخوذٌ من الجرثومة، وهي الطين والتراب يجمع حول النخلة ليقويها. تصفه بالصبر والقوة.

وفي اللسان: جرثم : الجرثومة: الأصل وجرثومة كل شيء أصله ومجتمعه، وقيل الجرثومة ما اجتمع من التراب في أصول الشجر.

وتجرثم الرجل: اجتمع[351]

جرر: أجرت: والجرار

قال عمرو بن معد يكرب:

فلو أن قومي أنطقتني رماحهم نطقتُ ولكن الرماح أجرت

---

(346) اللسان مادة لل، ص 89.

(347) ورد ذكر البيت في هذا الفصل حرف التاء.

(348) البيان ج1، ص110.

(349) اللسان مادة جذر، ص124.

(350) البيان ج1، ص235.

(351) اللسان ج2، ص94.

قال الجاحظ: الجرار. عود يعرض في فم الفصيل، أو يشق به لسانه لئلا يرضع، فيقول عمرو: قومي لم يطعنوا بالرماح فأثنى عليهم، ولكنهم فروا فأسكت كالمُجَر الذي في فمه جرار[352]

وكذلك وردت بذات المعنى في اللسان جر الفصيل جراً وأجرَه: شق لسانه لئلا يرضع، وقيل الإجرار كالتفكيك، وهو أن يجعل الراعي من الهُلب مثل فلكة المِعزل ثم يثقب لسان البعير فيجعله فيه لئلا يرضع[353]

جفف : الجُفّ

قال صفوان الأنصاري:

بجمع من الجُفين راضٍ وساخطٍ   وقد زحفت بُداؤهم للمحاضر

قال الجاحظ:

الجفان: بكر وتميم، والجُف أيضاً: قشر الطلعة[354].

وفي اللسان أيضاً: الجُف: عشاء الطلعَ إذا جف. قال أبو عبيدة جُفّ الطلعة وعاؤها الذي تكون فيه، والجمع الجفوف.

والجُفّ: شيء من جلود الإبل كالإناء أو كالدلو، والجف الشيء البالي. وقال ابن سيدة: الجف: الجمع الكثير من الناس، ومنه قيل لبكر وتميم الجفان[355].

جلح: مجلحة

المجلحة: الداهية[356]

وفي اللسان: سنة مجلحةِ: مُجدبة. والمجاليح: السنون التي تذهب بالمال. وناقة مجلاح: جادة على السنة الشديدة في بقاء لبنها والمُجالح أيضاً من النوق: التي تدِر في الشتاء، والجمع مجاليح[357].

جمل: جمل البحر

---

(352) اللسان ج2 ، ص94.

(353) اللسان مادة جرر، ص 126.

(354) البيان والتبيين، ج1، ص26.

(355) اللسان ج6، ص28-29 مادة جفف.

(356) سبق شرحها.

(357) انظر اللسان مادة جلح، ص424. مجلد 2.

قال العجاج:

يمكن السيف إذا السيف أناطر   من هامة الليث إذا ما الليث هر

كجمل البحر إذا خاض حَسَر   غـوارب اليم إذا اليم هَـ ـدَر

حتى يقال حاسر وما انحسر

قال الجاحظ[358]: قالوا: جمل البحر سمكة طولها ثلاثون ذراعاً وكذاك في اللسان قيل إنه سمكة ضخمة شبيهة بالجمل[359]

الجناجن:

قال: انشدني بعض الشعراء:

رأت رجلاً أودى السفار بجسمه   فلم يبق إلا منطق وجناجن

الجناجن: عظام الصدر

وكذاك في اللسان: عظام الصدر، وقيل رؤوس الأضلاع يكون ذلك للناس وغيرهم، واحدها جنجَن وجنجِن[360]

حرف الحاء:

حبس: الحبسة

قال الجاحظ[361]: ويقال في لسانه حبسة، إذا كان الكلام يثقل عليه ولم يبلغ حد الفافاء والتمام.

وجاء في اللسان[362] الاحتباس في الكلام: التوقف وتحبس في الكلام توقـف. قـال المبرد في باب علل اللسان: الحبسة تعذر الكلام عند إرادته.

الحبلات:

قال النمر بن تولب:

---

(358) البيان والتبيين ج1، ص152.
(359) اللسان ج18، ص126.
(360) انظر اللسان ج3، ص100.
(361) البيان والتبيين ج1، ص39.
(362) نفسه مادة حبس ج1، ص46.

وكل خليل عليه الرعاث والحبلات ضعيف ملق

قال الجاحظ: الحبلات كل ما تزينت به المرأة من حسن الحلى، والواحدة حبلة.

وفي اللسان: الحبلة: ثمر السلم والسيال والسمُر والحُبلة: ضرب من الحلـي يـصاغ على شكل هذه الثمرة يوضع في القلائد[363].

حدث: حادثوا

ذكر الجاحظ قول حفص بن ميمون قال: "سمعت عيسى بن عمر يقول سـمعنا الحسن يقول: "أقرعوا هذه النفوس فإنها طلعة، واعصوها فإنكم إن أطعتموها تنـزع بكم إلى شر وحادثوها بالذكر، فإنها سريعة الدثور.

قال الجاحظ في "حادثوها": حادثوا، أي اجلوا واشحذوا.

وفي اللسان: محادثة السيف: جلاؤه، وأحدث الرجل سيفه، وحادثه إذا جـلاه. وفـي حديث الحسن: حادثوا هذه القلوب...الخ. معناه أجلوها بالمواعظ، واغـسلوا الـدرن عنها[364].

حرق: الحرق

قال: وقال عنترة بن شداد العبسي، وجعل نصيب الغراب خبراً للزاجر.

حَرق الجناح كأن لحَيى راسه جِلمان بالأخبار هش واسع

قال[365]: الحرق: الأسود

وفي اللسان[366]: الحَرق: أن نعيب الثوب احتراق مـن النـار. فـالمعنى إذا متطابق لأن السواد ينتج عن الحريق.

حزم: الأحزم

ذكرت كلمة "أحزم" في وصف هند بنت الخُس للفحل الذي يريده أبوها لابلـه. وذلك عندما قالت: إن اشتريته فاشتره أسجع الخدين، ....، ...، أحزم....الخ".

---

(363) نفسه مادة "حبل" ج11، ص 140.
(364) اللسان ج2، ص134.
(365) البيان والتبيين ج1، ص82.
(366) اللسان ج1، ص 46.

قال الجاحظ: أحزم منتفخ المَحزم

وجاء في اللسان:

احتزم الرجل وتحزم: إذا شد وسطه بحبل، الأحزم: هو المَحزم: يقال: بعيـر مُجفَرُ الأحزم. ويقول الجوهري: الحزم ضد الهضم. والحزم الغليظ من الأرض(367).

حشرج: الحشرجة

قال رؤبة يصف حماراً:

حشرج في الجوف سحيلاً وشهق حتى يقال ناهق وما نهق

قال الجاحظ(368): الحشرجة: صوت الصدر

وفي اللسان الحشرجة: تردد صوت النفس، وهو الغرغرة في الـصدر. عنـد الجوهري: الحشرجة: الغرغرة عند الموت وتردد النفس(369).

حصن: حاصن: محصنة

قال العجاج:

وحاصن من حاصنات ملس من الأذى ومن قراف الوقس

قال: المحصنة: ذات الزوج. والحاصن: العفيف.

وكذلك ورد في اللسان بذات المعنى وهو: امرأة حصان عفيفة بينة الحصانة والحُصن ومتزوجة أيضاً.

والمحصنات: العفائف من النساء.

وكل امرأة عفيفة محصَنة، ومحصِنة، وكل امرأة متزوجة محصَنة بالفتح لا غير(370).

حفس: حيفس

قال الجاحظ: قال بن الأعرابي: طلق أبو رمادة امرأته حين وجـدها لثغـاء، وخاف أن تجيئه بولد الثغ، فقال:

لثغاء تأتي بحيفس الثغ تميس في الموشى والمصبغ

---

(367) اللسان ج2، ص 237.

(368) البيان والتبيين ج1، ص 151.

(369) اللسان ج2، ص237.

(370) انظر اللسان ج3، ص120 مادة حصن.

قال: الحيفس: الولد القصير الصغير.

وورد في اللسان: رجلٌ حيفس: مثال هِزبر، قصير سمين. وقيل : لئيم الخلقـة قصير ضخم لاخير عنده(371).

حكك : مُحكك

قال: وقال البعيث الشاعر، وكان أخطب الناس: "إني والله ما أرسـل الكـلام قضيباً خشبياً، وما أريد أن أخطب يوم الحفل إلا بالبائت المحكك. قال الجاحظ: وكنت أظن أن قولهم "محكك" كلمة مولدة حتى سمعت قول الصعب بن علي الكناني:

أبلغ فـزاره أن الذئب آكلها   وجائع سغـ ـب شر من الذيب

أزل اطلس ذو نفس محككة   قد كان طار زماناً في اليعاسيب

وتكلم يزيد بن أبان الرقاشي، ثم تكلم الحسن، وأعرابيان حاضران فقال أحدهما لصاحبه: كيف رأيت الرجلين؟ فقال: أما الأول فقصاصةٌ مجيد، وأما الآخر فعربـي محكك(372).

ومنه قول الحباب بن المنذر الأنصاري يوم سقيفه بني ساعدة:

أنا جُذَيلُها المحكك، وعذيقها المرجب. ومعناها أنه مثل نفسه بالجِـذْل وهـو أصـل الشجرة، وذلك أن الجربة من الإبل تحتك إلى الجذل فتشتفى به، فعنى أنـه يـشتفي برأيه كما تشتفي الإبل بهذا الجذل الذي تحتك به.

قال الأزهري: وفيه معنى آخر، وهو أحب إلي، وهو أنه أراد أنه مُنَجـذٌ قـد جرب الأمور وعرفها وجُرب، فوُجد صُلْب المَكْسَر غير رخو(373).

حكل : الحكلة

قال الجاحظ: إذا قالوا في لسانه حكلة فإنما يذهبون إلى نقصان آلة المنطـق، وعجز أداة اللفظ، حتى لا تعرف معانيه إلا بالاستدلال قال رؤبة بن العجاج:

لو أنني أوتيت علم الحكل   علم سليمان كلام النمل

---

(371) اللسان ج1، ص54.

(372) البيان ج1، ص204.

(373) انظر: اللسان ج1، ص413.

وكذلك ورد معناها في اللسان: الحكلة كالعجمة، لا يبين صاحبها الكلام. والحكل: العجم من الطيور والبهائم، وكلام الحكل كلام لا يفهم(374).

حلأ: حلئت

روى الجاحظ قول أعرابي لعامل الماء: "حلئت ركابي، وخُرقت ثيابي، وضربت صحابي" قال: حلئت ركابي، أي منعت إبلي من الماء والكلأ(375).

وفي اللسان: حلأ الإبل والماشية عن الماء تحليئاً وتحلئة، طردها أو حبسها عن الورود ومنعها أن ترده(376).

الحُلاحل:

قال: قالت الجهينة:

ألا هَلَكَ الحلو الحلال الحُلاحل ومن عنده حلم وعلم نائل

قال: الحُلاحل: السيد. وكذلك جاء في اللسان: الحُلاحل: السيد في عشيرته الشجاع الركين في مجلسه. وقيل: هو الضخم المروءة. وقيل: هو الرزين، ولا يقال للمرأة(377).

حمر: أحمر آفاق السماء

وردت كلمة "وأحمر أفاق السماء" في أبيات سبقت في رثاء وثيمة بن عثمان، قالت ابنته:

واحمر آفاق السما ء ولم تقع في الأرض ديمة

قال الجاحظ: أحمر آفاق السماء، أي اشتد البرد وقلّ المطر وكثر القحط(378).

حمق: المحماق

قال الجاحظ: والمرأة إذا ولدت الحمقى فهي مُحمِقةٌ، ولا يعلم ذلك حتى يرى ولد زوجها من غيرها أكياساً.

---

(374) نفسه ج1، ص162.
(375) البيان والتبيين ج1، ص40.
(376) اللسان ج1، ص280.
(377) لسان العرب ج11، ص174.
(378) البيان والتبيين ج1، ص182.

ومنه يروى قول الشاعر:

أزرى بسعيك إن كنت امرءاً حمقاً　　من نسل ضاوية الأعراق محماق

قال: المحماق: التي عادتها أن تلد الحمقى.

وفي اللسان: الحمق: ضد العقل. وفي حديث ابن عباس ينطلق أحدكم فيركب الحموقة، هي فعوله من الحق، أي خصلة ذات حمق، وحقيقة والحمق وضع الشيء في غير موضعه مع لعلم بقبحه وأحمق الرجل والمرأة: ولدا الحمقى(379).

حنط: الحنطة

قالها الجاحظ في وصفه تجنب واصل بن عطاء لحرف الراء قال:

"وكان إذا أراد أن يذكر البر قال: القمح أو الحنطة. والحنطة لغة كوفية، والقمح لغة شامية.

وفي اللسان: الحنطة: البر، وجمعها حِنَط(380).

حور: الحور

قال ذور الرمة:

حوراء في دعج صفراء في نعج　　كأنها فضة قد مسها ذهب

قال الجاحظ: الحور: شدة بياض العين.

وجاء في اللسان:

الحَوَر: أن يشتد بياض العين، وسواد سوادها، وتستدير حدقتها وترق جفونها، ويبيض ما حواليها، وقيل الحور شدة سواد المقلة في شدة بياضها، في شدة بياض الجسد، ولا تكون الأدماء حوراء.

قال الأزهري: لا تسمى حوراء حتى تكون مع حور عينيها بيضاء لون الجسد وقيل الحور: أن تسود العين كلها مثل أعين الظباء والبقر، وليس في بني آدم حَوَرُ، وإنما قيل للنساء حورُ العين لأنهن شبهن بالظباء، والبقر.

---

(379) اللسان ج1، ص68.

(380) انظر: اللسان ج7، ص 288.

وقال كراع: الحَوَرُ أن يكون البياض محدقاً بالسواد كله وإنما يكون هذا فـي البقـر والظباء ثم يستعار للناس[381].

حرف الخاء

خذم: الخذمة

قال الجاحظ[382]: قال عبد الملك بن مروان لأعرابي: ما أطيب الطعام؟ فقال: "بكرة سنمة، معتبطة غير ضمنه، في قدور رذمة، بشفار خذمة في غداة شبمة"

فقال عبد الملك: وأبيك لقد أطيبت.

قال بشفار خذمة: قاطعة. وكذلك في اللسان: الخذم سرعة القطع[383].

خربز: الخِربز

قال الجاحظ: "ألا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس في قـديم الدهر عِلِقوا بألفاظ من ألفاظهم ولذلك يسمون البطيخ "الخربز"

وهو في اللسان بذات المعنى "البطيخ" قال أبو حنيفة: هو أول ما يخرج قَعسر، ثم خضف، ثم فج، قال: وأصله فارسي وقد جرى في كلامهم وفي حديث أنس، رضي الله عنه: "رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع بين الرطب والخربز. قالوا هو البطيخ بالفارسية[384].

خزر: الخُزر

قال صفوان الأنصاري في بشار وإخوته يخاطب أمهم:

ولدت خلداً وذيخاً في تشتمه   وبعده خزراً يشتد في الصُعُـ ـ ـد

ثلاثة من ثلاث فُرقوا فِرقاً   فاعرف بذلك عرق الخال في الولد

قال الجاحظ: الخلد: ضرب من الجرذان يولد أعمى. والذيخ: ذكـر الـضباع والخُزر: ذكر الأرانب، وهو قصير اليدين لا يلحقه الكلاب في الصُعُد.

---

(381) نفسه مادة حور، ص218.
(382) البيان والتبيين جذ، ص286.
(383) اللسان ج12، ص168.
(384) اللسان ج5، ص345.

وورد في اللسان: الخِزز: ولد الأرنب، وقيل هو الذكر من الأرانب وجمعه: أخِزة وخِزان[385].

خزن: الخزنة:

أورد الجاحظ في قول الله عز وجل: (وقال الذين في النار لخزنة جهنم) الخ الآية.

قال: الخزنة: الحفظة، وجهنم لا يضيع منها شيء فيحفظ، ولا يختار دخولها فيمنع منها، ولكن لما قامت الملائكة مقام الحافظ الخازن سميت به.

خصص: الخصاص

لواقِح دُلح بالماء سُحمٍ   تُمج الغيث من خلل الخَصَاص

قال الجاحظ: والخصاص هاهنا : السحاب.

وفي اللسان: الخصاص: شِبه كوة في قبة أو نحوها إذا كان واسعاً قدر الوجه.

* وإن خصاصُ ليلهن استَدا *

* ركبنَ من ظلمائه ما اشتدا *

شبه القمر بالخصاص الضيق، أي استتر بالغمام، وبعضهم يجعل الخصاص للواسع والضيق حتى قالوا لخروق المُنْخَل والباب والبُرقُع وغيره خَلَل، واحدته خصَاصه، وكذلك كل خلل وخرق يكون في السحاب، وربما سمي الغيم نفسه خصاصة، ويقال للقمر، بدأ من خصاصة الغيم[386].

خطف: الخيطف

([385]) انظر: اللسان ج5، ص344.
([386]) البيان والتبيين ج1، ص 153.

قال الجاحظ[387]: ومن القدماء بالنسب وبالعرب: الخطفي جد جرير بن عطية ابن الخطفي وهو حذيفة بن بدر بن سلمة بن عوف بن كليب بن يربوع. وإنما سُـمي الخطفي لأبيات قالها:

يرفعن بالليل إذا ما أسدفا   أعناق جِنّان وهاما رُجفا

وعَنَْقاً باقي الرسيم خيطفا

قال[388]: العَنَق: ضرب من السير، فإذا ارتفع عن العنق قليلاً فهو التزيد: فإذا ارتفع عن ذلك فهو الذميل والرسيم فوق الذميل. والخيطف: السريع: أي يخطف كمـا يخطف البرق، وخيطف من الخطف والياء في خيطف زائدة، كما قالوا رجلٌ صَيرف من الصرف، ورجل جيدر من الجدَر وهو القِصر، وأصل الخطف الأخذ بسرعة، ثم استعير لكل سريع.

ومعناه في اللسان: سرعة انجذاب السير كأنه يختطف فـي مـشيه عنقـه أي يجتذبه، وجمل خيطف أي سريع المر[389].

خلج: خلجة ظن

قال أبو يعقوب الأعور:

وخلجة ظن يسبق الطرف حزمُها   تُشيف على غُنم وتُمكن من ذَحل

قال الجاحظ:

خلجة ظن: أي جذبة ظن، كأنه يجذب صواب الرأي جذباً.

والخلج: الجذب[390].

وفي القاموس: "خلج" يخلُج: جذب وغمز وانتزع وحرك وشغل وطعن وجامع وفطم ولده أو ولد ناقته[391].

خلف: الخلف: الخلْف

([387]) اللسان ج7، ص 25.

([388]) البيان والتبيين ج1، ص66

([389]) اللسان ج9، ص 76، .

([390]) البيان والتبيين ج1، ص 381.

([391]) القاموس المحيط ج1، ص 193.

قال لبيد:-

ذهب الذين يعاش في أكنافهم   وبقيت في خلْف كجلد الأجرب

قال الجاحظ: الخلْف: البقية الصالحة من ولد الرجل وأهله. وكذلك معناه في اللسان: الخُلْف: النسل: والخَلَف والخَلْف: ما جاء من بعد. والخلَف: خلَف الإنسان الذي يخلفه من بعده[392].

حرف الدال

دبر: تدبر الأمر

قال ابن أحمد الباهلي:

لو كنت ذا علمٍ علمتُ وكيف لي   بالعلم بعد تدبر الأمر

قال الجاحظ[393]: يعني إدبار الأمر

وقال: "كانوا يأمرون بالتبين والتثبت، وبالتحرز من زلل الكلام، ومن زلل الرأي، ومن الرأي الدَبرى. والرأي الدَبرى هو الذي يعرض من الصواب بعد مضي الرأي الأول وفوت استدراكه.

وجاء في اللسان: "وعرفوا الأمر تدبراً، أي بأخرة.

دثر: الدثور

قال الجاحظ: الدثور: الدروس. يقال دثر أثر فلان، إذا ذهب كما يقال درس وعفا. وكذلك الدثور في اللسان معناه الدروس. وقد دثر الرسم وتداثر، ودثر الشيء يدثر دُثُوراً، واندثر: قُدم ودرس.

وروي عن الحسن أنه قال: حادثوا هذه القلوب بذكر الله فإنها سريعة الدثور، قال أبو عبيد: سريعة الدثور يعني دروس ذكر الله وإمحاءه منها. ودثور النفوس: سرعة نسيانها.

دجن: مدجنة

قال ابن عَسَلة الشيباني، واسمه عبد المسيح:

([392]) اللسان ج9، ص 89.

([393]) البيان والتبيين ج1، ص 269

وسماع مُدجنةٍ تعللنا حتى ننام تناؤم العجم

قال الجاحظ: مدجنة: أي سحابة دائمة.

وفي اللسان: الدجن: ظل الغيم في اليوم المطير، وأدجنت السماء دام مطرها، وأدجن المطر: دام فلم يقلع أياماً[394].

دره: المِدره

قال الجاحظ: المِدرَه: لسان القوم المتكلم عنهم.

وتعني أيضاً في اللسان: زعيم القوم وخطيبهم والمتكلم عنهم والذي يرجعـون إلى رأيه[395].

دعج: الدعج

قال ذو الرمة:

حوراء في دعجٍ صفراء في نعج ......الخ

قال الجاحظ: الدعج: شدة سواد الحدقة

وفي القاموس: الدَعَج "محركة" والدُعجَة بالضم سواد العين مع سعتها والأدعج الأسود[396]

دلح: دلح[397]

قال[398]: الدُلح: الدانية الظاهرة المثقلة بالماء

وفي القاموس: "دلح" مشى بحملِه منقبض الخَطْو لثقله: وسحابةٌ دلـوح كثيـرة الماء[399]

دلف: دلفت: الدليف

([394]) اللسان مادة دجن ج13، ص 147.
([395]) نفسه مادة دره ج13، ص 488.
([396]) القاموس المحيط ج1، ص195.
([397]) وردت في ص23 من هذا الفصل
([398]) البيان والتبيين ج1، ص 225.
([399]) القاموس ج1، ص227.

قال نافع بن خليفة الغنوى

دلفت لهم دون المنى بملمةٍ　　　من الدر في أعقاب جوهرها شذر

قال[400]: دلفت: أي نهضت نهوضاً رويداً. والدليف: المشي الرويد.

وفي القاموس: دلف: مشّى مَشْي المقيد، وفوق الدبيب[401].

دمج: الدميجة

قال ابن الأعرابي:

ولست بُدميجه في الفرا　　　ش وجابة يحتمي أن يجيبا

قال الجاحظ: الدميجة: الثقيل عن الحركة.

وفي اللسان[402] يقال رجلٌ مَدمَج ومندمج: مداخل كالحبل المحكم الفتل ونسوة مُدمجات الخلق ودُمج كالحبل المدمج، دميجة: متداخل مأخوذ من ادمج في الشيء إذا دخل فيه.

ديم: الديمة[403]

قال الجاحظ: الديمة: واحدة الديم، وهي الأمطار الدائمة

وفي اللسان: الديمة: مطر يكون مع سكون، وقيل يكون خمسة أيـام، وسـتة، وقيل يوماً وليلة أو أكثر.

وقيل: الديمة من المطر الذي لا رعد فيه ولا بـرق تـدوم يومهـا والجمـع ديم[404].

حرف الذال

ذبب: مذب

مجرب الشدات ميمون مِذب[405]

قال الجاحظ: مذب، أي يذب عن حريمه وعن نفسه

---

(400) البيان والتبيين ج1 ، ص176

(401) القاموس ج3، ص147.

(402) لسان العرب ج2، ص 147.

(403) وردت في رثاء وثيمة بن عثمان. *ولم تقع في الأرض ديمة*

(404) اللسان مادة ديم ، ص213.

(405) ذكر هذا المقطع ضمن أبيات قالها آدم بالعنبر. لابنه، انظر البيان والتبيين ج1 ، ص182.

وكذلك ورد معناها في اللسان: الذب: الدفع والمنع ورجل مِذب وذباب: دفـاع عن الحريم[406]

ذفر: الذفر

قال العماني:

لا ذفر هش ولا بكابي   ولا بلجلاج ولا هياب

قال[407]: الذفر: الكثير العرق

الذيخ:

قال الجاحظ: الذيخ[408] ذكر الضباع، وهو أعرج[409]

والذيخ في بقية المعاجم جاءت بذات المعنى وهو الذكر من الـضباع الكثيـر الشعر[410].

حرف الراء

رأم: رئمان أنف

قال أفنون بن صريم التغلبي:

أم كيف ينفع ما تعطي العلوق به   رئمان أنفٍ إذا ما ضُن باللبن

قال الجاحظ[411]: رئمان: أصله الرقة والرحمة. والرءوم: أرق من الرءوف. فقال "رئمان أنف" كأنها تُبر ولدها بأنفها وتمنعه اللبن، وجاء في اللسان: رئمت الناقة ولدها ترأمُه رأماً ورأماناً:

عطفت عليه ولزمته[412].

([406]) اللسان مادة "ذبَّ" ص439.
([407]) البيان والتبيين ج1 ، ص136.
([408]) نفسه ، ص31.
([409]) سبق شرحه في هذا الفصل
([410]) لسان العرب ، ج3، ص16.
([411]) البيان والتبيين ج1، ص10.
([412]) لسان العرب مادة رام ، ص223.

ربع: مربعة

قال الجاحظ: "وأهل البصرة إذا التقت أربع طرق يسمونها مربعة"

ربيع: رمضان

وقال في موافقة الاسم للمسمى: "وكذلك رمضان إنما سمي لرمض الماء فيه من شدة الحر، فبقى عليه في البرد، وكذلك "ربيع" إنما سمي لرعيهم الربيع فيه، وإن كان قد يتفق هذا الاسم في وقت البرد والحر[413].

المرباع:

قال: المرباع: ربع الغنيمة في الجاهلية لصاحب الجيش قال:

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول[414]

وكذلك في اللسان: المرباع ما يأخذه الرئيس وهو ربع الغنيمة

والصفايا: ما يصطفيه الرئيس[415].

ربو: الروابي

قال جميل بن معمر:

نمت في الروابي من معد وأفلجت على الخفرات الغُر وهي وليد

قال الجاحظ[416]: الروابي من معد: البيوت الشريفة، وأصل الرابية والرباوة: ما ارتفع من الأرض.

وفي اللسان: الربا والربوَ والربوة الربوة والربوة والرباوة والرابية والربـاة: كل ما ارتفع من الأرض وربا، وفي الحديث: الفردوس ربوة الجنة: أي أرفعها.[417]

رجم: المرجم

قال أبو الحجناء في شدة الصوت:

إني إذا ما زبب الأشداق والِتج حولي النقع واللقلاق

([413]) البيان والتبيين ج1، ص169.
([414]) القائل هو: عبد الله بن عتمة الضبي، أحد شعراء المفضليات. انظر الخزانة ج3، ص58.
([415]) اللسان ج8، ص103.
([416]) البيان والتبيين ج1
([417]) لسان العرب ج4، ص125.

نبتُ الجنان مرجم وداق

قال الجاحظ: المرجم: الحاذق بالمراجمة بالحجارة

وجاء في اللسان: رجل مِرجم: أي شديد كأنه يُرجم به معاديه وفرس **مـرجم**: يرجم الأرض بحوافره.

وراجم عن قومه: ناضل عنهم.

ردى: المرادي

قال العجير السلولي:

وإن ابن زيدٍ لابن عمي وإنّه   لبلال أيدي جِلة الشول بالـدم

طلُوع الثنايا بالمطايا وإنـه   غداة المرادى للخطيب المقدم

قال الجاحظ:

المرادى: المصادم والمقارع، يقال رديتُ الحجر بصخرة أو بمعول إذا ضربته بها لتكسره. والمرداه الصخرة التي يكسر بها الحجارة.

قال الأصمعي: إذا عدا الفرس فرجم الأرض رجماً قيـل رَدَى يَـردِى رَديـا ورديانا.

ورديت فلاناً بحجر أرديه ردياً إذا رميته. والمِردى والمِرداة الصخرة وجمعها المرادي(418).

رزم: الرزمة

وردت كلمة رزمة في حديث عبد الملك بن مروان للأعرابي عندما سأله عن أطيب الطعام فقال(419): "بكرة سنمة، ....، في قدور رذمة،.."

فسر الجاحظ ذلك بقوله: رذمة: سائلة من امتلائها.

وكذلك جاء معناها في اللسان. الرذوم: السائل من كل شيء، وقـصعة رذوم ملأى تصبب جوانبها حتى إن جوانبها لتندى أو كأنها تسيل دسماً لامتلائها.(420)

---

(418) لسان العرب ج14، ص318.
(419) سبق ذكره، ص 23.
(420) لسان العرب ج12، ص237.

رزدق: الرزدق

قال الجاحظ: "ألا ترى أن أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس علقوا بألفاظ من ألفاظهم ولذلك يسمون السميط[421]: الرزدق.

وفي اللسان: الرُزداق: لغة في الرسداق تعريب الرستاق، قال الجوهري: الرزدق: السطر من النخل والصف من الناس وهو معرب وأصله بالفارسية.

الرسيم: قال الجاحظ: الرسيم: ضرب من سير الإبل وهو فوق الزميل[422] ورسمت الناقة ترسم رسيما: أثرت في الأرض من شدة وطئها[423].

رشح: مرشِح

إذا وضعت الناقة تسمى عُوذ، فإذا مشى ولدها فهي مُرشِح[424].

قال الأصمعي: إذا وضعت الناقة ولدها فهو شليل فإذا قوى ومشى فهو راشح. وأمه مُرشِح، والترشيح والترشح: لحس الأم ما على طفلها من النُدوة حين تلده.[425]

رعبل: رعابل: مرعبل

قال ذو الرمة:

كأن على أعطافه ماء مُذْهَب   إذا سملُ السربال طارت رعابله

قال الجاحظ: الرعابل: القطع. وشواء مرعبل: مقطع: ورعبلت الشيء أي قطعته.

ومعناها أيضاً في اللسان هو الممزق تقول: رعبل اللحم رعبلة: قطعة لتصل النار إليه فتنضجه والقطعة الواحدة رعبولة، ورعبل الثوب فترعبل. مزقه فتمزق، والرعبولة: الخرقة الممزقة[426].

رعث: الرعاث

قال النمر بن تولب

([421]) السميط: الأمر القائم بعضه فوق بعض.
([422]) البيان والتبيين ج1، ص366.
([423]) لسان العرب ج12، ص241.
([424]) اللسان ج11، ص449.
([425]) نفسه ج11، ص289.
([426]) نفسه ج11، ص122.

وكل خليل عليه الرعاث والحبـلات ضعيف ملِق

قال الجاحظ: الرعاث: القِرطة

وفي اللسان: الرعث والرعثة: ما علق بالأذن من قرط ونحوه والجمع رعثـه ورعاث، وترعثت المرأة أي تقرطت.(427)

رقب: أرقب

قال الجاحظ: الأرقب: غليظ الرقبة

رقبة:

قال أوس بن حجر في فضالة بن كلدة:

لهفي على حسن آلائه على الجابر الحي والحارب

ورقْبته حتمات المـلو ك بين السرادق والحـاجب

قال الجاحظ: (428) رقبته: أي انتظاره إذن الملوك.

وفي اللسان: رَقبة: يرقُبة رقبة ورقباناً. "بالكسر، ورقوبا وترقبـة، وأرتقبـه: انتظره ورصده. والترقُب: الانتظار وكذلك الارتقاب(429).

ركب: الركاب

جاءت في قول الأعرابي لعامل الماء: "حلئت ركابي"

قال الجاحظ: الركاب: ما ركب من الإبل

وهي بذات المعنى في اللسان: الركاب: الإبل التي يسار عليها، واحداتها راحلة ولا واحد لها من لفظها(430).

رمى: أرمى: أربى

قال الكمت بن زيد. وكان خطيبا: "إن للخطبة صعداء وهي علـى ذي اللـب أرمى.

قال الجاحظ: وقولهم: أرمى وأربى سواء، يقال فلان قد أرمى على المائة وأربى.(431)

---

(427) نفسه ج2، ص152.

(428) البيان والتبيين ج1، ص181.

(429) اللسان مادة رضى ج5، ص224.

(430) نفسه ص430 مادة ركب.

روق: الروق

قال[432]: الروق: ركوب السن الشفة

وفي اللسان: الروق: طول وانثناء في الأسنان، وقيل الروق طـول الأسـنان وإشراف العليا على السفلى. روق يروَق روَقاً فهو أروق إذا طالت أسنانه.

ريط: الريط

قال العماني:

إذا هُن في الريط وفي الموادع　　تُرمى إليهن كبَـذْر الزارع

قال الجاحظ[433] الريط: الثياب واحدها ريطة، والريطة: كل ملاءة لـم تكـن لفقتين.

وفي اللسان: الريطة: الملاءة إذا كانت قطعة واحدة ولم تكن لفقتين، وقيل: هو كل ثوب لين دقيق والجمع ريط ورياط.[434]

ريع: تريع

قال طحلاء يمدح معاوية بالجهارة وبجودة الخطبة:

ركُوب المنابر وثابـها　　معن بخطبته مجهـر

تريع إليه هوادى الكلام　　إذا ضل خطبته المِهذَر

قال الجاحظ[435] مِعن: تَعِن له الخطبة فيخطبها مقتضباً لها.

تريع: ترجع إليه. هوادى الكلام: أوائله. أراد أن معاوية يخطب فـي الوقـت الـذي يذهب كلام المهذر فيه. والمهذر المكثار.

وكذلك الريع في اللسان معناه: العود والرجوع[436].

حرف الزاي

قال نافع بن خليفة الفتوي:

([431]) البيان ج2، ص134.
([432]) البيان والتبيين ج1، ص55.
([433]) البيان والتبيين ج1، ص158.
([434]) لسان العرب ج1، ص 37.
([435]) البيان والتبيين ج1، ص126.
([436]) لسان العرب مادة ريع ج8، ص139.

وخصمٍ لدى باب الأمير كأنهم   قرومٍ فشافيها الزوائر والهَدر

قال الجاحظ[437]: الزوائر: الذين يزئرون

زبر: الزبره

قال: وصف بعضهم فرساً فقال: "أقبل بزُبرة الأسد، وأدبر بعجز الذئب.

قال: الزبرة مغرز العنق

وفي اللسان: الزبرة: هَنَةٌ ناتئة من الكاهل. وقيل هو الكاهل نفسه

يقال: شد للأمر زُبرته: أي كاهله وظهره

والزبرة: الشعر المجتمع للفحل والأسد وغيرهما.[438]

زرر: تزاره[439]

معناها في اللسان: زره، يُزره زراً: عضه، وزاره: عاضه والمُزاره من الزر وهو العض.[440]

زهو: زهاء

قال جَران العَود:

فنلنا سقاطاً من حديث كأنــه   جنى النحل أو أبكار كـ ـ ـرم يقطف

حديثاً لو أن البقل يولى بمثله   زها البقلُ واخضر العضاة المصـنف

قال الجاحظ: زها: بدأ زهرة

ذو زهاء: الكثرة. وفي اللسان : تقول هم قوم ذوو زهاء ذوو عدد كثير[441].

سجع: أسجع

سل الخطباء هل سبحوا كسبحي   بحور القول أو قاصوا مغاصي

لساني بالنثيـ ـر وبالقـ ـوافي   بالأسجاع أمهـ ـر في الغِواص

قال الجاحظ[442]: الأسجاع: الكلام المزدوج على غير وزن.

---

(437) البيان والتبيين ج1، ص176.
(438) لسان العرب مادة "زبر".
(439) ورد ذكرها في حديث الغلام مع أبي الأسود: انظر: ص8 من هذا الفصل.
(440) لسان العرب مادة "زرر" ص321.
(441) نفسه ج12 ، ص263.
(442) البيان والتبيين ج1، ص334.

وفي الصحاح: السجع: الكلام المقفى، والجمع أسجاع وأساجيع، وقـد سـجع الرجل سجعاً، وسجع تسجيعاً. وكلام مُسَجع وسجعت الناقة: أي مدت حنينهـا علـى جهة واحدة.

سحر: المسحر

قال امرؤ القيس:

أرانا موضعين لأمر غيب ونُسحَر بالطعام وبالشراب

قال الجاحظ[443]: نسحر: أي نعلل. فكأنا نخدع ونسحر بالطعام والشراب

سحل: السحيل

قال رؤبة يصف حماراً:

حشرج في الجوف سحيلاً وشهق حتى يقـال ناهـق ومـا نهـق

قال الجاحظ: السحيل: صوت الحمار إذا مده، والشهيق أن يقطع الصوت.

وفي الصحاح: السحيل والسُحالى بالضم: الصوت الذي يدور في صدر الحمار[444]

سفف: المسفات: قال الكميت بن زيد:

وحديثهـن إذا التـقي ن تهانُف البيض الغرائر

وإذا ضحكن عن العذا ب لنا المُسَفات الثواغر

قال الجاحظ: المُسفات: اللثات التي أسفت بالحكل، وذلـك أن تغـرز بـالابرة ويُزر عليها الكحل فيعلوها حوة[445]

وفي الصحاح[446]: أسف وجهه النَؤورَ، أي ذر عليه، قال ضابئ بن الحارث البُرجُمي يصف ثوراً:

شديد بريق الحاجبين كأنما أُسِف صَلَى نار فأصبح أكحلا

وفي الحديث: "كأنما أسفّ وجهه" أي تغير وجهه، فكأنه ذُر عليه شيء غيره.

---

(443) البيان والتبيين ج1، ص189..
(444) الصحاح ج2، ص688.
(445) البيان والتبيين ج1، ص282.
(446) الصحاح ج3، ص1374.

سمدع: السميدع

قال ابن أحمد بن العمرد:

وكم حلها تيحان سَمَيـ ـدع مُصَافِي الندى ساق بيهماء مطْعِم

قال الجاحظ: السميدع: الكريم

وكذلك رود في الصحاح. السميدع: بالفتح السيد الموطأ الأكناف

ولا تقل "سُميدع" بضم السين(447).

سقط: سقاط الحديث: قال ذو الرمة

ولما تلاقينا جرى من عيوننا دموع كففنا غربها بالأصـ ـابع

ونلنا سقاطاً من حديث كأنه جنى النحل ممزوجاً بماء الوقائع

قال الجاحظ(448): سقاط الحديث ما نُبذ منه ولفظ به.

ولعل ما ذكر في المعاجم الأخرى هو الأقرب إلى المعنى الذي ذكره الجاحظ.

قال الجوهري: سقاط الحديث، أن يتحدث الواحد وينصت له الآخر فإذا سكت تحدث الساكت. قال الفرزدق:

إذا هُن ساقطْنَ الحديث كأنه جنى النحل أو أبكارُ كرمٍ تُقطفُ

حرف الشين

شأو: الشأو

قال شتيم بن خويلد:

أعنت عدياً على شأوها تعادى فريقاً وتبقى فريقا

قال الجاحظ(449): الشأو: الغلوة لركض الفرس

وفي الصحاح(450): الشأو: الغاية والأمد، وعدا الفرس شأواً، أي طلقاً.

والشأو: السبق: تقول: شأوت القوم شأواً إذا سبقتهم .

شبر: الشبر:

---

(447) نفسه ج3، ص1228.

(448) البيان والتبيين ج1، ص282.

(449) البيان والتبيين ج1، ص182.

(450) الصحاح ج1، ص2388.

قال الجاحظ: وصف أعرابي رجلاً فقال: "صغير القدر، قصير الشبر، ضيق الصدر"

قال: الشبر: قدر القامة، تقول كم شبر قميصك، أي كم عدد أشباره.

وفي الصحاح[451]: تقول رجل قصير الشبر. أي متقارب الخلق.

شبم: الشبمة.

جاء في حديث الأعرابي عندما سأله عبد الملك بن مروان عن أطيب الطعام.

فقال: بكرة سنمة: إلى قوله في قدور شبمة" أي باردة، والشبم البرد.

وكذلك في الصحاح: الشبم: البرد، تقول شبم الماء "بالكسر" فهو شبم .

شجع: الأشاجع.

قال دريد بن الصمة في رثاء أخيه:

عاري الأشاجع معصوب بلمته   أمر الزعامة في عرينته شمم

قال: [452] الأشاجع: عروق ظاهر الكف، وهي مغرز الأصابع، واللمة: الشعرة التي لمت بالمنكب.

حرف الصاد

قال سلمة بن الخرشب

فأحكم وأنت الحكيم بينهم   لن يعدموا الحكم ثابتاً صتما

قال الجاحظ: الصتم: الصحيح القوي، يقال رجلٌ صتم، إذا كان شديداً[453]

وجاء في الصحاح: تقول عبد صتم "بالتسكين" وجمل صتم ورجل صتم غليظ شديد[454] والجمع صُتْم بالضم.

صدى: التصدية

شرح الجاحظ معنى التصدية في قوله تعالى: (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية)[455]

([451]) نفسه ج2، ص692.
([452]) البيان والتبيين ج1 ، ص232.
([453]) البيان والتبيين ج1، ص239.
([454]) الصحاح ج5، ص 1964.

قال التصدية: التصفيق، والمكاء: الصفير

وأورد قول القطامي:

فهن ينبذنَ من قولٍ يصبن به مواقع الماء من ذي الغُلة الصادي

قال الغلة: العطش الشديد، والصادي: العطشان والاسم الصدى وهو غير الصدى بمعنى رجوع الصوت، قال الجوهري: الصدى الذي يجيبك بمثل صوتك من الجبال وغيرها[456].

صفو: الصفا

قال الجاحظ: أنشد محمد بن زياد:

وسب يوَد المرءُ لو مات قبله كصدع الصفا فلقْتَه بالمعاول

قال: الصفا جمع صفاة وهي الصخرة[457].

وكذلك ورد معناه في الصحاح: الصفاةُ: صخرة ملساء، يقال في المثل: "ما تّنْدَى صَفَاتُه" والدمع صفا، وأصفاء

والصَفِي: الناقة الغزيرة الدر، والجمع صفايا[458].

صلق: الصلق

قال العجير السلولي:

لو أن الصخور الصُم يسمعون صلقنا لرُحن في أعراضهن فُطور

قال الجاحظ: الصلق: شدة الصوت، وفطور: شقوق

وكذلك معناه في الصحاح: الصلق: الصوت الشديد، وأصلق لغة في صلق، قال الفراء في قوله تعالى "سلقوكم بألسنة حداد" وصلقوكم "لغتان"[459].

صلل: الصليل

قال مهلهل:

---

(455)

(456) الصحاح، ج6، ص 2399.

(457) البيان والتبيين ج1، ص 157.

(458) الصحاح ج6، ص2401.

(459) نفسه ج4، ص 1509.

لولا الريح أسمِع أهلُ حجرٍ   صليلَ البيض تقرع بالذكور

قال الجاحظ: الصليل: صوت الحديد هنا. فتقول صلصلة اللجام: صوته إذا ضوعف، وتصَلْصَلَ الحلى، أي صوت[460].

حرف الضاد

ضجم: الضجم

قال النمر بن تولب في شنعة أشداق الجمل:

كم ضربةٍ لك تحكي فا قُراسية   من المصاعب في أشداقه شَنَعُ

قال: القراسية: بعير أضجم، والضجم: اعوجاج في الفم، وهي في الصحاح بمعنى العوَج أيضاً. وتضاجم الأمر بينهم، إذا اختلف، والضجم: أن يميل الأنف إلى جانبي الوجه، والرجلُ أضجم. والضجم أيضاً: اعوجاج أحد المنكبين، والمتضاجم: المعوج الفم[461].

ضمن: الضمنه

وردت هذه الكلمة في وصف الأعرابي لعبد الملك بن مروان عن أطيب الطعام فقال "معتبطِه غير ضمنة"

قال الجاحظ: المعتبطِه: المنحورة من غير داء، غير ضمنة: غير مريضة[462].

وجاء في الصحاح: الضُمنة من قولك: كانت ضُمنة فلان أربعة أشهر، أي مرضه، ورجلٌ ضمن وهو الذي به الزمانة في جسده من بلاءٍ أو كسرٍ أو غيره[463].

ضوى: ضاوية الأعراق

أزرى بسعيك إن كنت امرءاً جِمقاً   من نسل ضاوية الأعراق محماق

قال الجاحظ: ضاوية الأعراق، أي ضعيفة الأعراق نحيفتها.

---

(460) الصحاح ج5، ص 1745.
(461) نفسه ج5، ص 1971.
(462) البيان والتبيين ج1، 286.
(463) الصحاح ج6، ص 2155.

قال: رجل ضاوٍ وفيه ضاوية، إذا كان نحيفاً ضليل الجسم، وجاء في الحـديث "اغتربوا ولا تضوُوا" أي لا يتزوج الرجل القرابة القريبة، فجئ ولده ضـاوياً،والفعل منه: ضوى: يضوي، ضواً.

وفي الصحاح: الضوى: الهُزال، وغلام ضاوي، وزنه فاعول، إذا كان نحيفـاً قليل الجسم، وفي الحديث "اغتربوا ولا تضووا" أي تزوجـوا فـي الأجنبيـات، ولا تتزوجوا في العمومة، وذلك أن العرب تزعم أن ولد الرجل من قرابته يجئ ضـاوياً نحيفاً غير أنه يجئ كريماً على طبع قومه(464).

---

(464) الصحاح ج6، ض 2410.

المبحث الثاني

الألفاظ الفارسية

الصلات العربية الفارسية:

بسط العرب نفوذهم على معظم أقطار الدولة الفارسية منذ فجر الإسلام، وذلك حينما تم استيلاؤهم على "نهاوند" الذي عرف بفتح الفتوح[465]. في عهد الخليفة عمر بن الخطاب سنة 21هـ، وبعد الاستيلاء على نهاوند اتجهوا إلى الأراضي الشرقية لدولة فارس. فسار نعيم بن مقرن إلى همذان حيث بلغه تجميع الفرس فأوقع بهم الهزيمة[466]. وعلى الرغم من أن الخليفة عمر قد سره اتساع رقعة دولته في الشرق إلا أنه مع ذلك كان لا يأمن انتقاض بعض البلاد فكتب إلى الأحنف بن قيس في خراسان يقول "أما بعد فلا تجوزن النهر واقتصر على ما دونه، وقد عرفتم بأي شيء دخلتم على خراسان فداوموا على الذي دخلتم به يدم لكم النصر وإياكم أن تعبروا فتنفضوا[467].

أما في عهد بني العباس فقد استعان العباسيون بالفرس في بناء الدولة العباسية، فكانوا لا يتحرجون في توليتهم أرقى مناصب الدولة، فاتخذوا في بادئ الأمر "أبا سلمة الحلال" وزيراً لهم –وهو مولى فارسي-، ولما ولي المنصور الخلافة قلد أبو أيوب المورياني الوزارة –وهو فارسي من موريان إحدى قرى الأهواز-، واتخذ المهدي العباسي يعقوب بن داود وزيراً له – وهو من الموالي- وفوض إليه أمور الدولة كلها، وقدمه على جميع الناس، فعلا شأنه في الدولة وأظهر انحيازه إلى الزيدية، فقربهم إليه وولاهم بعض أمور الخلافة في المشرق، في ذلك يقول الشاعر بشار بن برد[468]:

بني أمية هبوا طال نومكم ... إن الخليفة يعقوب بن داؤد

---

[465] البلاذري أحمد بن يحيى ابن جابر ، فتحوح البلدان ، ط القاهرة 1932م ص300.

[466] ابن الأثير ، علي بن أحمد بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، ط القاهرة 1303، ج3،ص 7.

[467] الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، تاريخ الأمم والملوك، ط1 القاهرة 1939م. ج3 ص 245.

[468] ابن طبا طبا محمد بن علي ، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ط2، مكتبة المعارف القاهرة 1938 ص 160.

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خلافة الله بين الناي والعود

وقد عبر الشاعر بقوله هذا عما عرف عن المهدي من انشغاله باللهو وسـمع الأغاني وتركه أمور الدولة في يد يعقوب بن داؤد[469].

كان من نتيجة اتجاه الحكم وجهة الشرق أن تأثر العرب بأساليب حكم الفـرس وبمظاهر حياة جديدة مما اضطر بعض خلفاء بني العباس خاصة إلى التعرف علـى تاريخ الفرس والإطلاع على أخبار ملوكهم ومواعظ حكمائهم، وقد حم المأمون فـي بلاد فارس ردحاً من الزمان واستعان بالفرس على أخيه الأمين في بغداد.

ولقد تطورت نظم الحياة الاجتماعية ومظاهر الحضارة، وشاع الترف واللهـو والطرب، وتعددت الأزياء والفرش والأثاثات والآنية، وكان كثير مـن هـذا غيـر معروف للعرب، فسموها بأسمائها الفارسية أو اليونانية أو الهندية، أو غيـروا فـي المفردة بما يلائم نطقهم العربي وذلك إما بإبدال حرف مكان آخر، وإما بزيادة حرف أو حرفين، وإما بتغيير البناء كله ليصير من أبنية العرب ويتمكن من الاشتقاق منه.

ومن الملاحظ أيضاً أن العربي أخذ أسماء ولم يأخذ أفعالا أو حروفاً وحينمـا احتاج إلى أفعالها اشتق منها فمن ذلك: "لجام" قال: ألجمت الفرس. ومن ديوان: دون الحساب. ويمكن حصر هذه الأسماء فهي إما أسماء نبات، أو حيوان، أو معـادن، أو آلات أو مأكولات أو مشروبات أو عادات مما لم يكن يعرفها العربي من قبل[470].

قد اهتم الجواليقي بهذا الجانب في مؤلفه "المعرب من الكلام الأعجمي" وأفـرد باباً لذلك سماه، باب: "معرفة مذاهب العرب في استعمال الأعجمي" قال: "أعلم أنهـم كثيراً ما يجترئون على تغيير الأسماء الأعجمية إذا استعملوها، فيبدلون الحروف التي ليست من حروفهم إلى أقربها مخرجاً، وربما أبدلوا ما بَعُد مخرجه أيضاً، والإبـدال لازم لئلا يدخلوا في كلامهم ما ليس من حروفهم، وربما غيروا البنـاء مـن الكـلام الفارسي إلى أبنية العرب. وهذا التغيير يكون بإبدال حرف مـن حـرف، أو زيـادة حرف، أو نقصان حرف أو إبدال حركة بحركة، أو إسكان متحرك، أو تحريك ساكن.

([469]) رسائل الجاحظ، جمع ونشر حسن السندوبي. ط1، 1933. مصر. المطبعة الرحمانية ص 13.
([470]) مقال للدكتور محمد التونجي، بمجلة اللسان العربي، الصلات العربية الفارسية، ص159.

وربما تركوا الحرف على حالة لم يغيروه[471]" وكذلك يلاحظ وجـود مـدن عربيـة أسماؤها فارسية مثل: "بغداد" ومعناها "أعطى الله" أو "الله المعطي" "البصرة" ومعناها "بعد الطريق" وكانت "بس راه" و"الأنبار" ومعناها "المخزن" ثم حـورت إلـى عنبـر "القيروان" ومعناها "القافلة".

وانتشار الثقافة الفارسية في ذلك الوقت جعل الجاحظ يتأثر بها تـأثراً كبيـراً يلحظ ذلك في استخدامه الألفاظ الفارسية في جميع مؤلفاته يذكر منهـا علـى سـبيل المثال ما يلي:

أولاً: ذكر بعض الألفاظ في كتاب البيان والتبيين:

اللفظة	معناها عند الجاحظ
1- خربز	البطيخ
2- الروذق	السميط[472]
3- الأشترنج	الشطرنج
4- بال	المسحاة[473]
5- باذروج	الحوك[474]
6- الجهارسوك	مربعة[475]
7- وازار	السوق/ السويقة
8- الخيار	القثاء
9- ويذي	المجزوم

---

(471) المعرب ص 7.
(472) السميط: ضرب من الآجر مقام بعضه قوله بعض
(473) المسحاة: الة تستخدم للقش أو الجرف.
(474) البقلة الجمقاء.
(475) التقاء أربع طرق.

الجهارسوك: والتي فسرها الجاحظ بمعنى مربعة، قال فيها الجواليقي: "قال أبو سعيد: سمعت العرب تقول للأربعة "إستار" لأنه بالفارسية "جهار" فـأعربوه فقـالوا "استار": قال جرير[476]:

إن الفرزدق والبعيث وأمه وأبا الفرزدق شر ما أستار

قال أبو عبيدة: "الأستار وزن أربعة، فهم أربعـة، وهـم شـر كلهـم، وأراد بالأستار"جهار" بالفارسية[477].

وقال الأعشى:

توفي ليوم وفي ليلـة ثمانين تحسبُ إستارهـا

قال الجواليقي: "تُوَفي" يعني القارورة الكبيرة، إذا شربوا بالصغير ثمانين يكون بالكبير أربعة كل عشرين واحد.

قال: "الإستار" رابع أربعة ورابع القوم أستارهم[478].

أما "بال" التي شرحها الجاحظ بمعنى "مسحاة"[479]، فقـد ذكرهـا الجـواليقي بقوله[480]:

"قال أبو عبيدة وابن قتيبة: "البالة": الجراب –وهو بالفارسية "باله" وقد تكلمـت به العرب، قال أبو ذؤيب:

فأقسم ما إن بالةٌ لطِميةٌ يفوحُ بباب الفارسيين بابُها

وقال أيضاً:

كأن عليها بالة لطمية لها من خلال الدأيتين أريج

و"الباله" أصل وعاءُ المسك، ثم قيل للجراب الذي يكون فيه الطيب" ولطميـة" منسوبة إلى "اللطيمة"، وهي: العير التي تحمل الطيب، وقوله "من خـلال الـدأيتين" يريد: من بين الدأيتين، وأراد بالدأيتين: الجنبين. والدأية: مقط الأضلاع والشراسيف.

([476]) النقائض: أورية ص 334. ديوان جرير ص 317.
([477]) اللسان ج6، ص 8.
([478]) المعرَّب ، ص 42.
([479]) البيان والتبيين ج1، ص 9.
([480]) المعرب، ص 52.

قال الأزهري: الباله سمكة تكون بالبحر الأعظم يبلغ طولها خمسين ذراعـاً، يقال لها العنبر، وليست بعربية، لكنها أعربت فقيل "بال".

أما "الخزبر" بمعنى "البطيخ" فقد ورد ذكرها في الحديث عن أنس قـال[481]: "رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يجمع بين الخِزِبر والرطب، وهو البطيخ بالفارسية. وكلمة "الرزدق" والتي فسرها الجاحظ "بالسميط" قال فيها الجواليقي: "الرزدق" السطر الممدود، وهو فارسي معرب، واصله بالفارسية "رسته" قال رؤبة[482]:

ضوابعاً نرمي بهن الرزدقا[483]

الشطرنج: فارسي معرب، وبعضهم يكسر شينه ليكون على مثال مـن أمثلـة العرب، كـ "جِردَل"[484].

الألفاظ الفارسية التي وردت في كتاب الحيوان:

وردت ألفاظ متعددة بالفارسية في كتاب الحيوان شرح الجاحظ بعضها وتـرك الآخر دون شرح أي استعمله في سياق حديثه كاستعماله للعربية كأنه يعتقد أن هـذه اللغة معروفة لجميع الناس فما ورد غير مشروح من هذه الألفاظ ترك بعضه وأشـير إلى موضعه بكتاب الحيوان وشُرح معظمة بالاستعانة بالدكتور عبد الله محمد أحمـد المشرف على هذه الرسالة والذي له اختصاص في هذا المجال:

الكلمة	أصلها	تفسيرها	الجزء	الصفحة
1- فاذو	فارسي	اسم حشرة	3	271
2- قرب آمد	فارسي	صوت طائر	3	515
3- كارس	يوناني	أحد العوالم الستة	1	37
4- كاو	فارسي	بقرة	1	143
5- كاوماش	فارسي	جاموس	7/5/1	242/459/152
6- كفتار	فارسي	الضبع	6	452

---

(481) الحديث رواه أحمد في المسند بإسناد صحيح بلفظ "يجمع بين الرطب والحزيز". انظر : المسند 142/3.
(482) البيان في "اللسان" 406/11 وهو البيت الثاني والستون من مز طويل في ديوانه "مجموع أشعار العرب" ج3 ص108-115.
(483) الضوابع: وصف للخيل يقال "ضبع الفرس" أي لوى حافره إلى ضبعه.
(484) المعرب ص 209.

7- كه	فارسي	الجبل	5	69
8- كهيان	فارسي	العرب	5	69
9- مرغ	فارسي	طائر	7/1	121/143
10- نمكسود	فارسي	المملح أو المقدود	1	229
11- يخ	فارسي	الثلج	5/3	526/371
12- أشتر	فارسي	بعير	1	143
13-أشتركاوبلنك	فارسي	الزرافة	7/1	241/143
14- اشترمرغ	فارسي	النعامة	7/3/1	241/321/143
15- أفوريسموا	يوناني	كتاب الفصول	1	102
16- أناهيد	فارسي	الزهرة[485]	6/1	198/187
17- باذاماك	فارسي	شجر الخلاف	3	457
18- بلنك	فارسي	الضبع	1	143
19- ترش شيرين	فارسي	حلو حامض	1	143
20- خوك	فارسي	خنزير	4	68
21- داوداذ	فارسي	الشيطان	3	541
22- دد	فارسي	قملة النسر	5	370/398/392
23- روزستهار	فارسي	يوم القيامة[486]	3	370
24- روى كفتار	فارسي	وجه الضبع	6	516
25- سمارو	فارسي	اسم طائر	3	516
26- سيمرغ	فارسي	اسم العنقاء	7	120
27-شب كور[487]	فارسي	الأعشى	3	535
28- الشبور	فارسي	البوق	4	27
29- طاغريسي	يوناني	اسم حيوان	1	184
30- مارماهي	فارسي	ثعبان الماء	4	129
31-بيمارستان	فارسي	المشفى	5	353
32- سكنجبين	فارسي	خل ممذوج مع سكر	5	146
33- اسفيد باجات	فارسي	باج: الخراج/ الجزية/ الضريبة/ الرشوة	2	250

(485) أناهيتاالزهرة، سيّارة بعدها عن الشمس 108 مليون كيلو متر تقريبا وهي شديدة اللمعان.
(486) روز ستاخير في الفارسية الحديثة.
(487) شب: بمعنى الليل مذكور بمعنى : أعمى. أي العمى الليلي.

وهناك ألفاظ لم تفسر لاختلافها عن الفارسية الحديثة وذلك لما طرأ على هذه اللغة من التطور منذ عهـد الجاحظ إلى الآن، وبذلك تكون الإشارة إلى موضعها في كتاب الحيوان فقط دون شرح ومنها ما يلي:-

الكلمة	أصلها	الجزء	الصفحة
1- أجدهاني	فارسي	4	494
2- باضو زكي	فارسي	5	477
3- أبرسارس	يوناني	3	370
4- أبرمارس	يوناني	3	370
5- بايكير	فارسي	3	218
6- بربهار	فارسي	1	284
7- برستوج	فارسي	3	259
8- بزماورد	فارسي	2	249
9- بنكامات	فارسي	2	379
10- بنبك	فارسي	1	31
11- دوساخ	فارسي	3	219
12- سورا سنب	فارس	7	120

المبحث الأول
حدّ البيان

معنى البيان في اللغة والاصطلاح:

ذكر ابن منظور في لسان العرب أن البيان هو: "ما بين به الشيء من الدلالـة وغيرها. وبان الشيء بياناً أتضح فهو بين. والجمع أبيناء. ودلل على معنـى البيـان بالبيت التالي:

لو دب ذر فوق ضاحي جلدها   لأبان من آثارهن حدور

كذلك قال "إن البيان هو الفصاحة واللسن، وكلام بين فصيح، والبيان إفـصاح مع ذكاء. والبين من الرجال الفصيح السمح اللسان، وفلان أبين من فلان أي أفـصح منه، وأوضح كلاماً.

وروى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قـال: "إن مـن البيـان لسحرا، وإن من الشعر لحكما[488]" والبيان هو إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وهو مـن الفهم وذكاء القلب مع اللسان وأصله الكشف والظهور.

أما التبيين فيعني الإيضاح أيضاً، وقوله تعالى "ولا تخروجهن من بيـوتهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة[489]" أي ظاهرة متبينة، والتبيان مصدر وهو شاذ لأن المصادر إنما تجئ على التفعال بالفتح، ويعني الكشف والإيضاح[490].

ثم نقله العرف إلى ما يتبين به من الدلالة وغيرها، ونقلـه الاصـطلاح إلـى الفصاحة وإلى ملكة أو أصول يعرف بها إيراد المعنى الواحد في صور مختلفة.

والبيان هو التعبير عما في الضمير، وإفهام الغير، وقيل هـو الكـشف عـن الشيء، وهو أعم من النطق، وقد يطلق على نفس التبليغ[491]، كما في قوله تعالى:

([488]) أبو داؤد: سليمان الأشعث، صحيح سنن المصطفى، ط. دار الكاتب العربي بيروت. د.ت ج2 ص315

([489]) سورة النساء آية 19.

([490]) لسان العرب مادة (ب ي ن)

([491]) الكوفي: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسين: الكليات. ط. مؤسسة الرسالة – بيروت 1992، ص230.

(وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم)[492]".

وبان له الشيء وتبين، وأبان واستبان وجاء ببيان ذلك وبينته أي بحجته، ومن بينات الكرم التواضع ورجل بين فصيح ذو بيان[493].

تطور الدراسات البيانية:

اشتهر العرب منذ جاهليتهم بمقدرتهم البيانية وبفصاحتهم وبلاغتهم، وكانت لهم قصائد وخطب وحكم وأمثال وأحاديث وقصص، ونزل القرآن على نمط أساليبهم في البيان والبلاغة ووصفهم بالبيان والدهاء والعناد واللدد في الخصومة، فقـال تعـالى: (فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد)[494] وقال تعالى: (فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لدا) [495]. وتحداهم القرآن بأن يأتوا بمثله فما استطاعوا مع ما عرفوا به من بلاغة وفصاحة أن يحتذوا مثاله أبداً. وظل التحدي باقياً أبد الـدهر، ولن يستطيع أنس ولا جن أن يأتي بما يماثل القرآن. وكان هذا البيان دافعـاً للعلمـاء لدراسة القرآن وكلام العرب منظومه ومنثوره للوقوف على فنـه، والكـشف عـن أسراره، ومعرفة مظاهر القوة والجمال فيه. وإذا تتبعت تلك الدراسات البيانية فإنـك تجد أن أول من حاول ضم شتاتها هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، في كتابيـه "البيان والحيوان".

لعل مما أوحى للجاحظ بالكتابة في البيان العربي هو ظهور الحركة الشعوبية، وازدياد نشاطها في عهده، والشعوبية فرقة تصغر شأن العرب ولا ترى لهم فـضلاً ولا مزية على غيرهم وتهاجمهم وتسعى للحط من قدرهم والانتقاص مـن مكـانتهم، وهم يجردون العرب من البلاغة والبيان وينسبونها للفرس، ويعيبون علـيهم رعـي الإبل والغنم وحمل العصا أثناء الخطب[496]. فأراد الجاحظ أن يتصدى لهذا الاعتداء

---

(492) سورة إبراهيم آية 40.
(493) الزمخشري: جار الله أبو القاسم محمد بن عمر: أساس البلاغة. ط الهيئة المصرية العامة 1985 ج1 ص74.
(494)
(495)
(496) البيان والتبيين ، ج3، ص 14.

وأن يثبت أصالة البيان العربي في كتابيه. واستعان في رده بالقرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وكلام الصحابة رضوان الله عليهم، واستعان أيضاً بكلام العرب نظمه ونثره، وظل يضفي على ذلك من آرائه وأفكاره، مظهراً مقدرته البيانية ومنطقه البارع، وأسلوبه البديع، وعندما يكتب الجاحظ عن البيان العربي فإن ذلك لا يعني أنه يقصره على مباحث علم البيان الثلاثة وإنما يعني به معنى شاملاً وعاماً هدفه الكشف والإظهار والإبانة عما في النفس، فيقول: "البيان اسم جامع لكل شيء كشف اك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله، كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[497].

هذا المعنى العام للبيان عند الجاحظ يضم دراسة مستفيضة لفنون البيان التي انحصرت في التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية. وأصبحت هذه الدراسة نواة يرجع إليها العلماء والنقاد من بعد الجاحظ. ولكنها دراسة تفتقد الترتيب والتنظيم وذلك بسبب المنهج الاستطرادي الذي يسلكه الجاحظ ليدفع به السأم والملل عن نفس القارئ والسامع. ثم تطورت الدراسات البيانية من بعد الجاحظ وكان لابن قتيبة دور في هذا المجال وهو من معاصري الجاحظ، حيث يستطيع الجاحظ في كتابيه "الشعر والشعراء"، و"عيون الأخبار" أن يهتدي إلى ما يريده من غير مشقة.

تطورت الدراسات البيانية إلى قرب نهاية القرن الثالث الهجري، ففي سنة أربع وسبعين ومائتين ظهر كتاب البديع لعبد الله بن المعتز وهو أول من أفرد للبديع كتاباً خاصاً، وجاء من بعده عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري بكتابيه "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" فكان كتاب بن المعتز مصدراً له في تأليفه

([497]) البيان والتبيين، ج1، ص 76.

ومصدراً لقدامى بن جعفر في كتابه "نقد الشعر" وللآمدي في "الموازنة" ولأبي هلال في "الصناعتين" ولابن رشيق في "العمدة".

نتج الاهتمام بالدراسات البيانية من الاهتمام بإعجاز القرآن حيث نجد هؤلاء المؤلفين يدعمون حججهم بالقرآن الكريم وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم، ثم يعقبون ذلك بكلام العرب.

الجاحظ والبيان العربي:-

جاء أكثر حديث الجاحظ عن البيان في كتابه البيان والتبيين، كما أن أهمية البيان هي الهدف من تأليف الجاحظ لهذا الكتاب وذلك من خلال ما يجده المتصفح لكتاب البيان والتبيين، حيث يجد في كل جزء من أجزاء الكتاب الثلاثة حديث مستفيض عن مفهوم البيان وأنواعه وافات اللسان وغيرها من العلل التي تكون سبباً في نقصان البيان، وقد أفرد له باباً خاصاً سماه باب البيان حيث قال: "وكان الحق أن يكون هذا الباب في أول هذا الكتاب ولكنا أخرناه لبعض التدبير[498].

إن معنى البيان الذي يجعله فصاحة ولسناً هو الذي قصد إليه الجاحظ حينما ألف كتابه "البيان والتبيين"، فقد بدأه بما يلائم اسم الكتاب، فتعوذ بالله من العي والحصر. والسلاطة والهذر. وهذا يدل على أن معنى البيان عنده هو الاقتدار على الكشف عما في النفس من غير سلاطة وهذر، ومن غير حبسة ولاعي ولا حصر.

وهو ملكة يهبها الله لمن يشاء من عباده فيستطيع أن يصدع بحجته في المقامات والأحوال التي تقتضي الإبانة والإفصاح من ذلاقة اللسان وقوة القلب ورباطة الجأش والقدرة على التصرف في القول. وقد كان ذلك كذلك عند العرب في بداوتهم الجاهلية. ولذلك كانت معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم كتاباً مبيناً والبيان عند علماء البلاغة ابتداءً بالعالم الجليل الجرجاني وبعده السكاكي والقزويني كان يطلق على مباحث البلاغة الثلاثة وهي علم المعاني وعلم البيان والبديع.

([498]) البيان والتبيين، ج1، ص100.

أورد الجاحظ عدد من الآيات التي تحمل معنى البيان، وذلك حـين قـال[499]: "وذكر الله تبارك وتعالى جميل بلائه في تعليم البيان، وعظيم نعمته في تقويم اللسان، فقال: "الرحمن. علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان"[500]، وقال تعالى "هـذا بيـان للناس"[501] ومدح القرآن بالبيان والإفصاح، وبحسن التفـصيل والإيـضاح وبجـودة الإفهام وحكمة الإبلاغ وسماه فرقاناً، كما سماه قرآناً، وقال "عربي مبين"[502]، وقـال "وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً"[503]، وقال: "وكل شيء فصلناه تفصيلا"[504].

والحكمة من إرسال الرسل بلسان أقوامهم هو البيان وذلك في قوله تعالى "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم"[505] لأن مدار الأمر على البيان والتبيـين وعلى الإفهام والتفهيم وكل ما كان اللسان أبين كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد، والمفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل، إلا أن المفهم أفضل من المتفهم وكذلك المعلم والتعلم[506].

وقد ذكر الجاحظ أن الله سبحانه وتعالى ضرب مثلاً لعي اللسان ورداءة البيان حين أشبه أهله بالنساء والولدان فقال تعالى " أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين"[507] كذلك قال الجاحظ "وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور كان أنفع وأنجع، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه، ويدعو إليه ويحث عليه، بذلك نطق القـرآن، وبذلك تفاخرت العرب وتفاضلت أصناف العجم[508]".

---

(499) البيان والتبيين ج1 ص12
(500) سورة الرحمن ، الآية "1- 4"
(501) سورة آل عمران ، آية "138"
(502) سورة الشعراء ، آية "195"
(503) سورة طه، آية "113ط
(504) سورة الإسراء ، آية "12"
(505) سورة إبراهيم ، آية "4"
(506) البيان والتبيين، ج1، ص 12.
(507) الزخرف ، آية "18"
(508) البيان والتبيين، ج1 ص75.

كما عرف البيان بأنه "اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضى السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع[(509)]".

وقالوا: "البيان بصر والعي عمى، كما أن العلم بصر والجهل عمى، والبيان من نتاج العلم والعي من نتاج الجهل[(510)]" وقال سهل بن هارون: العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل والبيان ترجمان العلم[(511)].

وقد دافع الجاحظ عن العرب وبلاغتهم وبيانهم، وأثبت أصالة البيان عندهم وأنه فيهم طبع وسليقة، وحاول هدم حجج الشعوبية الذين أثبتوا أصالة جميع الأمم في الخطابة بقولهم: "الخطابة شيء في جميع الأمم" فقد رد الجاحظ بقوله، "وجملة القول إنا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس" وقال أيضاً "وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه الهام وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا اجالة فكر، ولا استعانة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام ....، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالاً، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً...، إلى قوله: وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع ... إلى قوله "ونحن إذا أدعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والأسجاع ومن المزدوج وما لا يزدوج، فمعنا العلم أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة، والرونق العجيب والسبك والنحت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول مثل ذلك إلا في اليسير والنبذ القليل"[(512)]

([509]) البيان والتبيين ج1 ص76.
([510]) السابق ج3 ص11.
([511]) السابق ج1
([512]) البيان والتبيين ج2، ص26-27.

أنواع البيان:

نقل الجاحظ عن جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني قولهم: "المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم المختلجة في نفوسهم، والمتصلة في خواطرهم مستورة خفية وبعيدة وحشية ....، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه وخليطه وإنما تحيا تلك المعاني في ذكرهم لها وأخبارهم عنها، واستعمالهم إياها[513].

كما عرف الجاحظ البيان بأنه اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، تجده يحصر أنواع البيان في خمسة أصناف من الدلالات لا تزيد ولا تنقص[514].

أولها اللفظ ثم الإشارة ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة، والنصبة هي الحال الدالة، التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصر عن تلك الدلالات[515].

قال: "ثم قسم الأقسام ورتب المحسوسات، وحصل الموجودات، فجعل اللفظ للسامع، وجعل الإشارة للناظر واللامس وأشرك الناظر واللامس في معرفة العقد إلا. فضل الله به نصيب الناظر في ذلك على قدر نصيب اللامس وجعل الخط دليلاً على ما غاب من حوائجه عنه، وسبباً موصولاً بينه وبين أعوانه[516].

قال[517] في فضل القلم:

"ولما كانت الحاجة إلى بيان اللسان حاجة دائمة واكدة، وراهنة ثابتة، وكانت الحاجة إلى بيان القلم أمراً يكون في الغيبة وعن النائبة، إلا ما خصت به الدواوين قدموا اللسان على القلم، فاللسان الآن إنما هو في منافع اليد، والمرافق التي فيها، والحاجات التي تبلغها. وقال[518] كذلك:

"واللسان يصنع في جوبة الفم وهوائه الذي في جوف الفم وفي خارجه وفي لهاته، وباطن أسنانه، مثل ما يصنع القلم في المداد".

---

(513) البيان والتبيين ج1 ص27.
(514) السابق ج1 ص75.
(515) السابق ج1 ص 76.
(516) الحيوان ج1 ص 46.
(517) نفسه ص49.
(518) الحيوان، ج1، ص 70.

تفصيل أنواع الدلالات:

1-**الدلالة اللفظية**: وهي نطق اللسان، ويتضح اهتمام الجاحظ بهذا النوع من الدلالة من خلال تعريفه بالصوت الذي تقدم الحديث عنه والذي وصفه بأنه آلة اللفظ.

2- الإشارة:

تكون الإشارة باليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب، إذا تباعد الشخصان، وبالثوب وبالسيف، وقد يتهدد رافع السيف والسوط، فيكون زاجراً، ومانعاً رادعاً، ويكون وعيداً وتحذيراً.

وقد ذكر الجاحظ أن الإشارة واللفظ شريكان، وقال: "ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط. وبعد فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحلية موصوفة على اختلافها في طبقاتها ودلالاتها. وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مرفق كبير، ومعونة حاضرة، في أمور يسندها بعض الناس من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص، ولجهلوا هذا الباب البتة[519]".

ولأهمية الإشارة والتي اهتم بها المحدثون أيضاً وأفردوا لها دراسات متخصصة وسموها لغة- لغة الإشارة- أو اللغة الإشارية، أورد الجاحظ أبياتاً لبعض الشعراء[520] يشيرون فيها إلى تلك اللغة المتداولة بين فئات كثيرة في المجتمع، ومنها قول الشاعر:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة مذعور ولم تتكلم
فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا وأهلاً وسهلاً بالحبيب المتيم

وكذلك قول أبي العتاهية:

وللقلب على القلب دليل حين يلقاه

---

(519) السابق ج1 ص78.
(520) انظر: البيان والتبيين ج1 ص78-79.

وفي الناس من الناس مقاييس وأشباه

ترى عينها عيني فتعرف وحيها وتعرف عيني ما به الوحي يرجع

وقال آخر:

وعين الفتى تبدي الذي في ضميره وتعرف بالنجوى الحديث المعما

وقال آخر:

العين تبدي الذي في نفس صاحبها من المحبـ ـة أو بغض إذا كانا

والعين تنطق والأفواه صامتـ ـة حتى ترى من ضمير القلب تبيانا

وبالإضافة إلى ذلك فقد ذكر الجاحظ أن مبلغ الإشارة من مبلغ الـصوت(521). أي أنها تؤدي دوراً لا يقل عن الدور الذي يؤديه الصوت.

3- الخط:

قال الجاحظ: "فأما الخط فمما ذكر الله عز وجل في كتابه من فضيلة الخط والأنعـام بمنافع الكتاب، وقوله لنبيه عليه السلام.

"اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم"(522) وأقسم به في كتابه المنزل على نبيه المرسل، حيث قال "ن. والقلم وما يسطرون"(523).

ولذلك قالوا: القلم أحد اللسانين، كما قالوا: القلم أبقى أثراً، واللسان أكثر هذراً.

وقال عبد الرحمن بن كيسان: استعمال القلم أجدر أن يحـض الـذهن علـى تصحيح الكتاب، من استعمال اللسان على تصحيح الكلام. وقالوا: اللـسان مقـصور على القريب الحاضر، والقلم مطلق في الشاهد والغائب، وهو للغابر الحـائن، مثلـه للقائم الراهن. والكتاب يقرأ بكل مكان، ويدرس في كل زمان واللسان لا يعدو سامعه، ولا يتجاوزه إلى غيره(524).

---

(521) السابق ج1 ص79.
(522) العلق ، آية "4".
(523) القلم، آية "1".
(524) البيان والتبيين ج1 ص80.

4- العقد والنصبة:

قال الجاحظ: أما القول في العقد، وهو الحساب دون اللفظ والخط، فالدليل على فضيلته، وعظم قدر الانتفاع به، قول الله عز وجل: "فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم"[525]. وقال جل وعز "الرحمن علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان. الشمس والقمر بحسبان"[526] وقال جل وعز، "هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق"[527] وقال: "وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب"[528]

والحساب يشتمل على معانٍ كثيرة ومنافع جليلة، ولولا معرفة العباد بمعنى الحساب في الدنيا لما فهموا عن الله عز وجل معنى الحساب في الآخرة. وفي عدم اللفظ وفساد الخط والجهل بالعقد، فساد جلّ النعم، وفقدان جمهور المنافع، واختلال كلّ ما جعله الله عز وجل لنا قواماً، ومصلحة ونظاماً[529].

أما النصبة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد. وذلك ظاهر في خلق السماوات والأرض، وكل صامت وناطق، وجامد ونام، ومقيم وظاعن، وزائد وناقص، فالدلالة في الموات الجامد، كالدلالة التي في الحيوان الناطق فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء معربة من جهة البرهان لذلك قال الفضل بن عيسى بن أبان:-

"سل الأرض فقل: من شق أنهارك، وغرس أشجارك وجني ثمارك فإن لم تجبك حواراً، وأجابتك اعتباراً"

وقال خطيب من الخطباء، حين قام على سرير الأسكندر وهو ميت "الأسكندر كان أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ من أمس".

---

(525) الأنعام ، آية "96".
(526) سورة الرحمن، آية "1 – 4"
(527) سورة يونس ، آية "5".
(528) سورة الإسراء ، آية "12".
(529) السابق نفس الجزء ونفس الصفحة.

ومتى دلّ الشيء على معنى فقد أخبر عنه وإن كان صامتاً وأشـار إليـه وإن كان ساكناً[530].

وفي فضل البيان أورد الجاحظ قول على بن الحسين بن علي رحمه الله قال " لو كان الناس يعرفون جملة الحال في فضل الاستبانة، وجملة الحـال فـي صـواب التبيين، لأعربوا عن كل ما تخلج في صدورهم ولوجدوا من برد اليقين ما يغنيهم عن المنازعة إلى كل حال سوى حالهم[531]".

وكذلك فرق الجاحظ بين مصطلحي البيان والبلاغة، فغاية البيان عنـده هـي الفهم والإفهام بأي دلالة من دلالات اللفظ أو الإشارة أو الخط أو العقد.

أما البلاغة فتعني الأدب والتعبير، وعلى هذا يكون مفهوم البيان عنده أعم من مفهوم البلاغة. وفي تعريف البلاغة جمع طائفة من الآراء تبـين تـصور العـرب وغيرهم من الأمم لمعناها:

- فالبلاغة عند الفارسي معرفة الفصل من الوصل.
- وعند اليوناني تصحيح الأقسام واختيار الكلام.
- وعند الرومي حسن الإقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة.
- وعند الهندي وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة.

وقيمة البيان والأدب. في رأي الجاحظ- ترجع إلى إقامة الوزن وتمييز اللفظ وسهولة المخرج[532].

والعرب تتوسع في كلامها وبأي شيء تفاهم الناس فهو بيـان إلا أن بعـضه أحسن من بعض، والبيان عند الجاحظ ضروري للاجتماع وهو البيان الذي جعله الله تعالى سبباً فيما بينهم ومعبراً عن حقائق حاجاتهم و....، ولأن أكثر الناس عن الناس أفهم منهم عن الاشباح الماثلة والأجسام الجامدة والأجرام الساكنة التي لا يتعرف مـا فيها من دقائق الحكمة وكنوز الآداب وينابيع العلم، إلا بالعقل الثاقب اللطيف، وبالأداة

([530]) البيان والتبيين ج1 ص81-82.
([531]) السابق ج1 ص 84.
([532]) البيان والتبيين ج1 ص 99.

الكاملة. والصبي عن الصبي أفهم، وكذلك العالم والعالم، والجاهل والجاهل، وقال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم "ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً"[533] فلأن الإنسان عن الإنسان أفهم وطباعه بطباعه أنس[534].

([533]) الأنعام ، آية "9".
([534]) الحيوان ، ج5، ص 287.

المبحث الثاني
عيوب البيان

كل ما ذكر آنفاً من عيوب اللسان، يضر بالبيان، إلا أن الجاحظ ينظـر إلـى عيوب أخرى غير التي ذكرت بأنها أكثر فساداً للبيان، ولكراهيته أن يصاب المـرء بمثل هذه العيوب، تجده يبتدر كتابه البيان والتبيين بالتعوذ من شرها ومنها:

العي والحصر والسلاطة والهذر، فتراه يفتتح كتابه بقوله: "اللهم إنا نعوذ بـك من فتنة العمل نعوذ بك من التكلف لما لا نحسن، كما نعوذ بك من العجب بما نحسن، ونعوذ بك من السلاطة والهذر، كما نعوذ بك من العي والحصر[535]".

وكذلك قال:

"وهم وإن كانوا يحبون البيـان والطلاقـة، والتحبيـر والبلاغـة والـتخلص والرشاقة، فإنهم كانوا يكرهون السلاطة والهذر والتكلف والإسهاب والإكثار، كما في ذلك من التزيد والمباهاة، واتباع الهوى، والمنافسة في الغلو، وكانوا يكرهون الفضول في البلاغة، لأن ذلك يدعو إلى السلاطة، والسلاطة تدعو إلى البذاء وكل مراء فـي الأرض فإنما هو من نتاج الفضول[536]".

والسلاطة تعني القهر، وقد سلطه الله فتسلط عليهم، والاسم سـلطة. والـسلط والسليط، الطويل اللسان، ورجل سليط أي فصيح حديد بين السلاطة. يقال هو أسلطهم لساناً، وامرأة سليطة أي صخابة وذلك إذا طال لسانها واشتد صخبها"[537]

والهذر هو الكلام الذي لا يعبأ به، هذر كلامه هذراً، كثر الخطأ والباطل فيه، والهذر الكثير الردئ. وقيل هو سقط الكلام. هذر الرجل في منطقـة يهـذر ويهَـذر هذراً، وفي حديث أم معبد "لا نذر ولا هذر" أي لا قليل ولا كثير[538]"

([535]) البيان والتبيين ج1 ص3.
([536]) السابق ج1، ص191.
([537]) لسان العرب مادة "س ل ط".
([538]) لسان العرب مادة "هذر"

قال أبو هلال العسكري، "الهذر هو الإسقاط في الكلام ولا يكون الكلام هـذراً حتى يكو فيه سقط قلّ أو كثر، وقال بعضهم: الهذر : كثرة الكلام"

أما الإسهاب فقد ذكر الجاحظ أن ناساً قالوا لابن عمر: أدع لنا الله بـدعوات. فقال:: "اللهم أرحمنا وعافنا وارزقنا" فقالوا: لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن. قال: نعـوذ بالله من الإسهاب[539]. وهو بسط الكلام مع قلة فائدة، لذا عد العسكري: الإسهاب عياً في اللسان[540]. ويقال للمرء: مًسهب، ومُسهَب، بفتح الهاء وكسرها –فيقـال رجـل مسهب، إذا أكثر الكلام وأطاله من غير طائل فيه وهو من هذا الجانب يختلـف عـن "الأطناب"، فالأطناب إطالة الكلام لغاية بلاغية والإسهاب بعيد عن هذا المعنى لذا يُعد عيباً من عيوب الكلام قال النابغة الذبياني:

غير عي ولا مُسهب [541]

وقال أبو الأسود الدؤلي في ذكر الإسهاب، يقولها في الحارث بن عبد الله ابن أبي ربيعة بن المغيرة ويقال له القباع[542].

أمير المؤمنين جزيت خيراً   أرحنا من قباع بني المغيرة
بلوناه ولمناه فأعيـــا   علينا ما يمر لنا مريـرة
على أن الفتى نكح أكـول   ومسهاب مذاهبه كثيـرة

والمسهب: الكثير الكلام: قال الجعدي *غير عي ولا مُسَهب *[543].

أما العي والحصر. فقد ورد في معجم الخليل قوله: عيي: والعي مصدر الغي، ورجل عَي بوزن فَعل، وعَيِي بوزن فعيلَ، قال العجاج:

* لا طائشٌ فاقٌ ولا عَيي

وقال آخر:

لنا صاحب لا عيي اللسان   فيسكت عنا ولا غافل

([539]) البيان والتبيين ج1 ص196.
([540]) القرون. أبو هلال: ص32.
([541]) اللسان "سهب" 458/10.
([542]) البيان والتبيين ج1 ص196.
([543]) العين ص452.

وقد عَي عن حجته عِياً، وعييت بهذا الأمر وعنه، إذا لم أهتد لوجهه[544].

أما الحصر: يقال حصر: حصِر حصراً: أي عي فلم يقدر على الكلام. وحصر صدر المرء: أي ضاق عن أمره حصراً. والحصر اعتقال البطن[545]. والحصر كل من امتنع من شيء لم يقدر عليه فقد حصر عنه، وقيل حصر لم يقدر على الكلام، وحصر صدره ضاق. والحصر: ضيق الصدر، وإذا ضاق الأمر على امرئ قيل حصر صدر المرء عن أهله يحصر حصراً. قال عز وجل "إن الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حضرت صدورهم أن يقاتلوكم"[546] معناه ضاقت صدورهم عن قتالكم وقتال قومهم وكل من بعل بشيء أو ضاق صدره بأمر فقد حصر[547].

ذكر الجاحظ أشعاراً قيلت في التعوذ منها[548]، مثل قول النمر بن تولب:

أعذني رب من حصر وعي ومن نفس أعالجها علاجاً.

وقال الهذلي:

ولا حصر بخطبته إذا ما عزت الخطب

وقال بشار:

وعي الفعال كعي المقال وفي الصمت عي كعي الكلام

كذلك ذم الجاحظ الحصر والعي أكثر من أي عيب آخر وذلك حينما قال: "وليس مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة، وسقطات الخطل يوم إطالة الخطبة، بأعظم مما يحدث عن العي من اختلال الحجة، وعن الحصر من فوت درك الحاجة، والناس لا يلومون من استولى على بيانه العجز ولا يعيرون الخرس وهم يذمون الحصر ويؤنبون العي[549].

([544]) العين، ص703.
([545]) السابق ص193.
([546]) سورة النساء آية 90.
([547]) لسان العرب ج4 ص193.
([548]) البيان والتبيين ج1 ص3.
([549]) البيان والتبيين ج1 ص12..

قال:

"وليس اللجلاج والتمتام والألثغ والفأفاء، وذو الحبسة والحكلة والرتة وذو اللفف والعجلة في سبيل الحصر في خطبته والعي في مناضلة خصومه،...، ثم أن أصحاب التشديق والتقعير والتقعيب من الخطباء، والبلغاء مع سماجة التكلف وشنعة التزيد أعذر من عي يتكلف الخطابة ومن حصر يتعرض لأهل الدربة. والأعتياد[550]"

وقيل لبزرجمهر الحكيم الفارسي: أي شيء أستر للعي؟ قال: عقل يجمله. قالوا: فإن لم يكن له عقل. قال: فمال يستره. قالوا: فإن لم يكن له مال، قال: فإخوان يعبرون عنه. فقالوا: فإن لم يكن له إخوان يعبرون عنه. قال: فيكون عيياً صامتاً. قالوا: فإذا لم يكن ذا صمت. قال فموت وحي خير له من أن يكون في دار الحياة[551].

وقال الخطفي:[552]

عجبت لادلال العيي بنفسه   وصمت الذي قد كان بالقول أعلما
وفي الصمت ستر للعي وإنما   صحيفة لب المرء أن يتكلما

قال الجاحظ: ذكر الأصمعي أن عمر بن هبيرة لما أراده على القضاء قال: إني لا أصلح له. قال: وكيف ذلك؟ قال: لأني عيي ولأني دميم ولأني حديد. قال ابن هبيرة: أما الحدة فإن السوط يقومك وأما الدمامة فإني لا أريد أن أحاسن بك أحداً، وأما العي فقد عبرت عما تريد"[553].

كما وضع الثعالبي فصلاً في ترتيب درجات العي قال: رجل عي وعيي ثم حصر، ثم فه، ثم مفحم، ثم لجلاج، ثم أبكم[554].

من عيوب البيان التي ذكرها الجاحظ، التشديق والتقعير والتقعيب. والتشديق في اللغة مأخوذ من مادة "شدق" والشدق هو جانب الفم. والشدقاق، طفطفة الفم من

([550]) البيان والتبيين، ج1 ص13
([551]) السابق ج1 ص7.
([552]) السابق ج1 ص 220.
([553]) البيان والتبيين ج1 ص 99.
([554]) فقه اللغة ، ص 171.

باطن الخدين، يقال: نفخ في شدقه. والأشدق: العريض الشدق، والواسعة المائلة، ورجل أشدق واسع الشدق. وخطيب أشدق بين الشدق، مجيد، والمتشدق الذي يلوي شدقه للتفصح، ورجل أشدق إذا كان متفوهاً ذا بيان ومنه قيل لعمر بن سعيد الأشدق لأنه كان أحد خطباء العرب. ويقال هو متشدق في منطقه إذا كان يتوسع فيه، ويتفيهق وفي الحديث في صفته صلى الله عليه وسلم يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه. عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يسرد كسردكم هذا، ولكنه كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من جلس إليه[555].

والحديث يبين كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتكلم، فإنه كان يرتل الحديث، يعني يخرج الكلمات على رسل متمهلاً مترفقاً، حتى أنه ليسهل على السامع عد الكلمات التي ينطق بها عليه السلام. وهذا يدل على فصاحته وتمكنه من البلاغة.

روي أن عمرو بن العاص قال يوماً، وقام رجل فأكثر الكلام فقال عمرو: لو قصد في قوله لكان خيراً سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "لقد رأيت أو أمرت أن أتجوز في القول فإن الجواز هو خير[556]".

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: سألت خالي هند بن أبي هالة، وكان وصافاً، فقلت: صف لي منطق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، طويل السكت، لا يتكلم في غير حاجة، يفتتح الكلام ويختمه باسم الله تعالى ويتكلم بجوامع الكلم، كلامه فصل، لا فضول ولا تقصير ليس بالجافي ولا المهين"[557].

أي أنه كان يتكلم بقليل الكلمات ذات المعاني الكثيرة وكلامه واضح وبين يفهمه السامع لا زيادة فيه ولا إخلال، وليس بالجافي. أي ليس باللفظ الغليظ الطبع ولا بالحقير الوضيع.

---

(555) الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى، أوصاف النبي (ص) تحقيق سميح عباس. ط1/ دار الجيل بيروت 1989 ص178.
(556) انظر: صحيح سنن المصطفى ج2 ص315.
(557) أوصاف النبي (ص) ص879.

أما حديثه: أبغضكم إلى الثرثارون المتشدقون[558]. فهم المتوسعون في الكلام من غير احتياط واحتراز، وقيل أراد بالتشدق المستهزي بالناس يلـوي شـدقه بهـم وعليهم وتشدق في كلامه فتح فمه واتسع[559]. ونص الحديث كما يلي:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا أخبركم بأحبكم إلي وأقـربكم منـي مجالس يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافا، الـذين يـألفون ويؤلفـون، ألا أخبركم بأبغضكم إلي وأبعدكم مني مجالساً مني يوم القيامة الثرثارون المتفيقهون"[560]

وفي شرحه قال المبرد: والموطئون أكنافا: التوطئة التذليل والتمهيد فأراد بقوله "موطأ الأكناف" أن ناحيته يتمكن فيها صاحبها غير مؤذ. وقوله صلى الله عليه وسلم، "الثرثارون" الذين يكثرون الكلام تكلفاً وتجاوزاً وخروجاً عن الحق، وأصل هذه اللفظة من العين الواسعة من عيون الماء، يقال: عين ثرثارة لكثرة مائها. وقوله صـلى الله عليه وسلم "المتفيقهون" إنما هو بمنزلة قوله الثرثارون، توكيد له، ومتفهق "متفيعـل" من قولهم فهق الغدير يفهق إذا امتلأ ماء فلم يكن فيه موضع مزيد[561].

أما أصحاب التقعيب، فالقعب هو القدح الضخم الغليظ الجافي. والتقعيب فـي الكلام كالتقعير، قعب فلان في كلامه وقعر بمعنى واحد. وهذا الكلام لـه قعـب أي غور[562]. وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إن الله عـز وجـل يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها.[563]

ولك ما ذكر مما سمي عيوباً كان موجوداً عند العرب وقد قال الجاحظ فيه.

"فمن الكلام الجزل والسخيف، والمليح والحسن، والقبيح والـسمح، والخفيـف والثقيل، وكله عربي، وبكل قد تكلموا، وبكل قد تمادحوا وتعايبوا. فإن زعم زاعم أنه لم يكن في كلامهم تفاضل، ولا بينهم في ذلك تفاوت، فلـم ذكـروا العـي والبكـئ

([558]) الجذري: الإمام المبارك بن محمد. جامع الأصول في أحاديث الرسول (ص). ط دار الفكر 1970. تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ص8.
([559]) لسان العرب مادة "ش د ق"
([560]) أخرجه الترمذي 1941.
([561]) الكامل للمبرد، ص 8.
([562]) السابق مادة "ق ع ب"
([563]) صيح سنن المصطفى ج2 ص293.

والحصر والمفحم والخطل والمسهب، والمتشدق، والمتفيهـق والمهمـاز والثرثـار، والمكثار، ولم ذكروا الهجر والهذر والهذيان والتخليط[(564)]".

ومن عيوب البيان أيضاً: العيوب الناتجة عن نطق الأعاجم لأصوات العربية، واللحن وسوف يفصل الحديث فيهما كما يلي:

العيوب الناتجة عن نطق الأعاجم لأصوات العربية:

كل ما جاء مخالفاً للنطق الصحيح لأصوات اللغة جعله الجاحظ عيباً مضراً بالبيان، ومن ذلك نطق الأعاجم لأصوات العربية.

حيث جاء اهتمامه بكيفية نطق الأعاجم لأصوات العربية من جراء اختلاط المجتمع في عصره بشتى أجناس الأعاجم. وقبل الخوض في معرفة من هم الأعاجم وما موقفهم من اللغة العربية لابد من الإشارة إلى المعنى اللغوي لكلمة "أعاجم".

قال ابن منظور في مادة "عجم": العُجم والعَجم، خلاف العُرب والعَرب يقال "عجمي" وجمعه "عجم" وخلافه عربي وجمعه "عرب" والعجم جمع "العجمي"، والعرب جمع "العربي" العجم جمع "الأعجم" الذي لا يفصح، قال أبو اسحق: والأعجم الذي لا يفصح ولا يبين كلامه وإن كان عربي النسب كزياد الأعجم. فأما العجمي، فالذي من جنس العجم أفصح أو لم يفصح، والجمع عجم، ورجل أعجمي وأعجم إذا كان في لسانه عجمة. وإن أفصح بالعجمية. وكلام أعجم وأعجمي بين العجمة. وتقول: رجل أعجمي إذا كان لا يفصح، كان من العجم أو من العرب، ورجل عجمي إذا كان من الأعاجم فصيحاً كان أو غير فصيح[(565)].

ذكر السيوطي في المزهر قول الجواليقي الذي يؤكد أن العجم شيء بالنسب والأصل. وذلك من خلال حديثه عن الألفاظ الأعجمية في القرآن حيث قال فيها: "فهي عجمية باعتبار الأصل. عربية باعتبار الحال"[566].

([564]) البيان والتبيين ج1 ص144.

([565]) لسان العرب ج14 ص358 مادة "عجم".

([566]) المزهر، ج1، ص 296.

والأعاجم كما ذكر ابن خلدون "هم الداخلون في اللسان العربي الطارئون عليه المضطرون إلى النطق به لمخالطة أهله كالفرس والروم والترك بالمشرق والبربر بالمغرب فإنه لا يحصل لهم هذا الذوق لقصور حظهم في هذه الملكة"[(567)]

وقال أيضاً: "فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم وإنما ربوا في اللسان العربي فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب وصيروه قوانين وفناً لمن بعدهم. إلى قوله:"فإن عرض لك ما تسمعه من أن سيبويه والفارسي والزمخشري وأمثالهم من فرسان الكلام كانوا أعاجم، ففي نسبهم فقط أما المربأ والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب ومن تعلمها منهم، فهم وإن كانوا عجماً في النسب فليسوا بأعاجم في اللغة والكلام"[(568)]

وقد فسر ابن خلدون فساد اللسان العربي بقوله: "ثم إنه لما فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الأعاجم، وسبب فسادها أن الناشيء من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب فيعبر بها ويسمع كيفيات العرب أيضاً. فاختلط عليه الأمر، وأخذ من هذه وهذه فاستحدث ملكة، وكانت ناقصة عن الأولى. وهذا معنى فساد اللسان العربي"[(569)].

ومعلوم أن سبب فصاحة قبيلة قريش دون غيرها من القبائل العربية هو بعدهم عن بلاد العجم، حيث كانت تقاس فصاحة القبيلة بمقدار بعدها عن الأعاجم.

وهذا ما دعا السيوطي إلى قوله:"فإنه لم يؤخذ من لخم، ولا من جزام فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط، ولا من قضاعة ولا من غسان ولا من أياد فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام وأكثرهم نصارى، يقرأون في صلاتهم بغير العربية، ولا من تغلب ولا من النمر، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية، ولا من بكر لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس ولا من عبد القيس، لأنهم كانوا سكان البحرين مخالطين للهند والفرس ولا من أزد عمان لمخالطتهم للهند والفرس،... ولا من حاضرة

([567]) المقدمة ، ج3، ص 1258.

([568]) المقدمة ج3 ص 1258.

([569]) الاقتراح في علم أصول النحو ص57.

الحجاز، لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم.

والاختلاط مع الأعاجم هو الذي أدخل اللحن في القرآن الكريم، مما جعل علماء النحو يتسارعون إلى وضع قواعد تمنع تأثير العجمة في ألفاظ القرآن قال الإمام علي كرم الله وجهه عندما تأمل كلام العرب "وجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء" ويقصد الأعاجم.

وعن ورود الألفاظ الأعجمية في القرآن فقد ذكر السيوطي قول أبي عبيد القاسم بن سلام "أما لغات العجم في القرآن فإن الناس اختلفوا فيها، فروي عن ابن عباس ومجاهد وابن جبير وعكرمة وعطاء وغيرهم من أهل العلم أنهم قالوا في أحرف كثيرة أنها بلغات العجم منها "طه" و"اليم" و"الطور" و"الربانيون" والتي قيل أنها بالسريانية، قال: وزعم أهل العربية أن القرآن ليس فيه من كلام العجم، قال أبو عبيد: والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعاً، وذلك أن هذه الحروف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء إلا أنها سقطت إلى العرب، فأعربتها بألسنتها وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها فصارت عربية، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال إنها عربية وهو صادق، ومن قال عجمية فهو صادق"[570]

كيف صور الجاحظ نطق الأعاجم لأصوات العربية:

تناول الجاحظ كيفية نطق الأعاجم لأصوات العربية بإيراد الأمثلة الحية على ذلك من المجتمع الذي عاش فيه وعاصر أهله.

مثل الجاحظ إلى ما يعتري أصحاب اللكن من العجم من صعوبة في نطق الأصوات العربية وذلك بعد أن عرفهم بقوله: "ويقال في لسانه لكنة، إذا أدخل بعض حروف العجم في حروف العرب وجذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول"[571]

([570]) المزهر ج1 ص 268-169.
([571]) البيان والتبيين ج1 ص60.

والعادة الأولى في النطق إذا تمكنت في الألسنة يصعب استبدالها وهذا ما أشار إليه ابن خلدون من بعده، حيث ذكر أن اللغة ملكة لسانية، والملكة المتقدمة في اللسان هي الراسخة فإذا تقدمت ملكة العجمة صار مقصراً في اللغة العربية، إلا أن الناشئين من أبناء العجم الذين يربون مع العرب قبل أن تستحكم عجميتهم، فتكون اللغة العربية كأنها السابقة عندهم.

وقد دلت الدراسة اللغوية الحديثة على أن الطفل يولد ولديه الاستعداد العضوي لتعلم أي لغة من اللغات التي يتكلمها الإنسان، وأن جهاز النطق لديه ذو مرونة شديدة تمكنه من إخراج كل الأصوات اللغوية التي عرفها البشر. ففي أثناء عملية تعلم النطق تتمرس أعضاء نطق الطفل على إخراج الأصوات اللغوية على النحو الذي يفرضه النظام الصوتي للغة التي يتكلمها، وبذا يتكيف جهاز نطقه على الأصوات التي يسمعها ويستخدمها في حياته اليومية مع من يختلط بهم، وفي أثناء عملية التعلم هذه يهمل الطفل استعمال كل الأصوات اللغوية الأخرى التي لا يحتاج إليها أي التي لا تستخدمها لغته وبمرور الزمن يفقد تلك المرونة التي كانت لديه، والتي جعلته في أيامه قادراً على إخراج كل الأصوات التي تستخدمها لغات الإنسان وذلك لأن الاستعداد الطبيعي لتعلم اللغة أمر بيلوجي أما عملية التعلم ومراحله ونوع اللغة المتعلمة، فهو عملية اجتماعية مكتسبة وليس عملية بيولوجية"[572]

لذلك تجد أن البعد عن التحدث بالعربية ومخالطة الأعاجم ينتج عنه البعد عن اللسان العربي والسبب في ذلك هو ما يسبق للمتعلم من حصول ملكة منافية للملكة المطلوبة، وهذا جعل الجاحظ يقول: "ألا ترى أن السندي إذا جلب كبيراً فإنه لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زاياً، ولو أقام في عليا تميم وسفلى قيس، وبين عجز هوازن خمسين عاماً. وكذلك النبطي القح، خلاف المغلاق الذي نشأ في بلاد النبط لأن النبطي القح يجعل الزاي سيناً فإذا أراد أن يقول "زورق" قال "سورق"، ويجعل العين همزة فإذا أراد أن يقول "مشمعل" قال "مشمئل".[573]

([572]) أصوات القرآن ص36.
([573]) البيان والتبيين ج1 ص 70.

وقد يتكلم المغلاق الذي نشأ في سواد الكوفة بالعربية المعروفة ويكون لفظه متخيراً فاخراً ومعناه شريفاً كريماً، ويعلم مع ذلك السامع لكلامه ومخارج حروفه أنه نبطي. وكذلك إذا تكلم الخراساني على هذه الصفة، فإنك تعلم مع أعرابه وتخير ألفاظه في مخرج كلامه إنه خراسانيا. وكذلك إن كان من كتاب الأهواز"[(574)].

هذا وقد أشار الجاحظ إلى ما يعتري أصحاب اللكن من العجم ومن ينشأ من العرب مع العجم فقال:

"فمن اللكن ممن كان خطيباً أو شاعراً أو كاتباً داهياً زياد ابن سلمى أبو أمامة وهو زياد الأعجم. قال أبو عبيدة كان ينشد قوله:

فتى زاده السلطان في الود رفعة   إذا غير السلطـان كـل خليـل

قال: فكان يجعل السين شيناً والطاء تاء فيقول: "فتى زاده الشلتان".

وكذلك ذكر لكنة سحيم عبد بني الحسحاس[(575)] الذي أنشد قصيدة له بين يدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال في مطلعها:

عميرة ودع إن تجهزت غاديا   كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

فقال له عمر رضي الله عنه: "لو قدمت الإسلام على الشيب لأجزتك" فقال له: "ما سعرت" يريد ما شعرت، جعل الشين المعجمة سيناً غير معجمة.

وهذا يدل على أن الأعجمي إذا تخير ألفاظه وتهيأ لنطقها نطقاً صحيحاً لم يصعب عليه ذلك ولكنه إذا فوجئ بالكلام، كما فعل سحيم يصعب عليه التحكم في لكنته. وذلك لأن سحيم قد نطق الشين صحيحة في كلمة "الشيب" حينما أنشد القصيدة وصعب عليه نطقها عندما فاجأه سيدنا عمر بتعليقه على ما قال في تقديم الشيب على الإسلام لذلك قال "ما سعرت" ولم يقل "ما شعرت". ومن الملاحظ أن لكنة سحيم عكس لكنة زياد فالأول يقلب الشين سيناً أما الثاني فكان يقلب السين شيناً. ومخرج الشين غير مخرج السين، مما يقلل الزعم في أن قرب المخارج هو السبب في القلب أو الإبدال. فالشين تخرج من وسط اللسان بينه وبين الحنك الأعلى أما السين فتخرج بين

---

(574) السابق ج1 ص 99.

(575) ديوان سحيم عبد بني الحسحاس، ص 75.

طرف اللسان وفويق الثنايا. أما الصفة التي تجمعها هي صفة الهمس والرخاوة. وإبدال صوت السين والشين يرجع بنا إلى أصول هذه الأصوات في اللغات السامية القديمة. فأغلب ما يأتي في اللغة العبرية بالسين يأتي في العربية والحبشية بالشين. وقد ورد في المزهر أن العرب يعربون الشين سيناً، ويقولون نيسابور وهي نيشابور وكذلك الدشت يقولون دست فيبدلونها سينا.[576]" وممن أثرت العجمة على نطقهم وذكرهم الجاحظ في كتابه، صهيب بن سنان النمري: قال[577]: "كان يقول: إنك لهائن، يريد إنك لحائن- أي هالك- وصهيب بن سنان يرتضخ لكنة رومية، وقد اجتمعا على جعل "الحاء" "هاء" هو وعبيد الله بن زياد الذي قال لهاني بن قبيصة: "أهروري سائر اليوم: يريد أحروري وذكر الجاحظ "إزدا نقاذار" الذي كانت لكنته نبطية وهو ايضاً يقلب الحاء هاء فقال: "وبعضهم يروي أنه أملي على كاتب له فقال: أكتب: "الهاصل ألف كر" فكتبها الكاتب بالهاء كما لفظ بها، فأعاد عليه الكلام، فأعاد الكاتب. فلما فطن باجتماعهما على الخطأ قال أنت لا تهسن أن تكتب، وأن لا أهسن أن أملي، فأكتب "الجاصل ألف كر" فكتبها بالجيم معجمة[578]" وذكر منهم كذلك أبا مسلم الخراساني فقال: "وكان حسن الألفاظ جيد المعاني، وكان إذا أراد أن يقول: قلت لك، قال: كلت لك، فشارك في تحويل القاف كافاً عبيد الله بن زياد.[579].

وممن شارك أبا مسلم في قلب القاف كافاً جارية ذكرها الجاحظ في شعر لأحد الشعراء لم يذكر اسمه حين قال: "وقال بعض الشعراء في أم ولد له، يذكر لكنتها:

وأول ما أسمع منها في السحر   تذكريها الأنثى وتأنيث الذكر

والسوأة السواء في ذكر القمر

لأنها كانت إذا أرادت أن تقول القمر قالت الكمر[580] أي تقلب القاف كافاً، والسبب في قلب القاف كافاً هو قرب مخرج الكاف من القاف. لأن القاف تخرج من

([576]) المزهر ج1 ص 275
([577]) البيان والتبيين ج1 ص 72.
([578]) البيان والتبيين ج1 ص 72.
([579]) السابق ص 73.
([580]) البيان والتبيين ج1 ص74.

أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى والكاف تقع إلى الأسفل من موضع القاف من اللسان قليلاً ومما يليه من الحنك الأعلى[581].

كذلك سيطرت العجمة أيضاً على لسان أبي عطاء السندي[582]، وهو من الشعراء حيث كان يجمع بين لثغة ولكنه وكان لا يكاد يفهم كلامه لأنه لا يفصح ولا يبين، ويذكر الرواة أنه كان ينطق الحاء هاءً والعين همزة والشين سيناً، والجيم زاياً، كما كان ينطق الظاء زاياً مرققة، وكانت هذه الظواهر في نطقه مثار تندر وتفكه بين المعاصرين له، وكانت من الناحية الأخرى مثار ضيق له، وكانت تسبب له حرجاً شديداً عندما يأخذ في إنشاد شعره ليفهمه الناس، فكتب ذلك في قصيدة جميلة تعبر عن شعوره أصدق تعبير، وقد أنشد قصيدته الشهيرة هذه بين يدي سليمان بن سليم[583] والتي يقول في مطلعها:

أعوزتني الرواة يا بـن سليـم ... وأبي أن يقيم شعري لساني

وغلى بالذي أجمجم صـدري ... وجفاني لعجمتي سلطانـي

وازدرتني العيون إذ كان لوني ... حالكاً محتويً من الألـوان

فضربت الأمور ظهـراً لبطن ... كيف احتال حيلة للسـاني

وتمنيت أنني كنت بالشـ ـعر ... فصيحاً وبان بعض بنـاني

ثم أصبحت قد انخت ركابي ... عند رحب الفناء والأعطان

فاكفني ما يضيق عنه رواتي ... بفصيح من صالح الغلمان

يُفهم الناس ما أقول من الشعر ... فإن البيان قد أعيـ ـ ـاني

فأمر له سليمان بن سليم بوصيف بربري فصيح فسماه "عطاء" وتكنى به وقال له: قد جعلتك أبني وسميتك بكنيتي.

([581]) الكتاب ج4 ص433.

([582]) أبو العطاء: اسمه أفلح بن يسار، مولى بني اسد، نشأ بالكوفة، كان أبوه سندياً لا يفصح.
انظر: الأغاني ج17 ص245.

([583]) سليمان بن سليم بن كيسان هو الذي أمر لأبي عطاء السندي بغلام ليروى شعره
انظر: الأغاني ج17 ص254.

والقصيدة تسجل هذه الظاهرة اللغوية التي كانت منتشرة في هذا العصر اللغوي بين الشعراء الأجانب الذين اتقنوا العربية ونظموا بها الشعر فهو يعلن صراحة أنه يضيق بما يعانيه من هذه العجمة(584).

قال الجاحظ بعد أن أبان لكنة من تقدموا بالذكر "هذا ما حضرنا من لكنة البلغاء، والخطباء والشعراء، فأما لكنة العامة، ومن لم يكن له حظ في المنطق، فمثل فيل مولى زياد(585). وكان فيل لا يستطيع نطق الحاء والعين(586).

وهذا يوضح صعوبة نطق أصوات الحلق على الأعاجم خصوصاً صوت الحاء والعين، ويليه الغين والخاء، فأما الهمزة والهاء فقد يلجأ إليه الأعجمي عندما يصعب عليه نطق غيرها من أصوات الحلق.

والملاحظ في نطق الأعاجم لأصوات الحلق هو استبدال الصوت المستعصى في النطق بصوت آخر من نفس حروف الحلق، لكنه أسهل له في النطق. وهذا ما عبر عنه السيوطي بقوله:"وأعلم أن الحروف إذا تقاربت مخارجها كانت أثقل على اللسان منها إذا تباعدت لأنك إذا استعملت اللسان في حروف الحلق دون حروف الفم، ودون حروف الذلاقة كلفته جرس واحد، وحركات مختلفة ألا ترى أنك لو ألفت بين الهمزة والهاء والحاء فأمكن، لوجدت الهمزة تتحول "هاء" في بعض اللغات لقربها منها كما قالوا في "أراق" "هراق الماء" ولوجدت الحاء في بعض الألسنة تتحول هاء كما في "مدحه" "مدهه"، فإذا تباعدت الحروف حسن وجه التأليف(587).

ومن قبله تحدث سيبويه في باب الإدغام، أنه لا تدغم الحاء في العين. لأن الحاء قد يفرون إليها إذا وقعت الهاء مع العين، أي إنك تقلب الهاء حاءً والعين حاءً ثم تدغم الحاء في الحاء. وذلك لأن الأقرب إلى الفم لا يدغم في الذي قبله(588).

---

(584) يوسف خليفة – حياة الشعر في الكوفة – ط دار الكاتب العربي القاهرة – د.ت/ ص861.
(585) البيان والتبيين ج1 ص96.
(586) سوف يأتي الحديث عنه تفصيلاً في فصل اللحن.
(587) المزهر ج1 ص 191-192.
(588) الكتاب ج4 ص 451.

ويرى السيوطي أنه لا يكاد يجيء في الكلام ثلاثة أحرف من جنس واحد في كلمة واحدة لصعوبة ذلك على ألسنتهم ويرى أن أصعبها حروف الحلق، وإذا اجتمع حرفان من حروف الحلق مثل "أحد" و"عهد" فعند نطق هذه الكلمات من شأنهم أن يبدأوا بالأقوى من الحرفين ويؤخروا الألين، والسبب في ذلك أن الحروف المتقاربة في المخرج لا تأتلف حتى تجتمع في كلمة واحدة[589].

والحاء والهاء من الحروف الحلقية قريبة المخرج مما جعل الخليل يقول "لولا بحة في الحاء لأشبهت العين[590]".

وقد تناول الجاحظ هذا الجانب أيضاً عندما تحدث عن اقتران الألفاظ بقوله.. وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر تراها متفقه ملساء وتراها مختلفة متباينه ومتنافرة مستكرهة تشق على اللسان وتكده[591].

وذكر كذلك ما لا يأتلف من حروف العربية فقال: "فأما في اقتران الحروف، فأن الجيم لا تقارن الظاء، والا القاف ولا الطاء ولا العين بتقديم ولا بتأخير. وهذه الحروف إذا اجتمعت في كلمة واحدة يصعب على الأعجمي نطقها مما يؤدي إلى بعض التصرف في الكلمة، وذلك مثل لكنة أم نوح وبلال ابني جرير بن الخطفي عندما قالت لبعض ولدها "وقع الجُردان في عجان أمكم" فأبدلت الذال من الجرذان، دالاً، وضمت الجيم وجعلت العجين عجانا[592]".

والدال والذال يخرجان مما بين طرف اللسان، إلا أن الدال من أصول الثنايا والذال من أطراف الثنايا[593].

اللحــن:

---

(589) المزهر ج1 ص 197.
(590) العين ج1 ص 57.
(591) البيان والتبيين ج1 ص89.
(592) البيان والتبيين ج1 ص 96.
(593) الكتاب ج4 ص 433.

يدور الحديث عن اللحن في هذا المبحث حول معنى اللحن في الكلام العربي، وتطوره وحركة المقاومة العلمية التي تمثلت في جهود العلماء لتنقية اللحن.

يأتي اللحن في اللغة على معانٍ كثيرة[594]، فقد يكون بمعنى الإفصاح والإبانة، وقد يكون بمعنى التورية وذلك باستخدام معنى قريب وإرادة معنى بعيد مثل قول مالك ابن أسماء:

منطق صائب وتلحن أحيا   ناً وخير الحديث ما كان لحنا[595]

ومن معانيه أيضاً الفطنة والذكاء استناداً إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "لعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض"، أو يأتي بمعنى التظرف في الحديث بخلاطه بالكلام الأجنبي أو الكلام المعتمد فيه الخطأ، كما روى ابن دريد في كتابه الملاحن أنه قيل لمعاوية: إن عبد الله بن زياد يلحن في كلامه، فقال: "أوليس بطريف ابن أخي يتكلم بالفارسية، فظن معاوية أن الكلام بالفارسية لحن"[596]

أما اللحن الذي يسببه وضع علم النحو هو: "خروج الكلام الفصيح عن مجرى الصحة في بنية الكلام أو تركيبه أو إعرابه" وهو بذلك أمر طارئ على اللغة العربية إذ إن من المفترض في نطق العرب لها هو الصحة والسلامة اعتماداً على الفطرة والسليقة، فهذا هو الأصل، فما حاد عن هذا الأصل الفطري المتوارث فهو خطأ ويوصف نطقه حينئذٍ بأنه لحن.

قال ابن دريد: فأما اللحن في العربية لأنك إذا قلت: "ضرب عبد الله زيد" لم يدر أيهما الضارب ولا المضروب فكأنك قد عدلته عن وجهه، فإذا أعربت عن معناك فهم عنك[597].

روى الزجاجي قوله: "كان سيبويه مستملياً لحماد بن سلمة وكان حماد فصيحاً، فاستملاه يوماً قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس من أصحابي أحداً إلا ولو شئت أخذت عليه ليس أبا الدرداء"

([594]) أنظر : اللسان مادة "لحن".
([595]) البيان والتبيين ، ج ، ص 19.
([596]) مجلة اللسان العربي ص 67.
([597]) الملاحن نقلاً عن مجلة اللسان العربي، ص 6.

فقال سيبويه: "ليس أبو الدرداء"، فصاح به حماد: "لحنت يا سيبويه، ليس هذا حيث ذهبت، وإنما هو استثناء، فقال سيبويه: لا جرم والله لأطلبن علماً لا تلحنني معه، فمضى ولزم مجلس الأخفش مع يعقوب الحضرمي والخليل وسائر النحويين[598].

وكان لأبي الأسود الدؤلي دور بارز في وضع النحو وذلك من أجل محاربة اللحن الذي تسرب حتى على القرآن الكريم.

قال ابن سلام: اضطرب كلام العرب فغلبت السليقة ولم تكن نحوية، فكان سراه الناس يلحنون، ووجوه الناس، فوضع أبو الأسود باب الفاعل والمفعول به والمضاف وحروف الجر والرفع والنصب والجزم[599].

وروى القفطي عن أبي الأسود قال: دخلت على أمير المؤمنين "علي" كرم الله وجهه، فأخرج لي رقعة فيها: "الكلام كله اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، قال: فقلت: ما دعاك إلى هذا، قال: رأيت فساداً في كلام بعض أهلي، فأحببت أن أرسم رسماً يعرف به الصواب من الخطأ، فأخذ أبو الأسود النحو عن علي كرم الله وجهه، ولم يظهره[600]، ثم أظهره فيما بعد.

ويروى أن أول لحن سمع، كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وقد رووا أن رجلاً لحن بحضرته فقال: "أرشدوا أخاكم فقد ضل[601]"

ومما رووه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بقوم يرمون فاستقبح رميهم، فقال ما أسوأ رميكم، فقالوا نحن قوم "متعلمين" فقال عمر: لحنكم أشد على من فساد رميكم[602]"

---

[598] مجالس العلماء، ص 115.
[599] طبقات فحول الشعراء ، ص 12.
[600] أنباه الرواة ، ج1، ص 5.
[601] الحديث في كنز العمال 151/1.
[602] الأضرار لابن الأنباري ص، المزهر ، ج2،ص 246.

وقد تضافرت الروايات بأن كاتباً لأبي موسى الأشعري كتب إلى "عمر" رضي الله عنه، "فلحن"، فكتب إليه عمر: عزمت عليك لما ضربت كاتبك سوطاً، وفي رواية أخرى: كتب إليه "أن قنع كاتبك سوطا"[603].

ويروى أن أول لحن سمع بالبادية "هذه عصاتي[604]" وأول لحن سمع بالعراق "حي على الفلاح[605]".

ومن نماذج اللحن في القرآن، حديث على رضي الله عنه مع الأعرابي الذي أقرأه المقرئ: "إن الله برئ من المشركين ورسوله" بكسر كلمة "رسوله[606]"

حتى قال الأعرابي، أو قد برئ الله من رسوله! فأنا أبرأ منه[607].

وروي أن أول لحن من هذا النوع سمع من الحجاج بن يوسف، قال ابن سلام: أخبرني يونس ابن حبيب. قال: قال الحجاج لابن يعمرك أتسمعني الحن؟: قال: الأمير أفصح الناس: قال يونس: وكذلك كان. وقال: أتسمعني ألحن: قال حرفاً، قال: أين؟ قال في القرآن: قال ذلك أشنع لي فما هو؟ قال قولك في قوله تعالى: "إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم،.... أحب إليكم من الله ورسوله"[608] أي تقرأ "أحب" بالضم والوجه الصحيح هو "أحب" "الفتح" على أنها خبر كان.

قال: وأخبرني يونس قال: قال له لا جرم لا تسمع لي لحناً أبداً"

ومن نماذجه أيضاً قولهم: "تكلمت هد بنت أسماء ابن خارجة، فلحنت وهي عند الحجاج، فقال لها: أتلحنين وأنت شريفة في بيت قيس!! فقالت: أما سمعت قول أخي مالك لامرأته الأنصارية؟ قال ما هو: قالت:

منطق صائب وتلحن أحيا   ناً وخير الحديث مكان لحنا

([603]) مراتب النحويين ص 6/5
([604]) الصواب : هذه عصاي.
([605]) الصواب: حيَّ على الفلاح ، بالفتح
([606]) الصواب: "ورسوله" بالفتح
([607]) تفسير القرطبي 24/1   البحر المحيط 6/5.
([608]) سورة التوبة آية 24.

قال لها الحجاج: إنما عني أخوك اللحن في القول إذا كنى المحدث عما يريد – ولم يعن اللحن في العربية فأصلحي لسانك[609]:

وهذا القول في هذا البيت يوضح الخطأ المشهور للجاحظ الذي اعتقد أن اللحن مقبول من النساء خصوصا الجواري واستدل ببيت مالك هذا وعندما أدرك خطأه اعترف بأنه لم يستطع إصلاحه لأن شهرة كتابه[610] البيان والتبيين قد غطت الآفاق.

وروي عن الأصمعي قوله: أربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل: الشعبي وعبد الملك بن مروان، والحجاج بن يوسف وابن القربة والحجاج أفصحهم[611].

وما إن جاء القرن الثاني الهجري، وبخاصة النصف الثاني منه، أصبح اللحن خطراً حقيقياً ملموساً، وأمراً شائعاً بين الناس بعد أن كان يروي في مواقف متناثرة، وترتب على ذلك نشاط علمي متنوع ففي رواية اللغة رحل العلماء للبادية، وانصرفوا عن الحضر بعد أن شاع فيه اللحن ولم تعد اللغة فيه أهلاً للنقل والاحتجاج. وفي الدراسة اللغوية نشطت حركة التنقية التي بدأت في هذه الفترة بكتاب الكسائي الذي لا يزال موجوداً "ما تلحن في العامة".

قال الرشيد يوماً لبنيه: ما ضر أحدكم لو تعلم من العربية ما يصلح به لسانه، أيسر أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده أو أمته[612]؟

ويذكر أن الفراء قد دخل يوماً على الرشيد، فتكلم بكلام لحن فيه، فقال جعفر بن يحيى: يا أمير المؤمنين: إنه قد لحن، فقال الرشيد للفراء: أتلحن يا يحيى؟ فقال: يا أمير المؤمنين: إن طباع أهل البدو الإعراب، وطباع أهل الحضر اللحن، فإذا حفظت أو كتبت لم ألحن، وإذا رجعت إلى الطبع لحنت، فاستحسن الرشيد كلامه[613].

وكان الرشيد ممن يعجبه غناء الملاحين في الزلالات إذ ركبها، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم، فقال: قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعراً يغنّون

([609]) مجلة اللسان العربي.
([610]) انظر البيان والتبيين ج1 ص 19.
([611]) أمالي الزجاجي ، ص 21.
([612]) صبح الأعشى ، ج1، ص 168.
([613]) نفسه والجزء ، ص 173.

فيه، فوجه إلى أبي العتاهية لهؤلاء شعراً يغنون فيه، فوجه إلى أبي العتاهية –وهو سجين- فصنع لهم "زهديته" التي أبكت الرشيد حين سمعها منهم وفيها:-

نح على نفسك يا مسكين إن كنت تنوح

لتموتن وإن عمرت ما عمر نـ ـ ـ ـوح(614)

هذا وقد اهتم الجاحظ بأمر اللحن وأفرد له باباً في كتابه البيان والتبيين سماه باب "اللحن" وذلك حرصاً منه على سلامة اللغة.

كذلك روى نوادر كثيرة عن اللحن واللحانين في القرن الثالث. وعابه على من يتكلفون الفصاحة من علماء اللغة والأعراب وذلك بقوله: "إن أقبح اللحن لحن أصحاب التقعير والتقعيب والتشديق والتمطيط والجهورية والتفخيم، وأقبح من ذلك لحن الأعاريب النازلين على طرق السابلة، وبقرب مجامع الأسواق"(615).

ومعظم ما وصفه الجاحظ من لحن يتعلق بالنواحي الصوتية، والتي تتطلب تقويم اللسان وأعضاء النطق الأخرى.

ففي مقدمة ما سماه باب اللحن قال: "حدثنا عثام أبو علي(616) عن الأعشى، عن عمارة بن عمير، قال كان أبو معمر يحدثنا فيلحن، يتبع ما سمع(617).

وقصد بعبارة "يتبع ما سمع" أن اللحن كان فاشياً في المجتمع في ذلك الوقت فتأثر هو بذلك.

ومما ذكره أيضاً قوله عن أبي الحسن: قال: أوفد زياد عبيد الله بن زياد إلى معاوية، فكتب إليه معاوية "إن ابنك كما وصفت، ولكن قوم من لسانه" وكان في عبيد الله لكنه، لأنه نشأ بالأساورة(618) مع أمة مرجانة، كان زياد قد زوجها من شيروية الأسواري. وقال مرة: افتحوا سيوفكم: يريد سلوا سيوفكم(619).

---

(614) الأغاني، ج3، ص 171.
(615) البيان والتبيين ، ج1، ص 171.
(616) هو أبو علي عثام بن علي بن مجيد الكوفي، روى عن الأعشى وهشام بن عروة والثوري توفى سنة 195هـ.
(617) البيان والتبيين ، ج2، ص 210.
(618) الأساورة: قوم من العجم بالبصرة.
(619) البيان والتبيين ج210.

ومنه أيضاً قوله: قال بشر بن مروان وعنده عمر بن عبد العزيز لغلام له: أدعُ لي صالحاً، فقال الغلام: يا صالحاً فقال له بشر: ألق منها ألفٌ: قال له عمر وأنت فزد في ألفك ألفاً.

وقال: زعم يزيد مولى ابن عون، قال: كان رجل بالبصرة له جارية تسمى ظمياء، فكان إذا دعاها قال: يا ضمياء بالضاد، فقال ابن المقفع: قل يا ظمياء، فناداها يا ضمياء، فلما غير عليه ابن المقفع مرتين أو ثلاثاً قال له: هي جاريتي أم جاريتك[620].

وهنا إشارة إلى اللحن الصوتي وهو إبدال حرف الظاء بالضاد، وهذا شائع الآن في العامية السودانية تقول مثلاً في "الظهر والظهر" "الضُهر والضَهر" وغيرها كثير.

وفي سرده لهذه الأنواع من اللحن يورد الحكم والأمثال لمعالجته فهو القائل:

قال نصر بن سيار: لا تسم غلامك إلا باسم يخف على لسانك"

قال ابن قتيبة: حدثني أبو حاتم عن الأصمعي قال: سمعتُ مولي لأل عمر بن الخطاب يقول: أخذ عبد الملك بن مروان رجلاً كان يرى رأي الخوارج رأي شبيب فقال له:

ألست القائل:

ومنا سُوَيد والبطينُ وقَعنَب   ومنا أميرُ المؤمنين شبيبُ[621]

فقال: إنما قلت: "ومنا أمير المؤمنين شبيبُ" بالنصب أي يا أمير المؤمنين، فأمر بتخليه سبيله[622].

قال الجاحظ: كان محمد بن الجهم ولي المكي، صاحب النظام موضعاً من مواضع "كسكر" وكان المكي لا يحسن أن يسمى ذلك المكان ولا يتهجاه، ولا يكتبه، وكان اسم ذلك الموضع "شانَمثنا"[623]

---

(620) نفسه ج2 ، ص 211/ وفي العقد الغريد 480/2.
(621) هو شبيب بن يزيد الخارجي، كان من اصحاب صالح بن مسرَّج التميمي ثم تولى الأمر بعده وقد خالفه في إمامة المرأة.
(622) عيون الأخبار، ج2، ص 155.
(623) البيان ، ج22، ص 212.

ومن أمثلة ما ذكره عن اللحن أيضاً قوله قيل لأبي حنيفة: ما تقول في رجلٍ أخذ صخرة فضرب بها رأس رجلٍ فقتله، أتُقَيّدُه به؟ قال: لا ولو ضرب رأسه بأبا قبيس"[624].

والخطأ هنا في قوله "بأبا قبيس" والصواب بأبي قبيس وكذلك قوله: قال يوسف بن خالد السمتي، لعمرو بن عبيد: ما تقول في دجاجة ذبحت من قفائها؟ قال له عمرو: أحسن. قال: من فقاؤها. قال: أحسن قال: من قفاءها. قال عمرو: ما عناك بهذا؟ قل: من قفاها واسترح[625].

وعنه أيضاً قال: وسمعت من يوسف بن خالد يقول: لا حتى يشِجه، بكسر الشين، يريد حتى "يشُجه" بضم الشين: قال: وكان يوسف يقول: هذا أحمر من هذا، يريد أشد حمرة من هذا، وذلك لأن أفعل التفضيل لا يصاغ من الأفعال التي مؤنثها على أفعل فعلاء، وأحمر مؤنثة حمراء، ففي هذه الحالة يؤتى بفعل مساعد على وزن أفعل ثم يؤتى بالمصدر بعده فتقول: أشد حمرة.

ومن أمثلته أيضاً قوله: قال بشر المريسي[626]:

"قضى الله بكم الحوائج على أحسن الوجوه وأهنؤها" فقال قاسم التمار: هذا على قوله:

إن سُليمى واللهُ يكلؤها   ضنت بشيء ما كان يرزؤها

قال الجاحظ: فصار احتجاج قاسم أطيب من لحن بشر، وذلك لطرافة قوله فقط لخلو البيت من الشاهد المراد.

أما لحن بشر ففي قوله: "أهنؤها" فجاءت مرفوعة والأصل فيها الجر بالعطف على أحسن.

للوقاية من خطر اللحن أورد ابن قتيبة قول ابن شبرمة: قال: "إذا سرك أن تعظم في عين من كنت في عينه صغيراً، ويصغر في عينك من كان في عينك عظيماً

---

(624) أبو قبيس:جبل مشرف على مكة – انظر البيان 2/ص212- العقد الفريد 482/2.
(625) البيان والتبيين ، ج2، ص 212.
(626) المريسي: نسبه إلى مُرَيس: قرية بمعس كان أحد دعاة الجهمية، وأبوه كان يهودياً، وإليه تنسب ## المرديسية ، ت 218هـ، انظر: تاريخ بغداد 351/6.

فتعلم العربية، فإنها تجريك على المنطق، وتدنيك من السلطان[627]. قال بعض الشعراء: [628]

النحو يبسط من لسان الألكن والمرء تكرمه إذا لم يلحن
وإذا طلبت من العلوم أجلها فأجلها منها مقيم الألسـن

وقال مسلمة بن عبد الملك[629]: اللحن في الكلام أقبح من التفتيق في الثوب النفيس. كما روى عنه أنه كان يستسقط من يلحن، قال العتبي: أستأذن رجلٌ من عليه أهل الشام على عبد الملك، وبين يديه قوم يلعبون بالشطرنج، فقال يا غلام "غطها"، فلما دخل الرجل فتكلم "لحن" فقال عبد الملك، يا غلام أكشف عنها الغطاء ليس للاحن حرمة[630]"

قيل: دخل أعرابي السوق، فسمع الناس يلحنون، فقال: (سبحان الله! يلحنون ويربحون) ونحن لا نلحن ولا نربح.

ومن أمثلته أيضاً قوله[631]: "وبلغني عن كثير بن أحمد بن زهير بن كثير بن سيار، أنه كان ينشد بيت أبي دُلْف[632]:-

ألبسيني الدرع قد طا ل عن الحرب جمامي[633]

فسأله عن ذلك، فحلف أنه إنما قال:

ألبسيني الدرع قد طا ل عن الحرب جُمامي

وبذلك يكون قد سجل على نفسه اللحن إذ ضم الجيم وحقها الفتح، و"الجَمام" بالفتح : الراحة.

يقول الجاحظ أما قوله تعالى: (ولتعرفنهم في لحن القول) [634] اللحن هنا في هذا الموضع غير اللحن في ذلك.

---

(627) عيون الأخبار، ج2، ص 157.
(628) هو اسحق بن خلف النهراني، كما جاء في الكامل للمرد ، ج1، ص 239.
(629) مراتب النحويين ، ص 75.
(630) تاريخ آداب العرب ، ص 242-2.
(631) البيان والتبيين ، ج2، ص 217.
(632) هو أبو دلف القاسم بن عيسى بن ادريس العجلي، أحد قواد المأمون له من الكتب: كتاب السلاح وكتاب سياسة الملوك. تاريخ بغداد 686/9.
(633) البيان، ج2، ص 217.
(634) الآية

ويقوله أيضاً: قال أبو الحسن[635]: كان سابق الأعمى يقرأ: الخالق البارئ المُصَور، فكان ابن جابان إذا لقيه قال: يا سابق ما فعل الحرف الذي تشرك بالله فيه، لأن الصواب (المصور).

وقال: قدم رجلٌ من النحويين رجلاً إلى السلطان في دين له عليه فقال: أصلح الله الأمير، لي عليه درهمان، فقال خصمه: لا والله أيها الأمير إن هي إلا ثلاثة دراهم، ولكن لظهور الإعراب ترك من حقه درهماً.

كذلك أورد ابن قتيبة قول أعرابي عندما سمع مؤذناً يقول: أشهد أن محمداً رسولَ الله، فقال: ويحك! يفعل ماذا؟ [636]

وذلك لأنه نصب كلمة "رسول" وحقها في هذا الحالة الرفع على أنها خبر "أن"، مما جعل الجملة غير مكتملة في نظر الأعرابي، فأخذ يقول: قوله: ويحك! يفعل ماذا؟ [637]

وقال في هذا الشأن أيضاً: "سمع أعرابي إماماً يقرأ قوله تعالى: "ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا"[638] بفتح "تاء" تُنكحوا، فقال: سبحان الله! هذا قبل الإسلام قبيح فكيف يكون بعده! فقيل له: إنه لحن، والقراءة الصحيحة "لا تُنكحوا" فقال: قبحه الله، لا تجعلوه بعدها إماماً فإنه يُحل ما حرم الله"[639].

وروى أيضاً أنه دخل رجلٌ على زياد فقال له: إن أبينا هَلَك، وإن أخينا غصبنا على ميراثنا من أبانا، فقال زياد، ما ضيعت من نفسك أكثر مما ضاع من مالك[640].

وروى أيضا عن الحجاج أنه قرأ "والعاديات ضبحا" وقرأ في آخرها "إن ربهم بهم يومئذ" بفتح همزة "إن" ثم تنبه على اللام في "لخبير" ، وأن "إن" قبلها لا تكون إلا مكسورة، فحذف اللام من لخبير، فقرأ "إن ربهم بهم يومئذ خبير"[641].

---

(635) البيان ج2 ص 219.
(636) نفسه ج2، ص 217.
(637) عيون الأخبار ، ج2 ، ص 158.
(638) الآية ....
(639) عيون الأخبار، 158/2.
(640) نفسه ، ج2، ص 159.
(641) نفسه ، ج2، ص 160.

ذكر الجاحظ أيضاً أنه قيل لأعرابي: "كيف أهلِك" بكسر اللام فقال الأعرابي: صلباً ظناً منه بأنه سأله كيف يكون هلاكه، والمراد "أهلُك" بالضم[642].

وقيل لأعرابي أتهمز اسرائيل؟ قال: إني إذاً لرجلُ سوء، قيل له" أتجر فلسطين"، قال إني إذاً لقوي وقيل لآخر: اتهمز الفارة؟ فقال: الهرة تهمزها[643].

قال الجاحظ: قال مسلم بن سلام، حدثني أبان بن عثمان بن عفان الأموي قال وكان زياد النبطي أخو حسان النبطي، شديد اللكنة، وكان نحوياً، وكان بخيلاً، دعا غلامه ثلاثاً، فلما أجابه قال فمن لدن دأوتك إلي أن قلت "لبي" ما كنت "تصنأ"، يريد من لدن دعوتك إلى أن أجبتني ما كنت تصنع[644]. فقلب "العين" "همزة" في "دعوتك، وتصنع". وكذلك ذكر الجاحظ نوعاً آخر من تأثير العجمة على اللغة العربية وذلك مثل إبدال حركة الحرف إلى حركة أخرى مثل استعمال الفتحة بدل الكسرة مثل قول النبطي حينما قيل له: لم ابتعت هذه الآتان؟ قالك أركبها وتلَد لي، ولم يقل وتلِد لي[645].

وذكر أيضاً قوله: كان عند عمر بن عبد العزيز رجلان، فجعلا يلحنا، فقال الحاجب: قوما فقد أوذيتما أمير المؤمنين" قال عمر: أنت آذى لي منهما[646].

الجهود التي بذلت لمحاربة اللحن:

لعلّ النحو يعد من أول وأكبر الخطوات التي جاءت لمحاربة اللحن، وذلك في النصف الأول من القرن الأول الهجري، حيث لم تتوقف موجة اللحن التي شاعت في اللغة حتى استهدفت ثلاثة مظاهر في اللغة وهي:

1- الخطأ في المعنى وذلك باستعمال اللفظ أو التركيب في غير ما هو له، وذلك مثل استخدامهم لكلمة الطرب. حيث تفسر بأنها تعنى "الفرح" دون الجزع وليس

---

(642) البيان والتبيين، ج2، ص218.
(643) نفسه ، ص 219.
(644) البيان والتبيين ، ج2، ص 212.
(645) البيان والتبيين، ج2، ص 219.
(646) نفسه، ج3، ص 24.

كذلك، إنما الطرب خفة تصيب الرجل لشدة السرور أو لشدة الجزع، قال النابغة الجعدي:

وأراني طرباً في أثرهم   طرب الواله أو كالمختبل[647]

وكذلك من مظاهره: الخطأ في بنية الكلمة، وذلك مثلها جاء في العبارة السابقة "أوذيتما" بدل من "آذيتما".

أما أعظمها شهرة وأكثرها اهتماماً من العلماء، هو الخطأ في بنية الألفاظ أو الإعراب، ومن نماذج ذلك قولهم: شكرتك ونصحتك: والصواب شكرت لك ونصحت لك، والدليل على ذلك قوله تعالى: "واشكروا لي ولا تكفرون"[648]، وقوله "ولا ينفعكم نصحي أن أردت أن أنصح لكم"[649]

ومنه قول الأخفش: أخبرني المبرد قال: أنشدني سليمان بن عبد الله بن طاهر لنفسه:

وقد مضت لي عشرونان ثنتان

فقلت له: أيها الأمير، هذا لحن، لأن إعراباً لا يدخل على إعراب[650].

أما موقف علماء اللغة من هذه الظاهرة، فقد بدأوا يقاومونه منذ القرن الثاني الهجري، ويعد الكسائي ت 175هـ: أول من ألف في ذلك وهو كتابه المسمى بـ "ما تلحن فيه العوام".

وألفت من بعده كتب متعددة منها على سبيل المثال:

1- ما يلحن فيه العامة   يحيى بن زكريا الفراء 207هـ
2- ما يلحن فيه العامة   أبو عبيدة معمر بن المثنى 210هـ
3- إصلاح المنطق   ابن السكيت يعقوب بن اسحق 244هـ
4- لحن العوام   أبو بكر محمد الحسن الزبيدي 380هـ

---

(647) أدب الكاتب، ص 19/18.
(648) الآية
(649) الآية
(650) الموشح ص 357.

إلى غير ذلك من المؤلفات العديدة في هذا الجانب. والملاحظ عليها جميعها، أنها اهتمت بلحن العوام وهو الذي أشار إليه الجاحظ في كتابه البيان والتبيين بذكره لحن الحجاج ولحن الفراء وغيرهم ممن أفرد لهم عنواناً خاصاً سماه: من اللحانين البلغاء:

خالد بن عبد الله القسري، وخالد بن صفوان الأهتمي، وعيسى بن المدور.

ويذكره للحن الخواص يعتبر الجاحظ هو الرائد في هذا المجال لأن كل المؤلفات التي أشارت إلى اللحن تحدثت عن لحن العوام. إلا أن الجاحظ ذكر لحن الخواص وأشار إلى لحن العوام لكنه كان يلتمس لهم العذر بقوله: من لم يلكن لهم حظ في المنطق.

تعريفه للعوام:

ورد وبكثرة ذكر العوام في كتب الجاحظ لذلك تجده يوضح للقارئ معنى كلمة العوام كعادته دائماً في تسهيل مهام قرائه فهو القائل:

إذا سمعتموني أذكر العوام فإني لست أعني الفلاحين والحُشوة والصناع والباعة، ولست أعني أيضاً الأكراد في الجبال، وسكان الجزائر في البحار، ولست أعني من الأمم مثل البير والطيلسان. ومثل موقان وجيلان، ومثل الزنج وأشباه الزنج، وإنما الأمم المذكورون من جميع الناس أربع العرب، وفارس، والهند، والروم. والباقون همج وأشباه الهمج. وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا، ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا، فالطبقة التي عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا. على أن الخاصة تتفاضل في طبقات أيضاً[651].

فهو أول من شَقّ له الحجاب فرأى في مخالقات العامة وعاداتهم، وتقاليدهم ومعاملاتهم، وفي أحاديثهم وأسمارهم، فناً يستروح الخاصة به، ويرى العلية فيه جماماً من كدهم في جدهم، كما رأى فيما تصالحوا عليه من التعبير عن خوالج نفوسهم، وما تنبض به قلوبهم من الأماني والآمال، ما يصح تقييده والتفكه به، والاعتبار بوجوه العبرة فيه، والاستفادة مما قد يفيد من نواحيه[652]. فحديث العوام في نظره مصدر إمتاع بالنسبة لغيرهم فهو لا يعيب عليهم اللحن سواء أكان في الإعراب أم في النواحي الصوتية، فكثيراً ما تجده يوصى بأن تحكى نوادر العوام كما سمعت في حين يطلب الإعراب وتحقيق الألفاظ في نوادر الأعراب فيقول: متى سمعت – حفظك الله- بنادرة من كلام الأعراب، فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها، .... إلى قوله:

"وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام وملحة من ملح الحشوة الطغام، فإياك أن تستعمل فيها الإعراب، أو تغير لها لفظاً حسناً، أو تجعل لها من فيك مخرجاً

([651]) البيان والتبيين ج1 ص 137.

([652]) أدب الجاحظ، حسن السندوبي ط1 القاهرة 1931م، ص 61.

سرياً، فإن ذلك يفسد الامتاع بها ويخرجها من صورتها، ومن الذي أريدت له، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها.

وكما هو معروف أن الدافع الحقيقي لبدء الدراسات النحوية واللغوية هو ظهور اللحن على ألسنة العوام منذ زمن أبي الأسود الدولي وقد ظهرت مصنفات كثيرة لعلماء من بعده لمعالجة لحن العوام. حيث يعد الكسائي (189هـ) أولهم بكتابه "كتاب ما لحن فيه العوام"، وجاء من بعده الفراء (207 هـ) وأبو عبيدة معمر بن المثنى (209 هـ) والمازني (248 هـ) والسجستاني (255هـ) وثعلب (291هـ) والباهلي (321هـ) والزبيدي (359هـ) وغيره من العلماء.

ونسبة لمخالطة الجاحظ للعوام واهتمامه بهم نجده قد خالف علماء عصره في مثل هذا التأليف بل هو الوحيد –في حدود اطلاعي- الذي أشار إلى لحن الخواص وهم العلماء والبلغاء فنجده يذكر باباً في كتابه البيان والتبيين بعنوان "ومن اللحانين البلغاء"[653]. والجاحظ –بذكره للحن الخواص- لا يشير إلى قبول اللحن من العوام ولكنه يريد أن ينقل حياة العامة بصورتها وألفاظها.

ثم أشار كل من ابن جني والحريري كذلك إلى لحن الخواص. فوضع ابن جني باباً في الخصائص سماه سقطات العلماء وقد أطلق الحريري (516) على العلماء اسم الخواص في كتابه "درة الغواص في أوهام الخواص". وكذلك تجد الجاحظ يفصل ما بين العوام والخواص في الشك فهو القائل :" والعوام أقل شكوكاً من الخواص لأنهم لا يتوقفون في التصديق والتكذيب، ولا يرتابون بأنفسهم فليس عندهم إلا الإقدام على التصديق المجرد، أو على التكذيب المجرد، والغوا الحال الثالثة من حال الشك التي تشتمل على طبقات الشك، وذلك على قدر سوء الظن وحسن الظن بأسباب ذلك، وعلى مقادير الأغلب[654].

ولغة العامة التي أشار إليها أصحاب المصنفات هي امتداد لظاهرة اللحن التي انتشرت بسبب توسع المحيط العربي بعد ظهور الإسلام، وأن لغة العامة المذكورة،

([653]) البيان والتبيين، ج2، ص 220.
([654]) الحيوان ج6، ص 36.

سمتها البارزة عدم ضبط حركة فاء الكلمة وعينها ولامها[655]. وسبب وجود العامية هو الميل إلى التسهيل، كما ذكر ذلك الجاحظ بقوله:

" وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها، إلا ترى أن الله تعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع أو العجز الظاهر. والناس لا يذكرون السغب، ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة. وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام. والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث، ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار، لم يقل الاسماع، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الآرضين، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين، ولا السمع أسماعاً، والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال وقد زعم بعض القراء أنه لم يرد ذكر لفظ النكاح في القرآن إلا في موضع التزويج.

والعامة ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما أو تستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالاً، وتدع ما هو أظهر وأكثر، ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ولم يسر ما هو أجود منه وكذلك المثل السائر وقد يبلغ الفارس والجواد الغاية في الشهرة، ولا يرزق ذلك الذكر والتنويه بعض من هو أولى بذلك منه.

إلا ترى أن العامة ابن القرية[656] عندها أشهر في الخطابة من سحبان وائل، وعبيد الله بن الحر[657] أذكر عندهم في الفروسية من زهير بن ذؤيب، وكذلك مذهبهم في عنترة بن شداد، وعتيبة بن الحارث بن شهاب[658]. وهم يضربون المثل بعمرو بن معد يكرب، ولا يعرفون بسطام بن قيس.[659]

من خلال حديثه هذا يتضح وصف الجاحظ للعوام وذلك بأنهم:

([655]) أسباب انتشار العامية د. موسى بناي. مجلة آداب الرافدين العدد الثامن ، جامعة الموصل 1977، ص 409.

([656]) منسوب إلى أمة هو أبو سليمان أيوب بن زيد، كان أعرابيا أميا فهو معدود في جملة الخطباء المشهورين قتله الحجاج سنة 84هـ. وذكر الأصفهاني أنه من ضمن ثلاثة أشتهروا وليس لهم وجود في الدنيا وهم مجنون ليلى وابن أبي العقب. انظر : الوفيات: ص 258 والأغاني ج2، ص 193.

([657]) عبيد الله بن الحر قائد من الشجعان الأبطال، وكان بينه وبين مصعب بن الزبير منافستن وقد صمد عبيد الله لرجال مصعب وتفرق أصحابه عنه، فخاف أن يؤسر فألقى نفسه في الفرات فما ت غريقاً، وكان شاعراً فحلاً. انظر ابن الأثير حوادث 68.

([658]) عتيبة بن الحارث كان فارس تميم، وفيه يقول عمرو بن معديكرب وما أبالي أي ظعينة لقيت على ماء من أمواه معد مالم يلقني دونها عبداها أو حراها، يعني بالحرين عامر بن الطفيل وعتبة بن الحارث، وبالعبدين عنترة والسليك بن السلكة. انظر الأغاني 27/14.

([659]) قسطام: سيد شيبان ومن أشهر فرسان العرب في الجاهلية ، أدرك الإسلام ولم يسلم، قتله عاصم بن خليفة الضبي.

يميلون دائما إلى السهل في اللغة وذلك بقوله "يستخفون وليس ذلك يعني أن السهل من اللغة يوصف بأنه عامي فلغتنا العربية ليست بصعبة الفهم على متحدثيها، لكن الجاحظ يعني أن العوام لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال بل يستعملون ما هو أقل في أصل اللغة استعمالاً ويدعون ما هو أظهر وأكثر ونتج عن ذلك كما ذكر:-

1- شهرة بعض أبيات الشعر وغيرها أحق منها.

2- بلوغ الفارس والجواد الغاية والشهرة ويوجد من هو أولى منه بذلك.

وفي حديثه عن اللفظ والمعنى نجده يشير إلى أن المعنى لم يتضع عندما ينسب للعامة يقول: "فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ...، فكن في ثلاث منازل، فإن أول الثلاث، أن يكون لفظاً رشيقاً عذباً، وفخماً سهلا، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً، وقريباً معروفا إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة[660]. فهو بذلك لم يعلن حرباً على العوام أو المتحدثين بالعامية، بل نجده يصفهم بأنهم لم يكن لهم حظ في المنطق، نلحظ ذلك في حديثه عن اللكنة[661]، فبعد أن تحدث عن لكنة البلغاء والخطباء والشعراء والرؤساء – أي الخواص- نجده يقول: "فأما لكنة العامة ومن لم يكن له حظ في المنطق فمثل فيل مولى زياد فإنه قال مرة لزياد "أهدوا إلينا حمار وهش يريد حمار وحش، فقال زياد. ما تقول ويلك! قال "أهدوا إلينا إيراً" يريد عيراً ، قال زياد: الأول أهون! وفهم ما أراد[662].

ومما يدل على اهتمامه بهم وحرصه عليهم قوله في فصل المتكلمين والمعتزلة "لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل فإن لم اقل، ولولا أصحاب إبراهيم، وإبراهيم لهلكت العوام من

([660]) البيان والتبين ج1، ص 136.

([661]) فصل الحديث عنها في فصل عيوب الكلام.

([662]) البيان ج1، ص 73.

المعتزلة. فإني أقول: "إنه قد أنهج لهم سبلاً، وفتق لهم أموراً واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة(663).

ومن خلال كلامه يتضح أن في كل أمة عوام وخواص وكذلك في النحل وخص منها المعتزلة لأن منهجه كذلك.

وبما أن الجاحظ قد لفت الأنظار إلى أنه يوجد بالمجتمع عوام وخواص، فهذا يدل على أن العامية كانت تسير جنباً إلى جنب مع الفصحى دون تأثير على الفصحى، ولم يحتدم النقاش عن التفريق بينهما إلا في مطلع هذا القرن فأصبح لكل منهما أنصار وخصوم، لذلك نجد أن الأستاذ محمود تيمور عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة يقول:

"معرفة كنه العامية أولى من البحث في الصراع بين أنصارها وخصومها – العامية أقدم من الفصحى- كانت لهجات القبائل والعشائر- الفصحى هي القالب المختار لمختلف اللهجات – اللهجات بقيت تنتقل على ألسنة الناس - أشكال اللهجات كل شكل منها يدعى لغة عامية. الفروق بين العامية والفصحى تتفاوت منازلها وأقدارها(664)، ويقول كذلك "ليست العامية كلها خصائص نطق وقواعد تعبير فثمة في العامية ناحية أجل شأناً وأعمق أثراً وأبعد مدى، تلك هي ناحية الألفاظ التي تدور بين الناس، بها يفهم بعضهم عن بعض، وبها يعدون عما في الحياة من المعاني والأشياء، ويترجمون ما يقوم بأنفسهم من المشاعر والأحاسيس، تلك ذخيرة من الألفاظ، لا يتمثل فيها مجرد الخصائص الصوتية أو اللسانية التي تتميز بها اللهجات ولا مجرد القواعد النحوية والصرفية التي تختص بها اللغات، وإنما تكمن في هذه الذخيرة اللفظية. وفوق ذلك كله حيوية الأمة في الإفصاح عن حاجات العيش ومقتضيات الحياة(665).

---

(663) الحيوان ج4، ص 206.

(664) مجلة مجمع اللغة العربية، طبعة مطبعة التحرير، القاهرة ، ج12، ص125.

(665) مجلة مجمع اللغة العربية ، ص 132.

ثم يقول "يخطئ من يحسب أن هذه الألفاظ شيء هين، فإنما هي في الحق كنز ثمين لأنها خلايا حية في كيان الأمة اللغوي...، فما استعمل الناس منها لفظاً إلا لمعنى ولا أضيف إليها لفظة إلا لحاجة، ولا أتيح البقاء بينها للفظ إلا لضرورة.

ولم يترفع الجاحظ عن العامة يوماً بل كان يخالطهم ويجالسهم فقد كان بطبعه شعبياًن مع أنه كان مقرباً نافذ الكلمة عند الوزراء والخلفاء[666]. فهو قد جالس الملاحين مراراً وسمع من أحاديثهم، فمن ذلك ما يقول:

"وسمعت حديثاً من شيوخ ملاحي الموصل –وأنا هائب له- ورأيت الحديث يدور بينهم، ويتقبله جميعهم. وزعموا أن الأسد ربما جاء إلى قَلْس السفينة[667]، فيتشبث به ليلاً، والملاحون يمدون السفينة فلا يشكون أن القلس قد التف على صخرة أو التف بجذم شجرة[668]. ومن عاداتهم أن يبعثوا الأول من المدادين ليحله. فإذا رجع إليه الملاح ليمده تمدد الأسد بالأرض ولزق بها وغمض عينيه كي لا يبصر وبيصهُما بالليل[669] فإذا قرب منه وثب عليه فخطفه، فلا يكون للملاحين هَم إلا إلقاء أنفسهم في الماء وعبورهم إليه. وربما أكله إلا ما بقي منه، وربما جر فريسته عِريسه وعرينه[670] وإلى أجرائه وأشباله، وإن كان ذلك على أميال.

وكذلك تجده يتحدث مع صائد العصافير ويقول: "وخبرني من يصيد العصافير قال: ربما كان العصفور ساقطاً على حائط سطح بحذائي، فيغمني صياحُه وحِدة صوته، فأصيح وأومئ إليه بيدي، وأشير كأني أرميه، فما يطير. حتى ربما أهويت إلى الأرض كأني أتناول شيئاً، كُل ذلك لا يتحرك له، فإن مست يدي أدنى حصاة أو نواةٍ وأنا أريدُ رميها، طار قبل أن تستكمن منها يدي[671].

([666]) يقول الجاحظ: "حالي أن الوزير يتكلم يراعي وينفذ أمري" انظرك تاريخ بغداد 12- 219.
([667]) القلس، بالفتح: حبل غليظ من حبال السفينة.
([668]) حزم الشجرة: أصلها.
([669]) ويبيصهما: الوبيض : البريق.
([670]) العريس: العريسة: مأوى الأسد.
([671]) الحيوان ج2، ص 329.

وأحياناً يخالط الحوائين ويقف منهم موقف المستمع إلى الشكوى وفي ذلك يقول[672]: -

" وشكا إلي حواء مرة فقال: أفقرني هذا الأسودُ ومنعني الكسب، وذلك أن امرأتي جهلت فرمت به في جونه فيها أفاعي ثلاثٌ أو أربع، فابتلعهن كلهن- وأراني حية منكرة!" ويقول كذلك:

"وزعم ابن أبي العجوز الحواء. أن الأفاعي صُم ، فلذلك لا تجيب الرقى، ثم زعم لي في ذلك المجلس أن أمير المؤمنين المنصور، أراد امتحان رُقَى حية، وأن يتعرف صِحتها من سُقمها، وأنهُ أمر بالزاقها في موضع من السقف، وأنه أحضره وقال له: إن هذه الأفعى قد صارت في هذه الدار، وقد كرهتها لمكانها، فإن احتَلْتَ لي برقية أو بما أحببت أحسنت إليك. قال: إن أردت أن أخذها هربت، ولكن أرقيها حتى تنزل، فرقاها فلما رآها لا تتحرك زاد في رفع صوته، والقى قناعة، فلما رآها لا تتحرك نزع عمامته وزاد في رفع صوته، فلما رآها لا تتحرك نزع قلنسوته وزاد في رفع صوته. فلما رآها لا تتحرك نزع ثيابه وزاد في رفع صوته حتى أزبَدَ وتمرغ في الأرض، فلما فعل ذلك سال ذلك الرصاص وزاب، حتى صار بين أيديهم. فأقر عند ذلك المنصور بجودة رقيته. قال الجاحظ بعد أن استمع جيداً لحديث الحواء: -

قال: فقلت له: ويلك! زعمت قبيل أن الأفاعي لا تجيب الرُقى لأنها لا تسمع، وهي حيوان، ثم زعمت أنها أجابت، وهي جماد!!

وله نقاش في شأن الفيل مع سيد يدعى غانماً[673] وذلك عندما قال: "والفيل أضخم الحيوان وهو مع ضخمه أملحُ وأظرف وأحكى، وهو يفوق كل خفيف الجسم، رشيق الطبيعة قال: فسمعني غانم العبد يوماً وأنا أحكي هذا الكلام، وكان من أموق الناس وأرقعهم رقاعة، مع تيه شديد وعجب ورضا عن نفسه، وسخط على الناس. فمن حمقه أنه هندي وهو يتعصب على الفيل، فقال لي: ما تقول الهند في الحوت الذي يحمل الأرض، أليس أعم نفعاً وأعلى أمراً؟ قلت له: يا هالك، إن مدار هذا

([672]) الحيوان ج6، ص401، وانظر 419/4.

([673]) الحيوان، ج7، ص 109.

الكلام إنما يقع على الأقسام الأربعة من بين جميع الحيوانات المذكورة في الماء وفي الأرض وفي الهواء كالذي ينساح من أجناس الحيات والديدان، وكالذي يمشي من الدواب والناس، وكالذي يطير من أحرار الطير وبغاثها وخشاشها وهمجها، وكالذي يعوم كالسمك وكل ما يعايش السمك.

فأما الحوت الذي تكون الأرض على ظهره[674]، فقد علمنا أن في الملائكة من هو أعظمُ من هذا الحوت مراراً.

وعقب الجاحظ على هذا الحوار بقوله: ولولا مكان من قد حضرنا لكان ممن لا يستأهل الجواب، وهذا مقدار معرفته[675]. وقد اكتسب الجاحظ معارفه الواسعة عن الحيوان بالإطلاع وبالمخالطة، فلم تمنعه شهرته يوماً من الجلوس مع كافة الأجناس البشرية خواص أو عوام، لكن مخالطته للخواص لا تلفت النظر لأن علماء عصره كانوا يتقربون للخلفاء والأمراء. وما يميزه عن غيره هو مخالطته لعوام الناس، وسوف ترى في ثنايا هذا الفصل مشاهد عديدة من مواقفه معهم. ثم من بعد ذلك نجده يجود بكل ما حملته قريحته الوقادة من علم غزير. فهو القائل في شأن الحوائين والرقائين:

" والحواء والراقي يرى الناس أنه إذا رأى جحراً، لم يخف عليه أحجر حية هو أم جحر شيء غيره، فإذا كان جحر حية لم يخف عليه أهي فيه أم لا، ثم إذا رقى وعزم فامتنعت من الخروج، وخاف أن تكون أفعى صماء لا تسمع، وإذا اراغها[676] ليأخذها فأخطأ لم يأمن من أن تنقره نقرة لا يفلح بعدها أبداً، فهو عن ذلك يستبري[677] بأن يشم من تراب الحجر، فلا يخفى عليه: أهي أفعى أم حية من سائر الحيات.

([674]) هذه العبارة واردة في روايات آخر هكذا [يكون على وجه الأرض].
([675]) الحيوان ج7، ص 110.
([676]) أراغها: طلبها.
([677]) يستبري: يختبر – أي يطلب براءة الحجر مما قد يكون به من الأفاعي لهم.

قال: وزعم بعض الحوائين أن للحيات نتناً وسهكاً، وأن ريح الأفعى معروفة، وليس شيء أعلق، ولا أعنق[678] ولا أسرع أخذاً لرائحة من طين أو تراب. وأنه إذا شم من طينة الحجر لم يخف عليه. وقال: واعتبر ذلك بهذا الطين السداني[679] والراهطي، إذا ألقى في الزعفران والكافور، أو غير ذلك من الطيب، فإنه متى وضع إلى جنب رَوثَةٍ أو عَذرةٍ قبل ذلك الجسم.

ومن الملاحظ أن الجاحظ لم يسلم بآرائهم بل تراه يبث رأيه من خلال عرضه لحديثهم قال:

"والرقاء يوهم الناس إذا دخل دورهم لاستخراج الحيات أنه يعرف أماكنها برائحتها، فلذلك يأخذ قصبة، ويشعب رأسها ثم يطعن بها في سقف البيت والزوايا، ثم يشمها، ويقول مرة: فيها حيات، ويقول مرة بلى، فيها حيات على قدر الطمع في القوم، وفي عقولهم.

وكذلك تحدث عن أكل الحوائين للحيات وقال: وقد كان في بغداد وفي البصرة جماعة من الحوائين، يأكل أحدهم أي حية أشرت إليها في جونته، غير مشوية وربما أخذ المرارة وسط راحته فلطعها بلسانه، ويأكل عشرين عقرباً نية بدرهم، وأما المشوي فإن ذلك عنده عرس[680]

وتحدث الجاحظ عن صعوبة سياسة العوام بقوله[681]:-

"وليس في الأرض عمل أكد لأهله من سياسة العوام، فقال الهزلي يصف صعوبة السياسة:

وإن سياسة الأقوام فأعلم　　لها صعداء مطلبها طويل

عقيدة العامة في أمير الذبان:-

قال الجاحظ[682]:

(678) أعنق : أسرع.
(679) السداني: كما ذكر المحقق لعله السير في نسبة إلى سيراف.
(680) ويعني أن ذلك الأشهى عنده كأنه وليمة عرس .
(681) الحيوان ج2 ، ص 94.
(682) الحيوان ج3، ص 342.

وقد كانوا يقتلون الذباب الكبير الشديد الطنين المُلح في ذلك الجهير الصوت، الذي تسميه العوام: "أمير الذبان" فكانوا يحتالون في صرفه وطرده وقتله إذا أكربهم بكثرة طنينه وزجله وهماهمه[683]، فإنه لا يفتُر.

فلما سقط إليهم أنه مبشر بقدوم غائب وبرء سقيم، صاروا إذا دخل المنزل وأوسعهم شراً، لم يهجه أحد منهم.

قال: وإذا أراد الله عز وجل أن ينسي في اجل شيء من الحيوان هيأ لذلك سبباً، كما أنه إذا أراد أن يقصر عمره ويحين يومه هيأ لذلك سبباً، فتعالى الله علواً كبيراً. ولعله أراد بعبارة "أن ينسي في أجل شيء من الحيوان" سرعة تصديق العامة إلى قول من قال أن مجئ الذباب مبشراً بقدوم غائب وبرء سقيم" فهذا يرجع إلى قوله في بداية هذا الفصل. إن العامة أقل شكوكاً من الخاصة لأنهم لا يتوقفون في التصديق والتكذيب، فقد اصبحوا لا يقتلون الذباب حتى لو أكربهم بكثرة طنينه. ويشير الجاحظ إلى أن الله قد أنسأ في أجله بجعلهم يستبشرون بقدومه ولا يقتلونه.

ولأسلوب الجاحظ سلاسة نجدها في عرضه لموضوعاته، مهما كانت حكمك على الموضوع بالجمود، فالحديث عن الذباب ليس فيه ما يجعلك أن تتوقف عنده ولكنه يروي لك قصصاً طريفة تكن دافعاً لك للاطلاع على كل ما يكتبه عن الذباب مثلاً: ومن طرائف ما حكاه قصته هو نفسه مع الذباب قال: "فأما الذي أصابني أنا من الذبان، فإني خرجت ُأمشي في المبارك[684] أريد دير الربيع ولم أقدر على دابة فمررت في عُشب أشب[685]" ونبات ملتفٍ كثير الذبان، فسقط ذباب من تلك الذبابات على أنفي، فطردته، فتحول إلى عيني فطردته، فعاد إلى مُوق عيني فزدتُ في تحريك يدي فتنحى عني بقدر شدة حركتي وذبي عن عيني، ثم عاد إلي فعدت عليه، ثم عاد إلي فعدت بأشد من ذلك، فلما عاد استعملت كمي فذببت به عن وجهي، ثم عاد، وأنا في ذلك أحث السير، أؤمل بسرعتي انقطاعه عني. فلما عاد نزعت طيلساني[686] من

([683]) هماهم: جمع همهمة، والمراد بها الطنين.
([684]) نهر بالبصرة.
([685]) أشب: ملتف.
([686]) الطيلسان : كساء مدور أخضرك لحمته أو سداه من الصوفك يلبسه الخواص من العلماء والمشايخ.

عنقي فذببت به عني بدل كمي، فلما عاود ولم أجد له حيلة استعملت العدوَ، فعدوت منه شوطاً تماماً لم أتكلف مثله مذ كنت صبياً، فتلقاني الأندلسي فقال لي: مالك يا أبا عثمان! هل من حادثة؟ قلت نعم، أكبر الحوادث أريد أن أخرج من موضع ليس للذبان على فيه سلطان؟ فضحك حتى جلس. وانقطع عني، وما صدقت بانقطاعه عني حتى تباعد جداً.

وكذلك حكى قصة لقاضي بالبصرة يقال له عبد الله بن سوار لم ير الناس حاكماً قط ولا زميتا[687] ولا ركيناً[688]، ولا وقوراً حليما ضبط من نفسه وملك من حركته مثل الذي ضبط وملك حتى سقط على أنفه ذباب جعله يتحرك في المجلس على غير عادته، فلما نظر إليه جلساؤه قال:-

أشهد أن الذباب الج[689] من الخنفساء، وأزهى من الغراب! واستغفر الله. فما أكثر من أعجبته نفسه فأراد الله عز وجل أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً! وقد علمت أني عند الناس من أزمت الناس، فقد غلبني وفضحني أضعف خلقه، ثم تلا قوله تعالى: "وإن يَسلُبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب".

وكان بين اللسان، قليل فضول الكلام، وكان مهيباً في أصحابه، وكان أحد من يُطعن عليه في نفسه"[690].

ما تستنكره العامة من القول:

قال[691]: وتقول العرب: الشمسُ أرحمُ بنا! فإذا سمع السامعُ منهم أن جالينوس قال: عليكم بالبقلة الرحيمة، استشنه السامع، وإذا سمع قول العرب: الشمس أرحم بنا وقول أمية بن أبي الصلت:

ما أرحمَ الأرضَ إلا أننا كُفُرُ

([687]) الحيوان: ج3 ، ص 346.
([688]) الزميت/ العظيم الوقار – الركين: الرزين.
([689]) وفي رواية "الح".
([690]) الحيوان ج3، ص 346.
([691]) الحيوان ج3 ، ص 365.

لم يستشنعه، وهما سواء، فإذا سمع أهلَ الكتاب يقولون إن عيسى بن مريم أخذ في يده اليمنى غُرفةً، وفي اليسرى كسرة خبز، ثم قال: هذا أبي، للماء، وهذه أمي، لكسرة الخبز. استشنعه، فإذا سمع قول أمية:

والأرضُ نوخها الاله طروقةَ   للماء حتى كل زَنْد مُسفَدُ[692]

لم يستشنعه. والأصل غي ذلك أن الزنادقة أصحاب ألفاظ في كتبهم واصحاب تهويل، لأنهم حين عدموا المعاني، ولم يكن عندهم فيها طائل مالوا إلى تكلف ما هو أخصرُ وايسر وأوجز كثيراً. وهذا راجع أيضاً إلى عدم توقفهم في التصديق والتكذيب وكذلك الولاء للعرب دون غيرهم.

وبين الفنية والأخرى تجده ينشر اهتماماته بشأن اللغة وألفاظها واستعمالاتها، فمثل ذلك قوله:-

"ولكل قوم ألفاظ حظيت عندهم. وكذلك كل بليغ في الأرض وصاحب كلام منثور، وكل شاعر في الأرض وصاحب كلام موزون فلابد من أن يكون قد لهج وألف ألفاظ بأعيانها، ليديرها في كلامه وأن كان واسع العلم غزير المعاني، كثير اللفظ. فصار حظ الزنادقة من الألفاظ التي سبقت إلى قلوبهم، واتصلت بطبائعهم، وجرت على ألسنتهم. التناكح والنتائج، والمِزاج، والنور والظلمة، والدفاع والمناع والساتر والغامر، والمنحلّ، والبطلان، والوجدان، والأثير والصديق، واشكالاً من هذا الكلام فصار وإن كان غريبا مرفوضاً مهجوراً عند أهل ملتنا ودعوتنا، وكذلك هو عند عوامنا وجمهورنا، لا يستعمله إلا الخواص وإلا المتكلمون(693). قال: وأنا أقول لأني أعلم فيه خللاً، ولكنّي أخذت بآداب وجوه أهل دعوتي وملتي، ولغتي، وجزيرتي، وجيرتي، وهم العرب. وذلك أنه قيل لصحار العبدي: (الرجل يقول لصاحبه عند

---

(692) نوخها: أي أبركها. والطروقة بالفتح: انثى الفحل. والزند: هو قرين الزندة، ومنها تقترح النار، فالأول لا فجوة فيه، وفي الزندة فحوة يدار فيها الزند فيظهر الشرر. والمسفد: الذي طلب السفاد فناله. والمعنى إن نظام التلاقح ليس خاصا بالأحياء بل تراه أيضا بين الأرض والماء وبين الزند والزندة.

(693) الحيوان ج3، ص 367.

تذكيره أياديه وإحسانه في هذا قولاً، وأرجو أن يكون مرضياً. ولم أقل أرجو لأني) أما نحن فأنا نرجو أن نكون قد بلغنا من أداء ما يجب علينا مبلغا مُرضيا، وهو يعلم أنه قد وفاه حقه الواجب، وتفضل عليه بما لا يجب، قال صُحار. كانوا يستحبون أن يَدَعُوا للقول متنفساً وأن يتركوا فيه فضلاً وأن يتجافوا عن حقٍ إن أرادوه لم يُمنعوا منه.

قال: فلذلك قلت "أرجو" فأفهَم فَهمكَ الله تعالى.

تشابه طبائع العامة في كل بلدة وفي كل عصر

تحدث الجاحظ عن تشابه طبائع العامة فقال:-

"وذكر الله عز وجل رد قريش ومشركي العرب على النبي صلى الله عليه وسلم قوله، فذكر ألفاظهم وجَهدَ معانيهم، ومقاديرهمهم التي كانت في وزن ما يكون من جميع الأمم إلى أنبيائهم، فقال: "تشابهت قلوبهم" وقال: " أتواصَوا به" ثم: "وخضتم كالذي خاضوا" ، ومثل هذا كثير، ألا ترى أنك لا تجد بُداً في كل بلدة وفي كل عصرٍ للحاكة فيهم على مقدار واحد وجهة واحدة، من السخط والحمق، والغباوة والظلم، وكذلك النخاسون على طبقاتهم، من أصناف ما يبيعون وكذلك السماكون والقلاسون[694]، وكذلك أصحاب الخلقان كلهم، في كل دهر وفي كل بلد، على مثال واحد، وعلى جهةٍ واحدة. وكل حجام في الأرض فهو شديد الاستهتار بالنبيذ، وإن اختلفوا في البلدان والأجناس والأسنان.

ولا ترى مسجوناً ولا مضروباً عند السلطان إلا وهو يقول إني مظلوم. ولذلك قال الشاعر:-

لم يخلق الله مسجوناً تسائله   ما بالُ سجنك إلا قال مظلوم

وليس في الأرض خصمان يتنازعان إلى حاكم، إلا كل واحدٍ منهما يدعى عدم الإنصاف والظلم على صاحبه ويقول:-

---

([694]) القلاس: الضارب بالدف ، النحاس: بائع الدواب والرقيق.

"وليس في الأرض إنسان إلا وهو يطرب من صوت نفسه، ويعتريه الغلط في شعره وفي ولده. إلا أن الناس في ذلك طبقات من الغلط:
فمنهم الغرق المغمور، ومنهم من قد نال من الصواب ونال من الخطأ، ومنهم من يكون خطؤه مستوراً لكثرة صوابه، فما أحسَنَ حالُهُ مالم يُمَتَحن بالكشف. ولذلك احتاج العاقل في العجب بولده وفي استحسان كتبه وشعره، من التحفظ والتوقي، ومن إعادة النظر والتهمة إلى أضعاف ما يحتاج إليه في سائر ذلك[695].

والعامة تحكم أن حاتماً أجود العرب، ولكن الذي يُحدث به عن حاتم، لا يبلُغ مقدارُ ما رَوَوهُ عن كعب بن مامة لأن كعباً بذل نفسه في أعطية الكرم وبذْل المجهود فساوى حاتماً من هذا الوجه، وباينه ببذْل المهجة[(696)].

يقول الجاحظ: ونحن نقول: إن الأشعار الصحيحة بها المقدارُ الذي يوجب اليقين بأن كعباً كما وصفوا. فلو لم يكن الأمرُ في هذا إلى الحُدود والحُظوظ والاتفاقات، وإلى علل باطنه تجري الأمور عليها، وفي الغوص عليها وفي معرفتها بأعيانها عُسر، لما جرت الأمور على هذه المجاري. ولو كان الأمر فيها مفوضاً إلى تقدير الرأي، لكان ينبغي لغالب ابن صعصعه[(697)] أن يكون من المشهورين بالجود دون هرم وحاتم.

كلف العامة بمآثر الجاهلية:

قال الجاحظ:

"فإن زعمت أن غالباً كان إسلامياً وكان حاتم في الجاهلية والناس بمآثر العرب في الجاهلية أشد كلفاً، فقد صدقت. وهذا أيضاً ينبئك أن الأمور على خلاف تقدير الراي، وإنما تجري في الباطن على نسق قائم، وعلى نظر صحيح، وعلى تقدير محكم، فقد

([695]) الحيوان ج1، ص 107.

([696]) لعل الجاحظ يشير هنا إلى ما روى من أن كعباً هذا خرج في ركب، فيهم رجل من النمر بن قاسط، في شهر تاجر، فضلوا فتصافنوا ماءهم – وهو أن يطرح في القعب حصاة. ثم يصب الماء بقدر ما يغمر الحصاة، فيشرب كل أناس بقدر ذلك – فقعدوام للشربن فلما دار القعب فانتهى إلى كعب، ابصر النمري يحد النظر إليه فآثره بمائه وقال للساقي: أسق أخاك النمري، فشرب النمري نصيب كعب ذلك اليوم من الماء، وحدث في غدهم ما حدث في أمسهم، ونال النمري نصيب كعب. وارتحل القوم وقالوا: يا كعب ارتحل! فلم يكن بكعب قوة للنهوض وكانوا قد قربوا من الماء، لكنه عجز عن ذلك فتركوه مكانه في فاظة أي هلك .

أنظر: امثال الميداني: 167/1 – العقد 147/1.

([697]) غالب بن صعصعة كان من وجوه تميم، وهو والد الفرذدق الشاعر أدرك النبي صلى الله عليه وسلم، ووفد على علي، توفي في نحو سنة 40هـ.

تقدم في تعبيتهما وتسويتهما من لا تخفي عليه خافيه، ولا يفوته شيء ولا يعجزه. وإلا فما بالُ أيام الاسلام ورجالها لم تكن أكبر في النفوس، وأجل في الصدور من رجال الجاهلية، مع قرب العهد وعظم خطر ما ملكوا، وكثرة ما جادت به أنفسهم، ومع الإسلام الذي شملهم وجعله الله تعالى أولى بهم من أرحامهم، ولو أن جميع مآثر الجاهلية وزنت به، وبما كان في الجماعات واليسيرة من رجالات قريش في الإسلام لأربت هذه عليها أو لكانت مثلها[698].

زعم العامة في الكركدن[699]"

يقول الجاحظ: والعوام تضرب المثل في الشدة والقوة بالكركدن وتزعم أنه ربما نطح الفيل فرفعه بقرنه الواتد في وسط جبهته فلا يشعر بمكانه ولا يحس به حتى ينقطع على الأيام. ويعلق بقوله: "وهذا القول أشبه عندي بالخرافة"

قولهم في المسخ:

قال[700]: "روى أنه أتى بلحم الضب على خوان النبي صلى الله عليه وسلم فلم يأكله، وقال: "ليس من طعام قومي"

وأكله خالد بن الوليد فلم ينكر عليه.

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا أكله ولا احرمه" وأنكر ذلك ابن عباس وقال: ما بعثه الله تعالى إلا ليحل ويحرم وحرمة قوم ورووا أن أمتين مسختا، أخذت أحداهما في البر فهي الضباب، وأخذت الأخرى في طريق البحر فهي الجري.

ورَووا عن بعض الفقهاء أنه رأى رجلاً أكل لحم ضب فقال "أعلم أنك قد أكلت شيخاً من مشيخة بني أسرائيل. وقال بعض من يعافه. الذي يدل على أنه مسخ شبه كفه بكف الإنسان. والعوام فقول ذلك. وناس يزعمون أن الحية مسخ والضب مسخ والكلاب مسخ والأربيان[701] مسخ والفأر مسخ

([698]) الحيوان ج2 ، ص 108.

([699]) ليس له وجود الآن والذي يثبته هو أن داؤد عليه السلام ذكره في الزبور وحين سماه. وقد ذكره صاحب المنطق في كتاب الحيوان لكنه سماه بالحمار الهندي وجعل له قرنا واحدا في وسط جبهته.

([700]) الحيوان ج1 ، ص 79.

([701]) الأربيان ضرب من السمك.

قول أهل الكتاب في المسخ.

قال الجاحظ: ولم أر أهل الكتاب يقرون بأن الله تعالى مسخ إنساناً قط خنزيراً ولا قرداً، إلا أنهم قد أجمعوا أن الله تبارك وتعالى قد مسخ امرأة لوط حجراً حين التفتت.

وكان ذلك فيما يروى المفسرون[702] أنها التفتت حين سمعت هرة العذاب. وقالت: واقوماه، وفي الكتاب العزيز: "فأسر بأهلك يقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك[703]"

زعم العوام في العقرب:-

يلاحظ أن الجاحظ في حديثه عن الحيوان يورد الأمثال والأشعار والنوادر التي تتعلق بأي نوع من أنواعه.كما لا يفوته أن يورد زعم العوام في ذلك الحيوان. ففي حديثه عن زعم العوام في العقارب قال:

"والعامة تزعم أنها شر ما تكون إذا ضربت الإنسان وقد خرج من الحمام، لتفتح المسام، وسعة المجاري وسخونة البدن، ولذلك صار سمها في الصيف أشدُ. هذا قول أبي اسحق. كأنه كان يرى أن الهواء كلما كان أحر، وكان البدن أسخن كان شراً.

ونحن نجدهم يصرخون من لسعتها الليل كله. وإذا طلعت الشمسُ سكن ما بهم. فإذا بقيت فضلة من تلك الجارحة في الشمس فما أكثر ما يسكن وسمومها بالليل أشد، إلا أن يزعم أن أجواف الناس في برد الليل أسخن وفي حر النهار أفتر[704].

([702]) تفسير أبي حيان 248/5.
([703]) سورة هود آية 81.
([704]) الحيوان ج4، ص 222.

وكذلك العامة في أواسط السودان يزعمون أن العقرب إذا لسعت إنساناً ولم تقتل كان ألمها أشد منه إذا قتلت، لذلك تجدهم يسارعون للبحث عنها وقتلها.

يقول: "وتختلف سموم العقارب بأسباب:

منها اختلاف أجناسها كالجرارة وغيرها، ومنها اختلاف الترب، وتختلف مضرة سمومها على قدر طباع الملسوع. ويختلف قدر سمومها على قدر مواضع اللسعة، وعلى قدر اختلاف ما بين الليل والنهار، وعلى قدر ما صادفت عليه الملسوع من غذائه، ومن تفتح منافسه[705].

وفي نفعها قال:

والعقرب تجعل في جوف فخار مشدود الرأس مطين الجوانب ثم يوضع الفخار في تنور فإذا صارت العقرب رماداً سقى من ذلك الرماد من به الحصاة مقدار نصف دانق.

قال: وقال حنين بن اسحاق: وقد يسقى منه الدانق وأكثر، فيفتت الحصاة من غير أن يضر بشيء من الأعضاء وخير الدواء ما قصد إلى العضو السقيم، وسلمت علية الأعضاء الصحيحة[706].

وفي حديثه عن الحيات قد أورد ما يلي من الأمثال:

قولهم: "جاء بأم الربيق على أريق"

قال: أم الربيق: إحدى الحيات. وأريق: أم الطبق[707]. ضربوا به مثلاً في الدواهي.

واصلها من الحيات قال:

إذا وجدت بواد حية ذكرا   فأذهب ودعني أمارس حية الوادي[708]

وكذلك من الأمثال:

"أدرك القويمة لا تأكلها الهُوَيمة"

---

(705) نفسه ج5، ص 262-263.
(706) الحيوان، ج5، ص 354.
(707) أم الطبق: من كنى الحيات. وسميت بذلك لإطباقها على من تلسعه.
(708) حية الوادي: مثل الرجل المنيع الجانبن فإن حية الوادي تحميه فلا يقربه شيء.

ويعني : الصبي الذي يدرج ويتناول كل شيء سنح له، ويهوى به إلى فيه. كأنه قال لأمه: أدركيه لا تأكله الهامة! وهي الحية وشعر للأخطل في الحية:

قال الأخطل في جعلهم الرجل الشجاع وذا الرأي الداهية حية: وإذا أرادوا ذلك فما أكثر ما يجعلون الحية ذكراً. قال الأخطل:

أنبتَ كلباً تمنّى أن يسافهنـ ـا — وطالما سافهونا ثم مـا ظفـ ـروا
كلفتمونا رجالاً قاطعي قـ ـرن — مستلحقين كما يستلحـ ـق اليسـ ـر[709]
ليست عليهم إذا عُدت خصالهم — خَصلٌ وليس لهم ايجاب ما قمـ ـروا
قد انذروا حيةً في رأس هضبته — وقد انتهم به الأنبـ ـاءُ والنـ ـذُر
باتوا رقوداً على الأمهاد ليلهم — وليلهم ساهر فيها وما شعـ ـروا
ثمتَ قالوا أمات الماء حيتَـ ـه — وما يكادُ ينامُ الحيـ ـةَ الذَكـ ـرُ

وفي هذه الأبيات يعني الأخطل "بقاطعي قرن" قيساً. وذلك أن كلباً لاموا تغلب فقالوا: أعنتم قيسا علينا! فقال الأخطل: حملتمونا ذنب هؤلاء، والزمتموناه، وليسوا منا ولا نحن منهم، كما يستلحق الأيسار رجلاً لم يكن معهم.

ولم يكتف الجاحظ بإيراد الأمثال والأشعارفحسب، بل نجده يقف على الجوانب اللغوية الأخرى وذلك كتفسيره لبعض المعاني منها[710]، قال: والخرشاء: القشرة الغليظة بعد أن تنقب فيخرج ما فيها وجمعه: الخراشي غير مهموز. قال: وخرشاء الحية: سلخها حين تسلخ، وقال: هذا أسود سالخ، وهذان أسودان سالخان وأساود سالخة:

وقال مرقش:

إن يغضبوا يغضب لِذَاكُم كما — يَنْسل عن خِرشائهِ الأرقـ ـم

كذلك قال:

([709]) اليَسَر، بالتحريك صاحب القدح من قداح الميسر. وكانوا ربما جاء الرجل بقدحه بعد ما فاز منهم الواحد والاثنان، فيسألهم أن يدخلوا قداحة في قداحهم، فيفعلون ذلك ويسمونه المستحلق.

([710]) الحيوان ، ج4 ، ص 247.

ويقال لسان طلْق ذلْق[711]. ويقال للسليم إذا لدغ: قد طلق، وذلك حين ترجع إليه نفسه. وهو قول الخليفة:

تناذرها الراقون من سوء سمها   تطلقه طوراً وطوراً تراجِـعُ[712]

وقال العبدي[713]:

تبيتُ الهمومُ الطارقات يَعُدنَني   كما تعتري الأهوال رأس المطلق

وأنشد:

تلاقي مِن تذكرِ آل ليـ ـلى   كما يلقى السليمُ مِنَ العِـ ـ ـدَاد

والعداد: الوقت. يقال: إن تلك اللسعة لتعاده: إذا عاده الوجع في الوقت الذي لسع فيه[714].

وكذلك قال: قال أبو زيد: نهشت أنهش نهشاً. والنهش: هو تناول الشيء بفيك: فتمضغه فتؤثر فيه ولا تجرحه. وكذلك نهش الحية. وأما نهش السبع فتناوله من الدابة بفيه، ثم يقطع ما أخذ منه فوه. ويقال نهشت اللحم أنهشه نهشاً، وهو انتزاع اللحم بالثنايا، للأكل. ويقال: نشطته الحية فهي تنشِطهُ نشطاً. فهو أن تعضه عضاً. ونكزته الحية تنكزه نكزاً، وهو طعنُها الإنسان بأنفها. فالنكز من كل دابة سوى الحية العض. ويقال: نشطته شَعُوب[715] نشطاً وهي المنية[716].

وقد أورد قول الأصمعي أيضا فيما يتعلق بتفسير المعاني قال: وقال الأصمعي:- يقال للحية الذكر ايم، وأَيم، مثقل ومخفف، نحو: لين ولين، وهين وهين. قال الشاعر:

هينون لينون أيسار ذوُو يَسَرٍ   سُواسُ مَكْرُمة أبناءُ أيسَـ ـ ـار

([711]) في القاموس: "وطلق اللسان بالفتح والكسر، وكأمير. ولسان طلق ذلق –ضبط كل منهما ككتف، وطليق ذليق: وطُلُق ذُلُق لضمتين. أنظر في ماوة ذلق: طلق.

([712]) تناذرها الراقون: أنذر بعضهم بعضاً ألا يتعرضوا لها. تطلقه: أي تطلق السليم المذكور في البيت السابق، والمعنى تخف الأوجاع عنه تارة وتشتد أخرى.

([713]) يعني بالعبدي هنا: الممزق العبيد، صاحب البيت السائر:

فإن كنت مأكولاً فكن أنت   أكلي وإلا فأدركني ولما أمزق

أنظر الشعراء 936.

([714]) الحيوان ج4، ص 249.

([715]) شعوب: بالفتح ومنع الصرف: علم للمنية، سميت بذلك لأنها تشعب .

([716]) السابق ، ج4 ص 253.

وأنشد في تخفيف الأيم وتشديده[717]:-

ولقد وردتَ الماء لم تشرب به زمن الربيع إلى شهور الصيفِ[718]
إلا عواسِرَ كالمراط مُعيـ ـدة بالليل مـ ـ ـورِدَ أيم متغضف

قال الجاحظ: الصيف: يعني مطر الصيف. والعواسر: يعني ذئاباً رافعة أذنابها. والمراط: السهام التي قد تمرط ريشها. ومعيدة: يعني معاودة للورد.
يقول هو مكان لخلائه يكون فيه الحيات وترده الذئاب. ومتفضف: يريد بعضه على بعض، يريد تثني الحية.
ثم رجع بنا إلى أمثال العامة فقال:
"ومن أمثال العامة للشيء تتعرفه بغير مؤونة: "الحجرُ مجان والعصفور مجان".
والمجان هو الكثير الكافي. أو عطية الشيء بلا منة ولا ثمن. وقال الأزهري العرب تقول. تمر مجان وماء مجان يريدون أنه كثير كاف.
اهتمامه بالعوام من خلال كتابيه "حيل اللصوص والبخلاء"
كتاب اللصوص من كتب الجاحظ التي ضاعت ولم يبق منها إلا بعض الإشارات الخاطفة في بعض الأحيان إلى موضوعاتها. كما في كتاب البخلاء. وقد أشار إليه مرة أخرى في مقدمة كتاب الحيوان وسماه كتاب "حيل اللصوص" ووصفه كما يلي:
"تصنيف حيل لصوص النهار، وفي تفصيل حيل سراق الليل" وفي موضع آخر نجد إشارة إلى شئ من منهجه في تاليفه وذلك في سياق خبر رواه عن "بابوية" صاحب الحمام: إذ يقول عنه: "ولو سمعت بقصصه في كتاب اللصوص علمت أنه بعيد من الكذب والتزيد[719]"

---

(717) القائل هو ابو كبير الهذلي – انظر: أمالي القالي 89/2.
(718) وردت: بفتح تاء المخاطب يخاطب رجلاً رثاه من قومه.
(719) انظر الحيوان 156/2.

ويقول الدكتور طه الحاجري في ذلك: "سلك الجاحظ في هذا الكتاب مسلك الرواية. أو وضع الأحاديث ونحلها هذا أو ذاك كبابويه، وعثمان الخياط.

وكذلك وجد جزء من آخر. من كتاب اللصوص –وهو من وصية عثمان الخياط للشطار من اللصوص قال[720]: "إياكم إياكم وحب النساء وسماع ضرب العود وشرب الزبيب المطبوخ، ....، وعليكم بنبيذ التمر وضرب الطنبور، وما كان عليه السلف وهناك قطعة ثالثة أوردها صاحب المحاسن والمساوئ في الباب الذي عقده عن مساوئ الجبن. وقال فيها: "سمعت بلالاً يحكي عن اصحابه أن رئيسهم كان يسمى ابريقياء وأنهم خرجوا في سفر، فإذا بعشرة نفر من اللصوص قد تعرضوا لهم قال: "وكان أشد أصحابنا والمنظور إليه منا فتى يقال له "دوماني" بطل شديد لا يهوله شئ مطاعن مسابق، فحمل على رجل منهم، فعطف عليه الرجل، فقطع أنف دوماني وكسر أسنانه فرجع منهزماً، فغاظني ذلك فوثبت وأخذت كسائي وطويته بطاقين ولففته على يدي وأخذت عصاي، وأخذ آخر ملحفة والدته فلفها على ذراعه، وأخذ آخر طبقاً كبيراً من أطباق الفاكهة فستر به وجهه، وخرجنا وتقدم رئيسنا إبريقيا، وقد لفّ على يده قطيفة وهو يقول:

* إن تنكروني فأنا ابن كلاب *

فقال له بعض اللصوص: ما ننكر ذلك عليك، فشد عليه بأسفل "دن" كان معه، فلم يحك فيه، فأخذ اللص "الدن" فرمى، به ابريقياء فهشم وجهه وكسر أسنانه وتنحى ابريقياء. وأقبل من آخر يسمى لقوة، وأنشأ يقول:

إن عصاي –فاعلموا- مقيرة أضرب بها وجه اللصوص الكفرة

ثم شد على واحد منهم، فضرب مفرق رأسه، فلم يحك فيه. واستلب العصا منه وطلاه بها طلياً، فإذا قد خلع منكبه وكسر أضلاعه، وبقى لا يحلى ولا يمر، ثم أقبل فتى من أصحابنا وفي يده مجرفة وهو يقول:

أنا ابن كهل في يدي مجرفـة

([720]) البخلاء تحقيق طه الحاجري ط1 دار الكتاب المصري 948، ص 9.

والله لـو كان يكفي مغرفـة
وهي لعمري قد كستني ملحفة
والـ ـدتي كريمـة منظفـة
عتلتكم فكيف عندي مجرفـة

فضرب بالمجرفة واحداً من اللصوص فأخطأه، وعطف عليه اللص فأخذها من يده، ثم ضربه بها ضربة فزار سبع مرات وسقط وقد غشى عليه، فلما رأيت ذلك عدت إلى الطعان وأنا أقول:

أنا فلان سيـ ـد الفتيـ ـان
أخو ابن حمران فتى الميدان
لأضربن القوم بالمنيـ ـان
ضرب غلام ماجد كشحان
والعجز منسوب إلى الجبان

فأشد على واحد منهم فأضرب كتفيه ، فوثب قبل أن تصل إليه الضربة فضربني فهشم أنفي وكسر أسناني، وخررت مغشياً علي، ثم فتحت عيني فلم أر منهم أحداً ولا أدري كيف أخذوا! والحمد لله على الظفر([721]).

ولعله بعد هذا الوصف وهذه النماذج، يمكن القول بأن كتاب اللصوص كان من أهم كتب الجاحظ الفنية التي توضح قربه من العامة وتصويره لما يحكى عنهم، وهو كذلك يصور بعض نواحي المجتمع الاسلامي في تلك الفترة من الزمن، وما كان يداخله من الشرور الاجتماعية الملازمة التي لا يخلو منها مثله، تصويراً فنياً رائعاً يجمع إلى القصة في الوصف والاسترسال في التفصيل روح الفكاهة والسخرية التي غالباً ما يتسم بها أسلوبه .

كتاب البخلاء:

([721]) المحاسن والمساوئ ط السعادة ج2 ، ص 143 نقلها عن البخلاء /المقدمة الجائر.

وكذلك يعتبر هذا الكتاب أكبر إشارة ودليل على مخالطة الجاحظ للعوام وقربه منهم. يقول فيه علي الجارم:-

"وكتاب البخلاء يعد من غرر كتبه، ومتعة من متعه، فهذا الكتاب يمثل لك لوناً مما عالج الجاحظ، وفناً من فنونه الجمة وموضوعاً من موضوعاته المتعددة، قد يكون أهونها وأيسرها عليه، فقد زعموا أنه أملاه وهو مفلوج في أخريات أيامه، وقصته مع محفوظ النقاش توضح ذلك قال:-

"صحبني محفوظ النفاس من المسجد الجامع ليلاً، فلما صرت قرب منزله، وكان منزله أقرب إلى المسجد الجامع من منزلي، سألني أن أبيت عنده ، وقال: أين تذهب في هذا المطر والبرد، ومنزلي منزلك، وأنت في ظلمة، وليس معك نار، وعندي لبأ لم ير الناس مثله، وتمر ناهيك به جودة، لا تصلح إلا له! فملت معه، فأبطأ ساعة، ثم جاءني بجام لبأ، وطبق تمر – فلما مددت قال: يا أبا عثمان إنه لبأ وغِلَظُه، وهو الليل وركوده، ثم ليلة مطر ورطوبة، وأنت رجلَ قد طعنت في السن، ولم تزل تشكو من الفالج طرفاً وما زال الغليل يسرع إليك وأنت في الأصل لست بصاحب عشاء."[722] فإن أكلت اللبأ ولم تبالغ كنت آكلاً ولا تاركاً، وحرشت طباعك ثم قطعت الأكل أشهى ما كان إليك. وإن بالغت بتنا في ليلة سوء من الاهتمام بأمرك، ولم نعد لك نبيذاً ولا عسلاً[723]. وإنما قلت هذا الكلام لئلا تقول غداً: كان وكان! والله قد وقعت بين نابي أسد! لأني لو لم أجئك به وقد ذكرته لك قلت: بخل به وبدا له فيه. وإن جئت به ولم أحذرك منه ولم أذكرك كل ما عليك فيه، قلت: لم يشفق علي ولم ينصح، فقد برئت إليك من الأمرين جميعاً وإن شئت فأكلة وموتة! وإن شئت فبعض الاحتمال، ونوم على سلامة!

قال الجاحظ: فما ضحكت قط كضحكي تلك الليلة، ولقد أكلته جميعاً فما هضمه إلا الضحك والنشاط والسرور فيما أظن، ولو كان معي من يفهم طيب ما تكلم به،

---

(722) أي أنت شيخ ومعدتك ضعيفة ولست معوداً على طعام الليل واللبأ والتمر ثقيلان لا سيما إذا أكلت قبيل النوم.

(723) أي إن أكلت قليلاً أغريت معدتك على الحركة بما لا يسمن ولا يغني وإن أكثرت احتجت إلى مواد هاضمة ولا يوجد عندنا شيء منه وحين ذاك نكون نحن وأنت بشر ليلة.

لأتى علي الضحك أو لقضى علي، ولكن ضحك من كان وحده لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب.

فهذا الخبر صريح في أن الكتاب جمع والجاحظ يرعشه الهرم وتؤوده الأمراض، ولعل هذه من مميزات أبي عثمان فقد كانت روحه وهو في هرمه روح الشاب المرح الذي يسخر بما لا يعجبه في الناس، ويهزأ بما فطروا عليه من جبن وبخل وغرور.

يقول الجارم:-

"قد لا نكون مخطئين إذا زعمنا أن الجاحظ سبق الناس جميعاً فوضع في هذا الكتاب أصول "علم البخل" وفلسفته من حيث أن البخل عرض من أعراض النفس وغريزة من غرائزها، واحتج له بما لا مزيد معه لمستزيد، في أثناء القصص وتضاعيف الجدل، بما يبهر اللب، ويسحر النفس، لطف حياكة وبراعة صياغة، وكمال تأتّ حتى أن القارئ ليفرغ من الكتاب وليس في نفسه صورة من صور البخل مما قد يقع في الحياة،ويخطر على القلب، إلا صادفها فيه ولمسها في جنباته[724].

وتتضح مخالطته للعوام في أن الجاحظ لم يبعث هؤلاء البخلاء من بطون التاريخ وقديم الأخبار، وعتيق الأسفار بل جاء بهم من بيئته هو واستمدهم من خلصائه وخلطائه ذوي الظرف والدعابة، إما من البصريين أو إما من البغداديين، وإما من غير هؤلاء وأولئك ممن سمع عنهم، أو رويت له أخبارهم في البخل، ومذاهبهم في الجمع والمنع.

ثم خلع عليهم جميعاً من أسلوبه، وكساهم من رشيق لفظه وحلو تنسيقه، بهاء ونوراً حتى أنك لتقرأ فترى هؤلاء الذي درجوا وطوتهم الأيام، أحياء متكلمين، مجادلين، مناضلين جادين أو عابثين هازلين، يفهمون الحياة على نحو من الفهم قد يكون غريباً، وقد يبدوا لك وأنت تقرأ، عجيباً وإنه لتطالعك صور حية نابضة من

([724]) البخلاء: تصحيح وشرح: أحمد العوامري بك وعلي الجارم بك ص4.

حياتهم التي كانوا يحيون، وكيف كانوا يضطربون في تلك الحياة، ويتعاملون ويتفاهمون، ويغدون ويروحون[725].

هناك من وصف الجاحظ بالبخل واستدلوا على ذلك بكتابه هذا بحجة أن الولوع بالشيء يحبب إلى النفس التحدث عنه.

فقد قال شرح كتابه "البخلاء"[726]: "الولوع بالشئ يحبب إلى النفس التحدث عنه، والإفاضة فيه، ولأن من عرف الجاحظ وأن من أبرع صفاته أن يستر ما يحب أحياناً بإعلان ما لا يحب، رجح أنه كان بخيلاً[727]"

وأخرى: أنه حينما نقل في الكتاب رسالتين: إحداهما لأبي العاص بن عبد الوهاب ، في ذم البخل، والأخرى لابن التوأم، في مدح البخل. قالا: "نرجح أن الرسالتين بقلم الجاحظ لأن الأسلوب أسلوبه، والروح روحه، والتعبير تعبيره، ولأننا لم نعثر عليهما في غير كتاب البخلاء.

أسهب في الثانية وأجاد، وصال فيها وجال، وأفاض وأطال، وأكثر من الاستشهاد بالآيات والأحاديث وأقوال الحكماء وتنقل فيها من فن إلى فن، مقبحاً الإسراف والإعطاء مزيناً البخل والإكداء، ولا يمنع الجاحظ من أن يكون بخيلاً ما كان فيه من ثروة وغنى، وما كان يرف على حياته من نعيم، فإنه هو نفسه يرى في كتاب البخلاء أن كثرة المال وكثرة الإنفاق لا تمنع المرء أن يكون بخيلاً صلد الكف هزيل المروءة[728].

ليس فيما ذكر ما يدل على أن الجاحظ كان بخيلاً، وذلك لأنهما عند ذكرهما لرسالتي أبي العاص وابن التوأم تسرعا في الحكم عليه بالبخل والدليل على ذلك أنهما لم يذكرا مضمون الرسالة الأولى، فقد اكتفيا فقط بقولهم: (نقل رسالتين: الأولى لأبي العاص بن عبد الوهاب "في ذم البخل" ولم ترد إشارة إلى ما قاله في الرسالة الأولى

([725]) نفسه ص 5

([726]) البخلاء ، ص 15.

([727]) لعلهما يعنيان يستر ما لا يحب بإعلان ما يحب.

([728]) البخلاء، ص 15.

سوى ذلك القول، أما عن الثانية فقالا: "أسهب في الثانية وأجاد وصال وجال. إلى قولهم: "مقبحاً الإسراف والإعطاء مزيناً البخل والإكداء ....الخ"

فإذا كان هو بهذه الصفة لما قال لأبي العاص: "أما بعد فإن جلوسك إلى الأصمعي، وعجبك بسهل بن هرون واسترجاحك اسماعيل بن غزوان واختلافك إلى ابن التوأم، وإكثارك من ذكر المال وإصلاحه، والقيام عليه واصطناعه دليل وشاهد على عيب وإدبار[729]، بعد أن كنت تستثقل ذكرهم وتستشنع فعلهم، وتتعجب من مذهبهم، وتسرف في ذمهم، إلى قوله: "وليس يلهج بذكر الجمع[730] إلا من قد عزم على الجمع ولا يأنس بالبخلاء إلا المستوحش من الأسخياء.

حتى قال في آخر رسالته: ولقد فهمنا معنى حكايتك، وما لهجت به من روايتك. والدليل على انتقاض طباعك[731] وإدبار أمرك واستحسانك ضد ما كنت تستحسن وعشقك لما تزل تمقت، فبعداً وسحقاً! ولا يبعد الله إلا من ظلم! والشاعر أبصر بكم حيث يقول:

فإن سمعت بهلك للبخيل فقل ... بعداً وسحقاً له من هالك مودي[732]

تراثه جنة للوارثيـ ـ ـن إذا ... أودى، وجثمانه للترب والرواد

وقال آخر:

تبلى محاسن وجهه في قبره ... والمال بين عدوه مقسـ ـم

كل هذه الدلائل تشير إلى أن الجاحظ لم يتسم بصفة البخل كما وصفه علي الجارم والعوامري لأن من يتصف بالبخل لا يذكر مثل هذه الأقوال في ذمه. ولا يعني تأليفه بكتاب البخلاء أنه يتصل بالبخل لأنه ذكر الفائدة من مطالعة هذا الكتاب بقوله: "ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء: تبين حجة طريفة، أو تعرف حيلة لطيفة، أو استفادة نادرة عجيبة، وأنت في ضحك منه إذا شئت وفي لهو إذا مللت[733].

([729]) إدبار الأمر انتهائه إلى الفساد والتدهور.
([730]) جمع المال.
([731]) انحلالها وتداعيها.
([732])أودى أي هلك.
([733]) البخلاء ، ص 24.

وكما أشير من قبل أن قربه من العامة يتضح من خلال تأليفه لكتابي البخلاء وحيل اللصوص لأن من خلالهما تتضح مخالطته للعوام بذكره لأخبارهم وأحوالهم مع بيان أسمائهم أحياناً.

نتائج البحث:

رغم أن ظاهر كتب الجاحظ هو الاهتمام بالأدب، إلا أن المسائل اللغوية تحتل حيزاً غير يسير في كتبه خاصة كتابيه الحيوان والبيان والتبيين.

- أكثر الجاحظ من الاستشهاد بالقرآن الكريم والشعر العربي.
- اهتم بكلام العامة ولحنهم، ولم ينقل هذا عن الكتب بل استقاه من مخالطته للعوام في عصره.
- كان من الرواد المهتمين بعلم الصوتيات، وقد أفاد علماء اللغة كثيراً من المادة المتوافرة في كتبه ومن آرائه واستنباطاته.
- كان أول من تعرض لعيوب اللسان مع تعريف كل عيب منها تعريفاً مفصلاً، وضرب الأمثلة لزيادة الإيضاح.
- كان في تعريفه لعيوب النطق كثيراً ما ينسب بعض الأقوال للأصمعي مما يوضح أنه أيضاً كان من المهتمين بهذه الظاهرة.
- طرق في كتابه البيان والتبيين موضوعاً لم يتعرض له الباحثون قبله وهو عيوب الخطباء، وصفات الخطيب.
- كثر الاختلاط بالأعاجم في عصره، مما أدى إلى الانحراف في نطق الأصوات، وهذا جعله يبين كيفية نطق الأعاجم ذاكراً أسماءهم، وواصفاً هيئة كلامهم.
- حفلت كتبه بكثير من الألفاظ الفارسية التي شرح بعضها وأهمل بعضها.
- إهماله لشرح بعض الألفاظ الفارسية ناتج من اعتقاده بمعرفة جميع الناس بهذه اللغة وذلك لانتشار الثقافة الفارسية في ذلك الحين.

- يعتبر الجاحظ أول مؤلف في البيان العربي، وقد أثبت في كتابه البيان والتبيين أصالة البيان عند العرب؛ وأنه فيهم طبع وسليقة، وقد افرد له باباً خاصاً سماه باب البيان، وحصر فيه أنواع البيان بخمسة أشياء ذكرت في ثنايا البحث.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق، عبد القادر الأرناؤوط، ط. دار الفكر 1970م.

ابن الأثير: ضياء الدين

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق بدوي طبانة، ط1، مطبعة نهضة مصر القاهرة 1950م.

ابن الأثير: عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم

(أ) أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرين، ط. دار الشعب ، د.ت

(ب) الكامل في التاريخ ، ط. دار صادر – بيروت 1966م.

أحمد الطيب:

أصوات وحناجر جمع، جمع وإعداد عثمان حسن أحمد، ط. دار الطباعة والنشر، جامعة الخرطوم. 1975م.

الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد

الأغاني ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، ط3 ، دار الثقافة بيروت، د.ت

البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي الخطيب

تاريخ بغداد، ط1، دار الكتب العلمية بيروت. د.ت.

البغدادي: عبد القادر بن عمر

خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، تحقيق عبد السلام هرون، ط. مكتبة

الخانجي القاهرة. د.ت.
بلميح: أدريس
الرؤية البيانية عند الجاحظ، ط1، دار الثقافة، المغرب 1984م.
التبريزي: الخطيب فخر الدين قباوة
تهذيب إصلاح المنطق، ط1، بيروت الجزيرة بيروت 1983م.
الترمزي: أبو عيسى محمد بن عيسى
أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم، ق. سميح عباس، ط1، دار الجيل-بيروت، 1989م.
الثعالبي: الثعالبي أبو منصور
فقه اللغة، ط. المكتبة العصرية – بيروت 2002م.
ثعلب : أبو العباس أحمد بن يحيى
مجالس ثعلب الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، ط2 دار المعارف-مصر، د.ت.
الجاحظ: عمرو بن بحر بن محبوب
أ- البيان والتبيين، تحقيق حسن السندوس، ط. دار الفكر-بيروت،
ب-البخلاء ، إشراف محمد علي الزعبي، ط. منشورات مكتبة العرفان- بيروت 1955م.
ج- الحيوان، تحقيق عبد السلام هرون، ط. درا دار الجيل-بيروت 1988م.

الجذري: الإمام المبارك بن محمد
جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، ط. دار الفكر 1970.

الجرجاني: الإمام عبد القاهر
أسرار البلاغة، ط2، بيروت 1979م.
الجمحي: محمد بن سلام
طبقات فحول الشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر، د.ت.
ابن جني: أبو الفتح عثمان
(أ) الخصائص، ق. محمد علي النجار، ط3، الهيئة المصرية العامة، للكتاب 1986م.
(ب) سر صناعة الإعراب، تحقيق د. حسن هنداوي ، ط. دار القلم – دمشق.
جميل جبر:
الجاحظ في حياته وأدبه وفكره، ط. دار الكتاب اللبناني 1959م.
الجواليقي: موهوب بن أحمد الخضر
المعرب من الأعجمي على حروف المعجم، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط4، دار الكتب والوثائق القاهرة 2002م.
الجوهري: اسماعيل بن حماد
الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور عطارد، ط. دار الكتاب العربي –مصر ، د.ت.
الحاجري: د. طه
الجاحظ حياته وآثاره، ط. دار المعارف، مصر 1962م.
حاجي خليفة: مصطفى بن عبد الله القسطنطيني
كشف الظنون، ط. المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة 1981.

حسن السندوبي:
أدب الجاحظ، ط1، القاهرة 1931.
الحموي: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله،

معجم الأدباء، ط3، دار الفكر للطباعة والنشر، 1980م.

أبو حيان: محمد بن يوسف الأندلسي

البحر المحيط، ط2 دار الفكر للطباعة والنشر 1971.

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد

المقدمة، تحقيق محمد عبد الواحد وافي، ط3، النهضة للطبع والنشر، القاهرة، د.ت.

ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد

وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، ط. دار صادر-بيروت، د.ت.

خليف: يوسف

حياة الشعر في الكوفة، ط. دار الكاتب العربي-القاهرة 1908م.

أبو داؤد: سليمان بن الأشعث.

صحيح سنن المصطفى، ط. دار الكاتب العربية- بيروت، د.ت.

داؤد سلام

النقد المنهجي عند الجاحظ، ط. بغداد 1960م.

الرزاد: فيصل محمد خير

اضطرا بات اللغة والكلام، د.ت

الزبيدي: أبو بكر محمد بن الحسن

طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. دار المعارف مصر، د.ت.

الزجاجي: أبو القاسم عبد الرحمن ابن اسحق

(أ) أمالي الزجاجي، تحقيق عبد السلام هارون، ط1 1382هـ.

(ب) مجالس العلماء، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الناشر مكتبة الخانجي القاهرة، ط. دار الرفاعي بالرياض ، ط2، 1983م.

الزركلي: خير الدين

الأعلام، ط. وكالة المعارف، استانبول 1951.
الزمخشري: جار الله أبو القاسم محمد بن عمر
أساس البلاغة، ط3 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1985م.
ابن سعد: محمد بن منيع الهاشمي
الطبقات الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر، ط1، دار الكتب العلمية-بيروت 1990م.
ابن السكيت: يعقوب
إصلاح المنطق، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط1، دار المعارف بمصر 1949م.
سيبويه: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر
الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط2، مكتبة الخانجي القاهرة 1982م
ابن سينا: الرئيس أبو علي الحسين
أسباب حدوث الحروف، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، ط. مكتبة الكيات الأزهرية، د.ت.
السيوطي: جلال الدين بن عبد الرحمن
(أ) الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق أحمد محمد قاسم، ط1، القاهرة 1976.
(ب) بغية الوعاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. المكتبة العصرية-بيروت، د.ت.
(ج) الجامع الصغير من حديث البشير النذير، تحقيق عبد الله درويش 1996م.
(د) المزهر في علوم اللغة، تحقيق أحمد جار المولى وآخرين، ط. دار الفكر للطباعة والنشر، د.ت.
طبانة: بدوي أحمد
البيان العربي، ط6، مكتبة الأنجلو المصرية 1976م.
الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير

(أ) تاريخ الرسل والملوك، ط. القاهرة 1966.
(ب) تفسير الطبري، تحقيق محمود محمد شاكر، ط. دار المعارف-مصر، د.ت.
العسقلاني: ابن حجر أحمد بن علي
(أ) الإصابة في تمييز الصحابة، ق. محمد علي البجاوي، ط. نهضة مصر للطباعة، د. ت.
(ب) تهذيب التهذيب، ط. دار صادر- بيروت 1327هـ.

العسكري: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل
(أ) جمهرة الأمثال، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم ، ط2، دار الجيل- بيروت، د.ت
(ب) الصناعتين ، تحقيق محمد علي النجار ، ط1، دار إحياء الكتب 1992م.

الفاخوري: حنا
(ب) تاريخ الأدب العربي، ط. المكتبة البوليسية-بيروت ، د.ت
(أ) نوابغ الفكر العربي، ط. دار المعارف بمصر 1994م.
الفراهدي: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد
العين، تحقيق مهدي المخزومي، ط. ، دار إحياء التراث العربي-بيروت 1985م.
فكتور شلحت:

النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ، ط. القاهرة 1964.
الفيروزبادي: مجد الدين
القاموس المحيط، ط3، المطبعة المصرية 1933م.
القالي: أبو علي اسماعيل بن القاسم
الأمالي، تحقيق محمد عبد الجواد الأصمعي، ط. دار الفكر للطباعة والنشر-مصر، د.ت.
القرطبي: أبو عبد الله محمد الأنصاري
الجامع لأحكام القرآن، ط. دار التراث العربي بيروت 1985م.
القشقلندي: أبو العباس أحمد بن علي
صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ط. المطبعة الأميرية-مصر، د.ت
القفطي: أبو الحسن علي بن يوسف
إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ت.مطبعة دار الكتب المصرية 1973م.
القيرواني: أبو علي الحسن بن رشيق
العمدة، تحقيق محمد محي الدين، ط4، بيروت 1972.
ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري
(أ) عيون الأخبار، ط. المؤسسة المصرية العامة ، د. ت
(ب) أدب الكاتب
(ج) الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط. دار المعارف-مصر 1966 م.
ابن كثير: أبو الفداء اسماعيل القرشي الدمشقي
تفسير ابن كثير، د.ق، ط. دار الهناء، د.ت.
كحالة: عمر رضا
معجم المؤلفين، ط1، مؤسسة الرسالة 1993م.

الكفوي: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني
الكليات، ط1، مؤسسة الرسالة- بيروت 1995م.
المرتضى: علي بن الحسين الموسوي العلوي
أمالي المرتضى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية 1954م.
محمد بن اسماعيل بن عبد الله الصاوي:
شرح ديوان جرير، ط. مكتبة محمد حسين الثوري – بيروت، د.ت
محمد علي كرد:
أمراء البيان ، ط2، القاهرة 1948.
محمود قاسم:
المنطق الحديث ومناهج البحث، ط4 ، القاهرة 1966م.
المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسن
مروج الذهب، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، ط. طار الفكر- بيروت، د.ت.
ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم
لسان العرب، ط. دار صادر – بيروت ، د.ت
الميداني: أبو الفضل أحمد بن أحمد النيسابوري
مجمع الأمثال، ط1، المطبعة الخيرية 1310هـ .
ابن النديم: أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحق
الفهرست، تحقيق رضا تجدد، د.ت.
النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب
نهاية الأرب في فنون الأدب، ط2، مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة 1930م.
الهندي: علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين

كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، نشر وتوزيع مكتبة التراث الإسلامي، حلب، د.ت.

ابن هشام: أبو محمد عبد الملك المعافري

السيرة النبوية ، تحقيق عمر عبد السلام، ط. دار الريان للتراث- القاهرة، 1987م.

هيكل: محمد حسين

حياة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ط1، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة 1990م.

وافي: علي عبد الواحد

فقه اللغة، ط. نهضة مصر للطباعة - القاهرة د. ت.

وديعة طه النجم:

الجاحظ والحاضرة العباسية، ط. مطبعة الإرشاد – بغداد 1965م.

ابن يعيش:

شرح المفصل، نشر إدارة الطباعة المنيرية، د.ت

يوسف الخليفة أبو بكر

أصوات القرآن، ط. مكتبة الفكر الإسلامي – الخرطوم 1973م.

الدواوين والدوريات

ديوان الفرزدق:

ط. دار صادر بيروت ، د.ت.

ديوان سحيم عبد بني الحسحاس:

صنعة نفطويه أبي عبد الله إبراهيم بن عرفة الأسدي، تحقيق عبد العزيز الميمني، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، د. ت.

نقائض جرير والفرزدق:

ط. مدينة ليدن بمطبعة بريل، 1907م.

مجلة آداب الرافدين :

جامعة الموصل 1977م، العدد الثامن.

مجلة الأزهر:

ط. مطبعة التحرير-القاهرة 1945م.

مجلة كلية اللغة العربية:

جامعة الإمام محمد بن سعود – الرياض 1977م، العدد السابع.

مجلة مجمع اللغة العربية:

ط. مطبعة التحرير القاهرة، مجلد 12.

مجلة مجمع اللغة العراقي:

بغداد 1985م، مجلد 36.

ملخص البحث

كان للجاحظ دوره المتميز من بين المهتمين بأمر اللغة، ويتضح ذلك من خلال مؤلفيه الكبيرين: الحيوان والبيان والتبيين، حيث كان اهتمامه فيها يتركز في تقويم اللسان ووقايته من الخلل الذي يطرأ على الألفاظ نطقاً، وينتج عن لهجة أو عجمة أو انحراف في التلفظ، ويعتبر هو الرائد في هذا المجال.

تركزت الدراسة في هذه المؤلفات على ستة فصول، اندرجت تحت عنوان: "الظواهر اللغوية في مؤلفات الجاحظ". قسمت فصول هذه الدراسة على النحو التالي:

- الفصل الأول: بعنوان الجاحظ ومؤلفاته. ويتكون من مبحثين، تناول الأول: ترجمة المؤلف، أما الثاني: فقد حوى عرضاً مفصلاً لهذه المؤلفات "موضوع الدراسة".
- الفصل الثاني: وعنوانه: اختلاف لغات القبائل والأمصار، كان الحديث في المبحث الأول عن ذكر عدد من القبائل العربية ومدى تفاوتها في درجات الفصاحة. أما المبحث الثاني، فكان موضوعه اختلاف لغات الأمصار ومدى تأثرها باللغات النازلة فيها من القبائل.
- الفصل الثالث: إسهامات الجاحظ في الدراسة الصوتية. تحدث المبحث الأول عن صفات الأصوات ومخارج بعضها، وتنافر الحروف والكلمات. أما المبحث الثاني تحدث عن عيوب اللسان من لثغة وتمتمة ولجلجة إلى غيرها من العيوب.
- الفصل الرابع: وتحدث عن اهتمامات الجاحظ المعجمية. تناول المبحث الأول، ما فسره الجاحظ من ألفاظ اللغة العربية، أما المبحث الثاني فقد تناول ما فسره من الألفاظ الفارسية.
- الفصل الخامس: بعنوان البيان وعيوبه، وهو يشتمل مبحثين. الأول: حد البيان، أما الثاني، فقد تناول عيوب البيان التي تمثلت في اللحن بجانب العيوب الناتجة عن نطق الأعاجم للألفاظ العربية.

- الفصل السادس: اهتمام الجاحظ بالعوام. وذلك بحكم مخالطته لهم.

وختم البحث بتسجيل أهم النتائج التي تمخضت عنها الدراسة.

Abstract

Among those who are concerned with the language was Al-Gahiz. This was obvious be cause of his two books: Alhaiwan and Albian wa Altabyin. His interest covered the area of performance; the evaluation of tongue and the production of words. Beside its prevention from errors resulting from dialects or deviation in pronuounciation, and he is considered the pioneer in this field.

This study is composed of six chapters under the title "Linguistic Phenomenon in Al-Gahiz's Books." This study chapters were divided as follows: chapter one entitled Al-Gahiz and his books. Its is sub-derided into two sections: The first deals with; a biography of the author where as the second discussed a detailed stydy to these books "The subject of the study"

Chapter two deals with language varieties among Tribes and Cities. The first section handles the number of Arabic Tribes and their variations in intelligibility. Section two speaks about the differences in cities languages and the extend to which they are influenced by tribes languages.

Al-Gahiz's contributions in phonetics studies is the title of chapter three. Section one is about sounds features and the production of some of them as well as some letters and words variations section two discusses the tongue's defects.

Chapter four speaks about Al-Gahiz's interests in dictionaries. Al-Gahiz's interoperation of Arabic vocabulary is the topic of section one. Section two handles what he explained from Parisian vocabulary.

In chapter five I discussed Albayan and its defects. It contains two sections. The first one deals with the Limit of Albayan, and the second is about its defects which are represented in accents as well as the defects resulted from the pronuounciation of foreigners to Arabic words.

Chapter six speaks about Al-Gahiz's interest in the public people because of his living with them.

The study is concluded by providing the most important results of the research.